مملكة جَهْلواد

• مملكة جَهْلواد / رواية

• د. محمد عبد العزيز ربيع

• الطبعة الأولى : 2011

• حقوق النشر والتوزيع محفوظة :

دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع
P.O. Box 927651 Amman 11190 Jordan
Tel. +962 6 5606 263 - Fax + 962 6 5606 362
E-mail : wardbooksjo@yahoo.com

• الإشراف الفني : **محمد الشرقاوي**

• رقم. الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : 2010/6/2370
• ISBN 978 - 9957 - 522 - 38- 4 (ردمك)

د. محمد عبد العزيز ربيع
professorrabie@yahoo.com
www.yazour.com

تجدون كتبنا على الموقع التالي
www.darwardjo.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر . لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبَق من. الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced. stored in a retrieval system. or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the publisher.

د. محمد عبد العزيز ربيع

مملكة جَهْلواد

على شاطئ البحيرة

سَهر مع القمر طويلاً، نام حتى آخر الليل، وصحا عاشقاً لا يعرف غير العبث.. مرّ على البحيرة، كان النسيم ذاك الصباح منعشاً، قَبَّلَ وجهها الصبوح بحنان، غسل وجهه بمائها، تراكضت أمامه قطرات الماء خجلاً من عين الشمس التي كانت ترقبهما عن كثب. ازداد نشوةً وشوقاً، مرّ على الأزهار والأغصان الطرية المحيطة بالبحيرة، يداعبها برفق فتتمايل بدلع يعكس ما كانت تحسّ به من غبطة وسعادة. لكن الأزهار والأغصان وزهرة عباد الشمس ما لبثت أن توقفت حين رأت صورتها على صفحات البحيرة تتراقص وحيدةً بلا شريك. أدارت وجهها بعيداً نحو الشمس التي كانت تشقُّ طريقها بدلال وكبرياء نحو وسط السماء، ابتسمتْ لها بحنان، وتركت نفسها شاهداً على تناغم الغيوم مع زرقة السماء ورائحة الطبيعة الآتية من بعيد. وما أن اكتمل وجه الشمس حتى فتحت زهرة عباد الشمس أوراقها الصفراء التي تحاكي ألوان الخريف، تحتضن فراشات الربيع بشوق، تكشف عن عشقها الدفين لدفء الشمس، وتتابع دورانها باسمة الوجه، وتستمد من حرارتها عطراً يغذي روحها، ويعطي لوجودها معنىً، ولحياتها هدفاً.

وهناك على بُعد عشرات الأمتار وقف السلطان جلهود الأول ملك البلاد وسيد العباد على شرفة قصره الشامخ يطل على البحيرة، ومن خلفه كروم العنب وحدائق النخيل وسنابل القمح التي كانت تتمايل مع نسيم الصباح العليل. نظر السلطان إلى البحيرة التي طالما حيرته بسحرها، أغمض عينيه وغاب في حلمٍ قصير لم يوقظه منه سوى صوت

سرب بط يتداعى للسباحة واللهو على وجه الماء. دار السلطان إلى الناحية الثانية من الشرفة، نظر إلى الحقول الخَصبة التي تحتضن قصره بحنان وتغمر أنفاسه بالعطر طوال ساعات النهار، أخذ نفساً طويلاً وتنهّد كأنه يتحسر على شيءٍ ما. ومن بعيد، رأى السلطان مئات الفلاحين، يتصببون عرقاً وظهورهم محنيةٌ، يحرثون الأرض، يروون النباتات والأشجار، يجمعون المحاصيل، يقطفون الثمار والأزهار، ويغنّون أغاني الفرح بقدوم موسم الحصاد، ويدعون لسلطانهم المحبوب وقائدهم العظيم بالهناء وطول العمر، يشكرون الأرض والسماء على كرمها وعطائها، ويحلمون بيومٍ جميلٍ تتحقّق فيه أحلامهم ويستعيدون فيه حريتهم.

وعلى بعد أمتارٍ من زهرة اللوتس، وقف عمرود متكئاً على عصاه التي لم يكن يسير بدونها، ألقى نظرة تأملٍ عميقةٍ على وجه البحيرة المبتسم، ثم سار في سبيله. كان عمرود يسير ثلاثين أو أربعين خطوةً ثم يتوقف دقائق، وأحياناً ساعات، يقرأ على صفحات الماء لون السماء، وأحوال الطقس، ومدى حرص نهر سراد المقدس على العناية بعشاقه من الأزهار والورود والطيور والحيوانات البرية، وحنانه على سكان القرى المحيطة بالبحيرة الذين كانوا بحاجة لمياهها لري أراضيهم وما تحمله من طمي كل عام لإخصابها. كان النهر والبحيرة وما بها من أسماك وبط ونباتات، وما يزورها على مدار السنة من طيورٍ مهاجرةٍ مصدر إلهامٍ لعمرود، ذلك الفيلسوف الذي جاء يحمل رسالة حبٍ ووفاءٍ للأرض والفلاحين والأحبة والسلاطين، لكن يبدو أنه وصل متأخراً عن ميعاده بكثير.

ينحدر عمرود من بني الكراميد الذين عاشوا في أعالي نهر سيراد، حيث جاء أجداده الأوائل إلى بلاد الفلاحيد الجميلة ذات الطبيعة الخلّابة حين جرفتهم مياه الطوفان وحملتهم إلى تلك البحيرة قبل حوالي ألف عام. وبعد أن استقرّ الحال بالناجين من الطوفان في موطنهم الجديد، أطلق الكراميد على بحيرتهم اسم «بحيرة الأهاويل» العملاقة، وذلك تخليداً لذكرى وصولهم إليها، وما قاسوه من عذاب على شطآنها، وما عانوه من خوف ومرض وقلق على ضفافها. لكن حين فكروا في اسم لبلادهم الجديدة كان الأمل هو مرشدهم، مما جعلهم يطلقون عليها اسم بلاد الفلاحيد.

بعد أن استمتع عمرود بمنظر طيور الصباح تضع أرجلها في الماء، تشرب وتستحم قبل بدء رحلة البحث عن الطعام والعودة إلى أطفال راقدة في حضن الشجر، غرق كعادته في بحر من التأمّل والاستقراء.. مياهٌ وثلوجٌ تتساقط في فصل الشتاء، تتجمع في أودية كثيرة تشكّل فواصل بين الجبال والتلال، تجري في كل اتجاه لتصبّ في نهاية المطاف في نهر لا يتوقف عن الجريان والعطاء أبداً، يوفّر الماء الري كل شيء حيّ، للأرض والإنسان والزهر والأشجار والحيوانات والطيور، ويمنحها الحياة. وحيث يصادف النهر في طريقه منعطفاً واسعاً أو أرضاً منخفضةً يتلكأ في سيره كثيراً ليصنع من ذلك المكان بحيرةً، كبيرةً أحياناً، وصغيرةً في غالبية الأحيان الأخرى، تعيش فيها أسماكَ ذات أحجام وألوان متنوعة، توفّر للناس فرصةَ الصيد، وتوفّر للطيور فرصة الشربَ والاستحمام والرقص على صفحاتها. وكلما فقدت البحيرة بعض مائها في عمليات الريّ والتبخر في فصل الصيف، تتجمع الغيوم في السماء من جديد، وتتحول في فصلي الخريف والشتاء إلى أمطارٍ

غزيرة وثلوج كثيفة تُجدد دورة حياة النهر والبحيرة، وكل ما يعتمد عليها من مخلوقات حية. وهنا تساءل عمرود عمّا إذا كان هناك قوةٌ خارقةٌ تتحكم في شؤون هذا الكون الذي يبدو محكم التكوين والتدبير.

نظر عمرود إلى وجه البحيرة ثانيةً، رآها لا تزال تبتسم فَرِحةً بقدوم النهار وتَتابُع أسراب الطيور، حاول أن يغوص في أعماقها ويكتَشِفُ سرّ سعادتها الدائمة، وهناك رأى وجهه على صفحاتها. كان الوجه غريباً، كاملاً أحياناً، ومكسراً أحياناً أخرى، وغير ثابت على حال من الأحوال، كأنه ورقة خريف تتلهّى بها رياحٌ عابثةٌ. ابتسم عمرود ابتسامةً ساخرةً، تكسّرت هي الأخرى على صفحات البحيرة، وظهرت وكأنها ابتسامةٌ ساخرةٌ أو عابثةٌ، لم يستطع تحديد معناها بدقة. هكذا هي الحياة والدنيا، همس عمرود في سرّه، لا تستقيم على حال، ولا يهدأ لها بال، وقليلاً ما نستطيع أن نقرأ سرّها أو نفهم مراميها.. الحياة رفيق لا يتعب منّا حتى وإن تعبنا منه، لا يتركنا وحالنا حتى وإن حاولنا أن نتركه وحاله، لا يتوقف عن السخرية من أحلامنا والعبث في مستقبلنا، حتى وإن غبنا عن ناظريه وخَطفَنا الموت منه، إذ تصبح حياتنا بعد الموت ذكريات، وتغدو هفواتنا حكايات، وتتحول أمجادنا الماضوية خرافات وأساطير وإشاعات تتناقلها ألسنة الناس وتلوكها بلا رحمة. مدّ عمرود يده إلى جيبه، أخرج منديله الأبيض، مسح حبات الرذاذ التي تساقطت على جبينه، ثم واصل السير كالمعتاد بعد وقفة طويلة.

توقف عمرود برهةً ليلتقط أنفاسه بعد أن سار بضع دقائق، التفت إلى الخلف بشكل لا إرادي، لأنه قليلا ما ينظر إلى الخلف عن قصد، فإذا به يرى السلطان جلهود واقفاً على شرفة قصره، يراقب كل ما كان يدور حوله من أشياء، وما يمر أمامه من فلاحين وحيوانات، وما يعُبرُ

البحيرة المترامية أمام قصره الكبير من قوارب صيد وأسراب طيور مهاجرة.. كان عمرود إنساناً غير عادي، يعيش حياته بناءً على فلسفة غير عادية، لا ترى فائدةً من النظر إلى الخلف.. من الندم على شيءٍ فات وانتهى وقته.. كان يعتقد أن كل إنسانٍ يعيش في الماضي البعيد، ويعتقد أن ذلك الماضي هو نواة المستقبل الذي يحلم به، هو إنسانٌ واهمٌ يعيش في عالم تسوده أحلامٌ لا تمتّ لواقع الحياة بِصلة.. هو إنسانٌ ضعيفُ التفكير، قصيرُ النظرِ، عديمُ البصيرةِ. لذا لم يكن عمرود يرى سبباً للتطلّع إلى الوراء، ولا يعتقد بوجود عائد من البكاء على أطلالٍ اندثرت بفعل الزمن، فالأطلال في عُرفه أشياءٌ من صنع زمنٍ مات وماتت معه، ولم تعد بالتالي صالحةً لما بعده من أزمنة.. رسومات تخيّلها فنانٌ لم يعد له وجود، أو كلمات أديب أو شاعرٍ عكست ما كان يجول في ذهنه من أفكارٍ أو أحلامٍ عابرةٍ لا يمكن لها أن تعيش حياة خلود.

حين لمح السلطان عمرود أشاح بوجهه بعصبية وانفعال بعيداً عنه، ودخل إلى بهو قصره محتّداً كأن منظر عمرود عَكَّرَ صفو نهاره الجميل. لكن عمرود تجاهل السلطان جلهود وما حدث تماماً، وتظاهر بأنه لم يَر شيئاً لأن عين الشمس كانت في عينيه. لذا واصل سيره نحو الغرب على طول شاطئ البحيرة كالمعتاد، مبتعداً بذلك عن جلهود وقصره العامر، وكأن شيئاً لم يكن. كان عمرود، ودون غيره من الناس، شخصاً غير مرغوبٍ فيه من قبل السلطة في البلاد، يخشاه السلطان ولا يعرف كيف يحتويه، لا يحبه ولا يدري كيف يتخلّص منه. فعمرود كما رآه السلطان، وكما رسمت أجهزة المخابرات الرسمية صورته للقصر، كان رجلاً مشكوكاً في إخلاصه ووطنيته، يحمل أفكاراً غريبة هدّامةً، تتناقض

مع تقاليد المجتمع وعاداته المتوارثة عبر أجيال وعصورٍ كثيرةٍ، وتشكّل خطراً على استقرار المجتمع وأمن النظام الحاكم.

كان جلهود ابن مشهود، الجد الأكبر للسلطان جلهود الأول قد جاء إلى بلاد الفلاحيد قبل حوالي ٢٠٠ سنة عارياً، جائعاً، متعباً، وعلى وشك الموت، وذلك بعد أن فاض نهر سراد المقدس، وجرفته مياه الفيضانات مع العديد من البيوت والأشياء والنباتات والحيوانات إلى شاطئ بحيرة الأهاويل، وذلك في رحلة عذابٍ استغرقت أياماً. كان الشيخ عثيران، الذي تقاعد بعد أربعة عقودٍ متواصلة من العمل رئيساً لمحكمة بلاد الفلاحيد، قد تبّرع بالخروج كل صباحٍ في موعد الفيضانات من كل سنة لتفقد شواطئ البحيرة، والتأكد من أن النهر لم يقذف لبلاده وشعبه بضحايا جددٍ من ناسٍ وحيواناتٍ بحاجة لإنقاذٍ أو مساعدةٍ وعنايةٍ، وأنه لم يحمل لهمٍ ما من شأنه أن يجلب لهم الأمراض والأوبئة المعدية. وبالرغم من مضي سنواتٍ على قيام الشيخ عثيران بتلك المهمة النبيلة، إلا أنه لم يصادف يوماً إنساناً حملته الفيضانات إلى شواطئ بحيرة الأهاويل، لكنه صادف في الكثير من الأيام حيوانات وأسماكاً ميتةً، كان يسرع إلى دفنها قبل أن تتعفن، ويقوم بتحذير السكان من خطرها وحثّهم على عدم الاقتراب من أمكنتها لبضعة أيام لاحتمال تلوّثها بالأوبئة.

لكن ما أن بدأ الشيخ عثيران رحلته التفقدية ذات صباح، ولم تكن الشمس قد كشفت عن وجهها الصبوح بعد، حتى اعترض طريقه كلبٌ متعبٌ لكنه ذكي. قام الكلب بحركاتٍ بهلوانيةٍ جلبت انتباه الشيخ وقادته إلى حيث كان جلهود ابن مشهود مستلقياً على وجهه على شاطئ البحرة بين الطحالب والأعشاب في حالةٍ يرثى لها بين الحياة الموت.

حين لمح الشيخ جثة جلهود ظنَّه في أول الأمر شبحاً خرج من بطن بحيرة الأهاويل، أو سمكة من الأسماك العملاقة التي تهاجم البشر وتعيش في البحيرة بأحجام سكبيرة وأعداد وفيرة. إلا إن ذاكرة عثيران المثقلة بقصص النهر وأهوال الفيضانات، جعلته يدرك في الحال، ودون عناء يذكر، أن الغريب القادم إليهم كان ضحيةً من ضحايا مياه النهر، حملته الفيضانات والأقدار إلى ديارهم. لذا قام الشيخ على الفور بوضع الغريق على ظهر حماره وحمله إلى بيته الذي كان يجلس على إحدى التلال المشرفة على مدينة غمره، بينما كان كلبه شهمان يسير في إثره مرافقاً لسيده. وهناك قام الشيخ بإيواء جلهود وكلبه من البرد، وأمر زوجته أن تعتني بهما، ولم يسأل الشيخ عثيران ضيفه عن اسمه، أو أصله، أو نسبه، أو الجهة التي قدم منها إلا بعد أن استعاد كامل صحته وذاكرته وبسمته.

كان الشيخ عثيران يحفظ عن ظهر قلب قصة أجداده الأوائل الذين جرفتهم مياه الفيضانات قبل حوالي ألف عام، وألقت بهم على شاطئ بحيرة الأهاويل، وذلك بعد أن هدمت المياه الغاضبة قراهم في بلاد الكراميد، ودمرت بيوتهم، وأهلكت مواشيهم، وجرفت كل من صادفته في طريقها من الأحياء والأموات إلى شاطئ تلك البحيرة النائية. ومن نسل الناجين من تلك الفيضانات، جاء الشيخ عثيران ومن معه من أبناء العائلات الخمسة التي تسكن بلاد الفلاحيد. وحين سأل الشيخ ضيفه عن اسمه وأصله، تأكد على الفور من أن ضيفه جاء من بلاد الكراميد التي ينحدر منها أجداده الأوائل. لذا فرح الشيخ الوقور فرحاً كبيراً بضيفه الذي رأى فيه واحداً من أولاد عمومته، وحلقة وصل تعيد ربطه بجذوره، ولذا قرر أن يأخذه في جولة تفقدية على كافة قرى بلاد

الفلاحيد، يزور أهلها ويتعرف عليهم، ويزور بيوتها وبساتينها وحقولها الخصبة، ويطلع على انجازات أبناء عمومته الحضارية، ويحكي للناس قصته وقصة أجدادهم وأصولهم، ويصف لهم حال البلاد التي وُلِد وعاش فيها طويلاً قبل أن يخطفه النهر منها ويأتي به إليهم، وكيف أنه كان ضحية فيضانات عاتيةٍ توقَّع حدوثها وتنبأ بتوقيتها، لكنه فشل في أخذ حذره منها .

عودة إلى البدايات

تقول الأساطير الشائعة في بلاد الكراميد والفلاحيد أن نهر سراد المقدس فاض قبل حوالي ألف سنة، وذلك بعد موسم شتاء قارص هطلت فيه الثلوج لأسابيع بلا انقطاع وغطت كل الجبال الواقعة على الجانب الآخر من بحيرة البهاليل. ومع بدايات فصل الربيع، وارتفاع درجات الحرارة، أخذت جبال الثلج في الذوبان تدريجياً حتى اختفى بعضها عن العيان تماماً، بينما بقيت الثلوج تغطي قمم العديد من الجبال البعيدة الأخرى ذات الارتفاع الشاهق. ومع تزايد معدل ذوبان الثلوج مع تقادم الربيع، أخذت المياه تتجمع في الوديان التي تفصل الجبال عن بعضها البعض، تشكِّل جداول وانهار فرعيةً صغيرةً كثيرةً، وتتدفَّق بشكلٍ متواصلٍ وكثافةٍ عاليةٍ في مجرى نهر سراد المقدس. وبسرعةٍ كبيرةٍ غير متوقعةٍ ارتفع منسوب المياه في النهر، محدثاً بذلك فيضاناتٍ لا مثيل لها في تاريخ البلاد، حيث غمرت المياه السهول والنباتات والكروم الواقعة على شواطئه، ودمرت معظم القرى وهدمت البيوت القريبة منه، وقتلت غالبية الناس والحيوانات، وتسببت في نشر الأمراض والأوبئة على نطاقٍ واسعٍ، مؤدية بذلك إلى وفاة معظم الناجين، وفناء ما كان قد تبقى لديهم من مواشي. وفي ضوء ذلك الحدث الكبير، أطلق الناجون على ذلك العام اسم «سنة الفناء» وعلى الفيضانات اسم «الطوفان العظيم.»

قامت مياه الفيضانات التي غمرت بلاد الكراميد ودمرت معظم قراهم بجرف عددٍ قليلٍ من الناس، حملهم نهر سيراد في طريقه مع ما حمل من جذوع أشجار وحيوانات وأشياء أخرى بعيداً عن تلك

البلاد، ورماهم على شواطئ بحيرة هادئة تبعد أياماً. وبينما مات معظم ضحايا الفيضان من أبناء الكرامِيد أثناء تلك الرحلة العصيبة، كان من بين الناجين ثلاثة إخوة، رجلان وامرأة فاجأهم الطوفان أثناء وجودهم في قاربٍ صغيرٍ يجوب مياه بحيرة البهاليل في رحلة صيدٍ عاديةٍ. ومن حسن حظ أولئك الناجين أنهم حملوا معهم في ذلك اليوم ما يحتاج إليه الصيادون عادةً من أدوات صيدٍ ومأكولاتٍ وأوعيةٍ فخاريةٍ ونحاسيةٍ لحفظ المأكولات والماء، وبعض المعدات كالسكاكينِ والحبالِ التي تستخدم في عمليات الصيد وإرساء القوارب. وبسبب برودة الجو في أوائل فصل الربيع في بلاد الكراميد، كان الأخوة يلبسون ملابس دافئةً وطواقي على رؤوسهم، ويحملون معهم عباءاتٍ صنعت من الصوف كي تحميهم من برودة الجو في ساعات الصباح الباكر وساعات الغروب، وحين يهبب نسيم المساء.

حين وصل بعض الناجين من الطوفان إلى تلك البحيرة البعيدة النائية، كان ركاب قارب الصيد أول من وصل إليها في منتصف الليل، وذلك بعد رحلة عذابٍ شاقةٍ ومخيفةٍ دامت ثلاثة أيام بلياليها. وما أن وصل نهر سيراد إلى وسط البحيرة حتى هدأ قليلا، وأخذ بتباطؤٍ في سيره، وتاهت مياه الفيضانات التي حملها في أحضان تلك البحيرة العملاقة بالرغم من تساقط أشعة القمر عليها، وهذا أعطى سكان القارب فرصة الهروب والنجاة. وقبل أن تتبدل الأحوال الجوية وتحاصرهم الأمطار والعواصف ثانية، قام الإخوة الثلاثة على الفور بتوجيه قاربهم نحو الشاطئ الشمالي، وهناك سارعوا برمي المرسى بعيداً عن المياه، ومغادرة القارب بسرعة. وبعد أن وضعوا أرجلهم على اليابسة التي كانوا قد فقدوا الأمل في ملامستها، قاموا بتثبيت المرسى

وربط القارب بحبلٍ إلى أكبر الأشجار القريبة منهم، ومن ثم قاموا بنقل ما كان على القارب من أشياء إلى البر بعيداً عن ضفاف البحيرة. تلحّف الإخوة بعد ذلك في بعباءاتهم الثقيلة، وناموا مرهقين نوماً عميقاً، لم يستيقظوا منه إلاّ بعد أن تربعت الشمس في وسط السماء، وغمرت وجوههم المتعبة بنورها المشع ونسمات الظهيرة الدافئة.

وعلى مدى أيامٍ عديدة، انشغل الإخوة في انتشال جثث الموتى، وإنقاذ العديد من الأحياء الذين وصلوا على وهم وشك الموت، وجمع ما أمكنهم جمعه من ثيابٍ ممزقة، وجلودٍ، وأواني نحاسية، وأمتعة بالية، وأوعيةٍ فخاريةٍ كان النهر قد ألقى بها على شواطئ البحيرة عبر مئات، وربما آلاف السنين الماضية. وفي كل مرة انتشلوا فيها جثةً من الجثث، حاولوا التعرف على صاحبها قبل دفنها، لكن دون جدوى، وذلك لأن كل الجثث تقريباً وصلت في حالة محزنة يرثى لها، وأحيانا في حالة مرعبة، مشوهة بلا معالم، وذلك بعد أن أخذت منها أسماك النهر وحيتان البحيرة وتماسيحها ما أرادت واشتهت. لذا كان أول قرارٍ يأخذه الناجون دون وعي منهم، هو تسمية البحيرة باسم بحيرة «الأهاويل» وذلك لكثرة ما شاهدوه على شطآنها من أهوال، وما عاشه البعض على ضفافها من عذابٍ وآلامٍ ومخاوف.

وبينما دأبت الأخت على العناية بالمرضى والمصابين من الأحياء، انشغل الأخوان في نقل الأحياء إلى مغارةٍ كبيرةٍ كانوا قد اهتدوا إليها أثناء البحث عن مكان آمن ينامون فيه، والقيام بدفن جثث الموتى في قبرٍ جماعي لا يبعد كثيراً عن الشاطئ. وبالقرب من المغارة، اهتدوا أيضا إلى نبعِ ماءٍ غزير، تصبّ مياهُه النقية في نهرٍ هادئ يجري تحت الأرض ببطء، يشكلّ مجراه نفقاً كبيراً وطويلاً يمكن السباحة فيه

في أيام الصيف الحارة، والتجديف في مياهه بعيداً لساعات، مروراً بأماكن غريبة تشبه مغارات أزلية ذات سقوف مزخرفة من صنع طبيعة عبقرية. وبعد أن مات من مات من ضحايا الفيضانات، وعاش من عاش، وكان قد مضى على محنتهم حوالي ثلاثة أشهر، وجد الناجون من الطوفان أنه لم يبقَ منهم سوى تسعة أشخاص فقط، خمسة رجال، وأربعة نساء، بينما كان عدد الموتى يقدر بالمئات. وفي إحدى الأمسيات، وبينما كانوا يجلسون في المغارة التي كانوا قد اتخذوا منها مسكناً دائماً لهم، يطبخون ويأكلون فيها طعامهم، يتسامرون ويشاهدون وجه القمر والنجوم من بابها الواسع، وينامون على أرضها مطمئنين بعد أن يغلقوا بابها بالأخشاب وأغصان الشجر، قال أحدهم، وكان على ما يبدو الأكبر سناً بين الرجال:

– لقد مضى على تغريبتنا الآن أكثر من ثلاثة أشهر، ولم يجد أي رجل منا فرصة للنوم مع امرأة، كما لم تحظَ أية امرأة من نسائنا بحضن رجل.. لا يجوز لنا أن نستمر على هذا الحال الشاذ، متظاهرين بأننا أبناء أسرة واحدة، أشقاء وشقيقات من المحضور عليهم ممارسة الجنس مع بعضهم البعض. لقد آن الأوان، وقد استتبت لنا الأمور على نحو مقبول، أن نفكر في هذا الأمر الحيوي بجدية، ونجد له حلاً مُرضياً، لأنه بدون زواج لن يكون باستطاعتنا بناء مجتمع سليم، ولا العيش حياة كريمة، ولا إيجاد من يعيلنا من أبنائنا وأحفادنا حين نبلغ سن الشيخوخة الذي لا يستثني من مخالبه حياً، ولا يتعاطف مع أحد دون غيره من الناس.

– هذا صحيح، علّق أحدهم قائلاً، إنني اتفق معك في الرأي، ولقد خطرت على بالي منذ أيام خاطرة، أعتقد أنها جيدة، وقد تكون مدخلاً

لحل هذه المشكلة العويصة.. لماذا لا نتعامل مع جميع نساءنا وكأنهن زوجات لكل واحد منا دون تفرقة، ونعطي لكل امرأة حق اختيار الشريك الذي ترغب في مضاجعتة كلما أرادت أن تمارس الجنس مع رجل، وهذا من شأنه أن يعطي الأخت الوحيدة بيننا الفرصة كي تتحاشى النوم مع أيٍّ من أخويها.. أما الأولاد فنعتبرهم أولادنا جميعاً، وهذا من شأنه أن يدفعنا إلى العيش كأسرة واحدة، سعداء بلا خلافات.

- هذه فكرة مثيرة حقاً، قالت إحدى الفتيات، لكنها غير عملية، وربما كانت غير أخلاقية أيضا.. كيف لنا أن ننام كل ليلة مع رجل مختلف وننجب أطفالاً لا نعرف أباهم؟ وكيف لنا أن نشترك في الأولاد؟ وماذا سنفعل إذا قررت إحدانا، أو قرر أحدكم النوم مع شريك واحد أو شريكة واحدة فقط؟.. هل نجبرها أو نجبره على النوم مع بقية الرجال أو النساء؟ وماذا عن الأطفال حين يبلغون سن الرشد وينضجون، هل سنسمح لهم بفعل الشيء نفسه؟ ينام كل ولد مع كل بنت يختارها حتى لو كانت أخته، وتنام كل بنت مع كل ولد يعجبها، شأنهم في ذلك شأن القطط والكلاب؟ أم سنحاول أن نزوجهم كما تزوج آباؤنا وأمهاتنا من قبل؟ وكيف لنا أن نحدد بدقة من هم الأشقاء ومن هم غير الأشقاء من الأولاد والبنات، كي نتحاشى زواج الولد من أخته، وزواج البنت من أخيها؟ في الواقع، هذه فكرة ثورية مغايرةٌ تماماً لما تعارفنا عليه من تقاليد وعادات، تلغي مفهوم الزواج كليا.. ولا أخفي عنكم شيئاً إذا قلت لكم بأنه ليس لديّ مشكلة في قبول هذه الفكرة غير العادية، طبعا إذا قبلت بها بقية الأخوات والإخوة، لكنني اقترح التريث قبل اتخاذ قرار مصيريٍّ كهذا.. إن من المؤكد أننا إذا استخدمنا عقولنا سنجد حلاً أفضل من هذا الحل بكثير.

– وهنا تدخَّل شخْص ثالثٌ قائلاً بهدوء: هل لكم أن تسمحوا لي بالحديث؟ لقد أمضيت أسبوعاً كاملاً دون نوم أفكر في هذا الموضوع بالذات، ولقد وجدت أن لا حل له سوى أن يتنازل أحد الرجال منا عن حقه في الزواج، أو أن نتفق على تداول نسائنا والزواج منهن بالتناوب.

– إنني لا اعتقد أن من العدل أن يتنازل شخص عن حقه في الزواج، قالت إحدى الفتيات، أو أن نفرض على رجلٍ أن يتنازل عن حق كهذا، خاصةً في ظل ظروف شاذة كظروفنا تجعل من شبه المستحيل أن يجد الرجل المعني امرأةً في المستقبل كي يتزوجها.. لكن هل لك أن تشرح لنا ماذا تعني بتداول النساء وعملية الزواج بالتناوب؟

– إن ما أعنيه ببساطة هو أن نتفق على زواج أربعة رجال وأربعة نساء الآن، وبعد سنتين أو ثلاثة يقوم أحد الرجال بالانفصال عن زوجته، وبالتالي تتاح الفرصة للرجل الذي بقي دون زواج كي يتزوجها لعدد مساو من السنين، ثم نكرر العملية بعد انقضاء الفترة المتفق عليها مع رجلٍ آخر وامرأةٍ أخرى كي يتزوجها من كان بلا زواج.. وهكذا حتى يموت أحدنا، أو يحدث حدث يغُيِّرالحال إلى الأفضل.

– وقبل أن يكمل كلامه تماما، قاطعته فتاة أخرى قائلةً بحماس: هذه فكرةٌ رائعةٌ وعمليةٌ، لم أسمع بشيءٍ مثلها من قبل.. إن بإمكاننا إجراء قرعة الآن، مع الاتفاق مسبقاً على أن يقبل كل رجل بنتيجتها بروح طيبة، لأن في ذلك خدمةٌ للمصلحة العامة، ومن لا يحالفه الحظ اليومَ ويجد أن عليه أن ينتظر سنتين أو ثلاثة كي يتزوج، نعطيه فرصة رعاية الغنم بدلا من فلاحة الأرض، لإن رعاية الغنم فيها تسليةٌ أكثر وعناء أقل.

– وقبل أن يدلي أيُّ شخص آخر بدلوه، عاد المتحدث السابق ليكمل كلامه، قائلاً، نعم، إن بإمكاننا إجراء قرعة، لكن أية قرعة قد نجريها سوف تظلم الخاسر، والذي قد يقبل بالنتيجة مكرهاً، مما سيترك في فمه مرارةً وفي قلبه حسرةً، قد لا تشفيها الأيام والسنين مهما طالت، خاصة بعد أن يرى نفسه وحيدا بلا زوجة تعتني به، وبلا أولاد أو بنات لسنين.. إنني، ولكوني أصغر الرجال سناً، وأقلهم بنية، وربما أضعفهم من النواحي البدنية، قررت أن أضحي بحقي في الزواج الآن خدمةً للصالح العام، وكي يعمّ السلام والوئام والسرور حياتنا جميعاً.

– فوجئ الجميع، وساد الجو حالةٌ من الذهول وفترة صمت طويلة دامت دقائق قبل أن ينطق أي شخص بكلمة، وحين أفاق أحدهم من الصدمة، قال، هذا عملٌ نبيلٌ حقاً، لا اعتقد أن لدى أيٍّ منا اعتراضٌ على هذا الاقتراح.. شكرا لك يا أخي على هذه التضحية العظيمة التي لا نستحقها.. لن ننسى لك هذا الجميل ما دمنا على قيد الحياة.

– نعم، هذا شيء رائعٌ حقاً، قالت إحدى النساء، والآن هل لك أن تخبرنا متى سنتزوج؟ وكم سنةً سيدوم الزواج الأول.. إنني متشوقةٌ جداً لحضن رجل، واعتقد أنني لن أنام الليلة، سأحلم بكم جميعاً حتى أعرف زوجي ونصيبي.

– مهلاً أيتها الأخت العزيزة، إن لي أربعة شروط مقابل تضحيتي هذه، وهي شروط معقولة، إن قبلتم بها، سأوفي بوعدي لكم وأتنازل عن حقي في الزواج.. إنها شروط بسيطة، من شأنها أن تعود علينا جميعاً بالخير، وأن تعمّ فوائدها مجتمعنا الصغير.

– قل لنا ما هي تلك الشروط.. لقد أثرت فضولي، صاحت إحداهن ضاحكة، لا تتركنا نخمن.. بسرعة لو سمحت، ولا تجعلها قاسيةً تسرق

منا بهجة المفاجأة.

- أغمضوا أعينكم وافتحوا آذانكم.. الشرط الأول، أن يكون لي حق الإشراف على كافة الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية، بما في ذلك حفلات الزواج وعقد القران وتطهير الأولاد، وغير ذلك من مناسبات وتقاليد ورثناها ونحبذها، أو مناسبات جديدة نبتدعها ونقرها لاحقاً. والثاني، أن يكون لي حق الفصل في الخلافات التي قد تقع فيما بينكم. والثالث، أن يكون لي حق تربية الأولاد من الجنسين وتعليمهم وتهذيبهم بعد أن يتجاوز كل منهم سن الطفولة. والرابع والأخير، أن تتعهدوا بتوفير الملبس والمأكل لي مقابل خدماتي هذه. وإنني أعدكم في المقابل أن أكون الأخ الصغير والخادم المطيع لأخواتي العزيزات، والصديق الصدوق لأخوتي، والمربي الأمين لأولادكم، وأن أحكم بينكم بالعدل، وأن أسير على هدي ما أوتيتُ به من عقلٍ وحكمة، وما عشته من تجربةٍ خاصة، وما تعلمته وعرفته عن تجارب الأقدمين الذين تركناهم خلفنا في بلادٍ الكراميد.

- نظر كل منهم إلى الآخر، وعلامات الدهشة وبسمة الرضا تعلو وجهه، ثم صاحوا جميعاً، نساءً ورجالاً بصوتٍ واحدٍ، موافقون.. موافقون.

- وماذا عن موعد الزواج وسنوات الزواج يا سيدنا الشيخ؟ قال أحدهم وهو يضحك والسعادة تغمر وجهه، والفرحة تواعد قلبه.

- في اقرب وقت ممكن يا ولد.. لكن عليكم أن تدركوا أن أمامنا عدة أمور لا بد من إنجازها قبل التحضير لحفلة الزواج. هل لكم، على سبيل المثال، أن تتزوجوا بينما ننام جميعاً في مغارة واحدة؟ هل من الممكن أن يضاجع أي منكم زوجته على مرأى من بقية الإخوة والأخوات؟

إن علينا أن نبني عشرة بيوت، وذلك قبل أن أعقد أي قران.

– لماذا عشرة بيوت؟ إننا لا نحتاج إلى مثل هذا العدد الكبير من المباني.. إننا سنصبح بعد الزواج خمس عائلاتٍ فقط، أربعة أزواجٍ ورجلٌ أعزب.. أليس كذلك؟

– هذا صحيح يا أخي.. لكن عملية الزواج هي عملية بناء.. محاولة لإرساء أساسٍ صلبٍ لمجتمعٍ جديدٍ مستقرٍ، لا يزال بلا جذور، وبلا إمكانيات حقيقية، وبلا هدف، وبلا مستقبل.. إننا سنحتاج إلى جانب الخمسة بيوت التي ذكرتها، إلى بيتٍ كبيرٍ نقيم فيه حفلات الزواج والاحتفالات الشعبية ونعقد فيه اجتماعاتنا الدورية للإشراف على شؤون البلاد والعباد، ويكون مقراً لإدارة اقتصادنا وممتلكاتنا على أفضل وجهٍ ممكن، وهذا يجعل عدد البيوت المطلوبة ستة. أضف إلى ذلك، حاجتنا إلى زريبةٍ للمواشي، وبيتٍ للدجاج، ومكانٍ لتصنيع النبيذ وتخزينه، وآخر لتخزين المواد الغذائية والأطعمة لسد حاجاتنا من الخضار والفواكه والحبوب في فصل الشتاء. وفي الواقع، نحتاج إلى بيتٍ كبيرٍ آخر ليكون مدرسة لتعليم وتهذيب أبناءنا وبناتنا.. لكن من الممكن أن تنتظر عملية إقامة هذا المبنى سنوات لأنه ليس لدينا اليوم أولاد أو بنات في سن الدراسة.

– أنت رجلٌ حكيمٌ حقاً.. ماذا كنّا سنفعل بدونك؟ لقد كدنا أن نفقد الأمل فيك حين توقفت عن الأكل وغبت عن الوعي لأيامٍ طالت، وفكرنا مليًا في تركك لتموت بهدوء.. ولولا حنان أخواتنا عليك، واستعدادهنَّ جميعاً للتضحية من أجلك، لكنّا أغمضنا عيوننا وتركناك تلاقي حتفك دون أن نذرف دمعة حزنٍ أو ندم واحدة على فراقك.. لكن الحظ كان حليفنا حين قررنا أن نتمسك بالأمل حتى الرمق الأخير.. إننا سعداء

بوجودك معنا، وسعداء أكثر في تسليمك زمام قيادتنا.

– هيا بنا إذن.. لنبدأ من الآن العمل على تسيير شؤوننا بشكل منتظم ومنظم.. إن من يعترض على أيِّ اقتراح، عليه أن يتكلم ويعرض وجهة نظره حال اتخاذ القرار، وليس بعد فوات الأوان. القرار الأول: اختيار أسماء جديدة لنا جميعاً.. أسماء نرتاح إليها، تحررنا من تركة الماضي، ولا تذكرنا بأحداث مأساوية أو بأوطان لم تعد لنا أوطانا، وربما لم يعد لها وجود. وسأبدأ بمن يجلس إلى يميني مباشرةً من الإخوة: عمروس، فرهود، مهدوب، مريود. وبالنسبة لأخواتنا، سأبدأ من اليسار مباشرة: نهدة، وعدة، رعدة، شهدة. وبالطبع لن أنسى نفسي.. لقد اخترت لها اسم دعبوس. هل هناك من اعتراض على أي من هذه الأسماء؟

– نعم قال عمروس، هل يمكن تغيير اسمي إلى دغموس؟ لا أعرف السبب في اختيار هذا الاسم، لكنه خطر على بالي.. دغموس ابن كربوس.

– لا مانع لدي من تغيير اسمك من عمروس إلى دغموس، لكنني لا اعتقد أن من المناسب أن نستخدم أسماء آباءنا.. إن من مصلحتنا أن نبدأ حياتنا دون تركة تراثية تُرهقنا، تكون بمثابة عبء يثقل كواهلنا إذا تفاخرنا بها، وقضية ترهق ذاكرتنا إذا حاولنا تحاشي ذكرها. وبعد فترة صمت، واصل حديثه قائلاً: هل هناك من يعترض على هذه الفكرة أو على أي اسم من الأسماء؟ وحين لاحظ علامات الرضا على وجوه الحاضرين قال: ما دمتم موافقون دعونا ننتقل إلى موضوع آخر، اختيار اسم لائق لبلادنا الجديدة.. هل هناك من اقتراحات ؟

- ما رأيكم في تسميتها بلاد الأهاويل كنية بالبحيرة؟ قال أحدهم.

- لا يا أخي، إن علينا أن نتفاءل.. بحيرة الأهاويل اكتسبت اسمها بسبب ما رأينا على شطآنها من أهاويل.. كلمة أهاو يل ترمز للماضي الذي نتمنى أن لا يتكرر.. الماضي الذي سنعمل جهدنا كي لا يتكرر، أما بلادنا الحالية فترمز للمستقبل الذي نرنو إليه ونريد أن نبنيه بأيدينا وعقولنا.. إننا نريد مستقبلاً زاهراً، ننعم فيه بالحرية والرفاهية، ويسود ربوعه الوئام والانسجام والتعاون.

وبعد نقاش طويل توصلوا إلى تسمية بلادهم الجديدة "بلاد الفلاحيد" التي اشتقوا اسمها من كلمة "فلاح"، وتحديد فترة الزواج الأول بثلاثة سنوات. وقبل أن يذهب كل منهم إلى الزاوية التي اعتاد النوم فيها، قال دعبوس لزملائه: تذكروا أنه كلما أسرعنا في إقامة قريتنا الجميلة، كلما قربنا موعد الزفاف والفرح.. إن علينا أن نبدأ غداً في تشييد بيوتنا، ووضع حجر الأساس لمستقبلنا.

كانت الفرحة كبيرةً للغاية.. فرحة المفاجأة والاتفاق بشكل توافقي، وهذا تسبب في إثارة مشاعر سعادةٍ وتخوفٍ وترقُّبٍ متضاربة جعلت النوم يهرب من عيون الفلاحيد، ويحرمهم من متعة النوم طوال الليل. لذا وجد دعبوس نفسه مضطراً لإيقاظهم في ظهيرة اليوم التالي بعد أن كان النوم قد غلبهم وسرق منهم فترة الصباح. وأثناء تناول طعام الإفطار تدارسوا موضوع اختيار الموقع الذي سيقيمون عليه قريتهم، حيث تم الاتفاق على إقامتها على سفح التلة التي تشرف على البحيرة وتقع بالقرب من المغارة التي اتخذوها مسكنا لهم منذ وصولهم إلى وطنهم الجديد. ومن ثم تداولوا في هندسة القرية، حيث وافقوا على

التصور الأولي الذي قدمه دعبوس، والذي تخيل بيوت القرية على شكل هلالٍ مفتوحٍ على الشرق، يحتضن في داخلة حديقةً واسعةً، تقام خلفها قاعة الاحتفالات. وخلف تلك القاعة يقع مبنى صناعة وتخزين النبيذ ومبنى تخزين الأطعمة والحبوب، وخلف بيوت القرية يقع بيت الدواجن وزريبة المواشي.

وبعد الانتهاء من طعام الإفطار، انطلقوا جميعاً إلى البراري يجمعون القش والأعشاب الجافة لخلطها بطمي البحيرة، وذلك من أجل صناعة الطوب الذي سيحتاجونه لبناء بيوتهم. وما أن غربت الشمس حتى كانوا قد جمعوا ما يكفي لصنع مئات الحبات من الطوب، أو ما يكفي لبناء بيتين على الأقل. وفي اليوم التالي، انطلقوا إلى البحيرة ينقلون الطمي منها إلى موقع قريب من المكان الذي خُصص لتشييد البيوت، وذلك استعداداً لخلطه بالقش الذي جمعوه في اليوم السابق، والبدء في عملية صنع الطوب لاحقاً. ومن ثم انشغلوا على مدى أربعة أيام متتالية في صنع الطوب. وبعد أن صنعوا ما يكفي تقريباً لبناء بيت واحد، تركوا الطوب كي يجف، وأخذوا بعض الوقت للراحة، ثم تابعوا عملهم بجد ونشاط، حيث بدأوا بجمع بعض سعائف النخيل والأخشاب الجافة وجذوع أشجارٍ كبيرةٍ ميتةٍ تصلح أعمدة تقام داخل البيوت، ويمكن استخدامها كعوارض لسقف البيوت وتغطيتها بالطين المخلوط بالقش.

استغلوا فترة الانتظار والراحة حتى يجفَّ الطوب لتسوية موقع القرية، وتحديد مكان كل بيتٍ من البيوت بدقة، مع الأخذ بعين الاعتبار الحاجة للتوسع مستقبلاً، حيث تركوا فراغاً كافياً لبناء غرفتين إضافيتين لكل بيت، وتخصيص قطعةٍ صغيرةٍ من الأرض كحاكورة

لزراعة الخضروات وبعض الفواكه والورود. وما أن انتهوا من تلك المهمة حتى كانت غالبية الطوب قد جفّت تماماً وأصبحت صالحةً للبناء، مما جعلهم يقوموا بنقل الطوب إلى موقع البيت الأول والبدء في عملية تشييده. وحين لاحظ دعبوس أن العملية استغرقت أكثر من أسبوعين قبل الانتهاء من إقامة البيت الأول، أدرك أن بناء القرية باستخدام تلك الطريقة قد يستغرق سنةً كاملةً، ولذا وجد نفسه مضطراً لإعادة حساباته وإيجاد وسيلة لتقسيم العمل بين المشاركين ترفع كفاءة العمل وإنتاجية العاملين وتسمح بإقامة القرية خلال فترة وجيزة. وبينما انشغل الجميع في اليوم التالي في إقامة البيت الأول، انشغل دعبوس في وضع خطة ناجعة لتقسيم العمل بين زملائه، والإسراع في انجاز مهمة تشييد أول قرية نموذجية في بلاد الفلاحيد.

حين جلسوا في المساء حول بساط الطعام يتجاذبون أطراف الحديث بعد يوم زاخر بالعمل والإنتاج، أخبرهم دعبوس بما كان يفكر به، وكيف أنه أدرك أن استمرار العمل على نفس الوتيرة قد يطيل عمر المشروع لأكثر من سنة، وقد يتسبب في ضجر البعض وتكاسل البعض الآخر، وربما يقود إلى انفراط العقد الذي اتفقوا عليه. ومن ثم قام بعرض خطة مرنة لتقسيم العمل والإسراع في بناء القرية التي أصبحت هاجسهم الأول وحلمهم الدائم. وتقوم الخطة المقترحة على نقل مصنع الطوب إلى جانب البحيرة، وتشكيل ثلاثة لجان عمل، تخصص اللجنة الأولى في جمع القش وسعف النخيل والأخشاب، وتقوم الثانية بصناعة الطوب، وتقوم الثالثة بعملية البناء، على أن يقوم دعبوس بمحاولة صناعة قالب خشبيي لتسهيل عملية تصنيع الطوب، إضافةً إلى قيامه بمتابعة العمليات وتنسيق أعمال فرق العمل، وذلك من أجل التأكد من

قيام كل فريق بالمهام الموكلة إليه، ومدّه بالمساعدة إذا احتاج الأمر ذلك.

لم تمض ثلاثة أشهرٍ حتى كانت بيوت القرية، والتي أطلقوا عليها اسم "غمره" قد تم تشييدها بالكامل، وبدأت الحديقة تأخذ شكلها العام، وقد امتلأت أرضها بالأشجار وبراعم الأزهار ذات الأشكال المختلفة والألوان الجميلة الزاهية. وبعد أن نجح الفلاحيد في إقامة أول قرية لهم في وطنهم الجديد، طلب دعبوس من رفاقه بناء طريق دائري يربط البيوت بعضها ببعض وبقاعة الاحتفالات مروراً بوسط الحديقة. وحين انتهوا من تلك المهمة، والتي لم تستغرق سوى بضعة أيامٍ فقط، عرض دعبوس عليهم خطةً تقوم على القرعة لاختيار الأزواج والزوجات، وذلك بعد أن جَّس نبض النساء والرجال وتأكد من أنه ليس بالإمكان حصول تراضي حول تلك القضية يحقق رغبات الجميع.

- كيف ستتم عملية توزيع البيوت، سأل دغموس؟

- هذه قضية سهلة يا دغموس.. دعنا نقوم أولاً بعملية اختيار الزوجات والأزواج.

- كيف سيكون ذلك؟ ما هي الآلية؟ سألت نهدة.

- سأطلب من الرجال الدخول إلى المغارة والخروج الواحد تلو الآخر حين نطلب منهم ذلك، وعليهم أن يتفقوا فيما بينهم على الترتيب. وبينما ينشغل الرجال بالاتفاق على أولوية الخروج، نقوم نحن بالاتفاق على أولوية وقوف النساء في صفٍ واحدٍ. وبناءً على ذلك، يكون الرجل الأول الذي يخرج من المغارة من نصيب المرأة التي تقف في آخر الصف، والرجل الثاني الذي يليه من نصيب الثانية من الخلف، وهكذا حتى تنتهي العملية تماماً. وإذا صادف أنه كان من نصيب وعدة أحد

إخوتها، عندها نلغي ذلك الخيار ونتجاوزه، وتكون المرأة التي تليها في الدور من نصيب ذلك الرجل. أما وعدة فتبقى في مكانها السابق في الصف حتى تحصل على نصيبها.

وبينما سارع الرجال في الدخول إلى المغارة، اقترح دعبوس على النساء أن تقف وعدة، والتي لها أخوان بين الرجال، دغموس وفرهود، في آخر الصف، وذلك على أمل أن يحسم أمرها أولا، وترك لبقية النساء حرية الاتفاق على الترتيب، حيث تم الاتفاق بعد مداولات قصيرة على وقوف نهدة ورعدة وشهدة على التوالي، ووقفت وعدة خلفهم في آخر الصف كما اقترح دعبوس. وبعد أن تمّت عملية توزيع الرجال على النساء دون صعوبة، نظر دعبوس إلى الرفاق، فلاحظ أن السعادة تبدو على وجوههم جميعاً، إذ كان كل شخص سعيداً بنصيبه، مما جعل عملية توزيع البيوت على العائلات الجديدة تغدو سهلة وغير ذات أهمية، إذ لم يعطها أيُّ رجل أو امرأة الكثير من التفكير. ولذا اقترح دعبوس أن يكون بيته هو الأخير في الطرف الجنوبي المطلّ مباشرة على البحيرة والنهر، وأن يحمل رقم واحد، على أن يتم ترقيم البيوت الأخرى، بدءاً من بيته. وبينما انشغل الجميع فكرا وعملا أثناء النهار في التحضير للفرحة الكبرى وليلة الزفاف، تسلّل دعبوس إلى شاطئ النهر، حيث قطف ١٥ زهرةً من الأزهار البرية الجميلة التي تعيش على ضفافه، وقام بتوزيعها على البيوت، حيث وضع زهرةً واحدةً على عتبة بيته، وزهرتين على عتبة البيت التالي له، ثم ثلاثة وأربعة وخمسة على البيوت التالية، وذلك دون علم أيٍّ من الرجال أو النساء.

وحين حان الوقت للقرعة على البيوت، وضع دعبوس أربعة مجموعاتٍ من الحجارة الصغيرة على عتبة قاعة الاجتماعات بشكلٍ

عشوائي. اشتملت إحداها على حجرين، والثانية على ثلاثة أحجار، والثالثة على أربعة، والرابعة على خمسة أحجار. ثم قام بتغطية تلك المجاميع من الحجارة بأوراق الشجر، بحيث يتعذر على أي شخص معرفة عدد الحجارة في أية مجموعة. وحين انتهى من تلك المهمة، طلب دعبوس من كل امرأة أن تختار مجموعة من تلك المجاميع، مع شرح تفاصيل القرعة لهم. وبعد أن عرفت كلُّ امرأةٍ عدد الحجارة التي اختارتها، بدأت تبحث عن البيت الذي حصل على نفس العدد من الأزهار، حيث وجدتها موضوعةً بشكلٍ أنيقٍ على عتبة بيتها وعشّ الزوجية الذي كان ينتظرها.

لم تمض ساعةٌ حتى كانت كل امرأةٍ قد عانقت الرجل الذي رمى به الحظ في أحضانها، وعرفت البيت الذي سيكون عشاً لها ولزوجها ولأولادها لسنوات عمر تمنى دعبوس لكل منهم أن تطول. سهروا تلك الليلة معاً في جوٍّ عائليٍ سادهُ الفرح والسعادة والاطمئنان. وفي اليوم التالي أقاموا حفلة زفافٍ جماعية، بدأت بعقد القران مع غروب الشمس على ضفاف النهر، ثم العشاء في جوٍ احتفالي مرحٍ في قاعة الاجتماعات، ثم الغناء والرقص شبه عراة حتى منتصف الليل في ضوء القمر، ثم ذهب الجميع إلى البحيرة، حيث استحموا في مياهها شبه عراة، وهي عادة ابتدعوها حين استقرّ بهم الحال في بلادهم الجديدة. كان تقليد السباحة شبه عراة في البحيرة قد اقترحته وعدة للتخلص من ذكرى الأهاويل التي صادفوها هناك يوم وصولهم إليها. وهكذا، وضعوا الأساس الاجتماعي لبناء مجتمع إنساني جديد يملك مكوناتٍ معيشيةً واقتصاديةً أوليةً، ولكن كافيةً لضمانً الاستمرارية وتحقيق التقدم ببطءٍ، ولكن باضطراد.

طواحين الحياة

بعد ثلاثة أيام من الاحتفالات والراحة والمتعة، عادت الحياة في قرية غمره إلى مجاريها الطبيعية، وذلك لأن لكل حالة نهايةٌ، ولكل نهاية تَبعات.. تبعات تتراكم عادةً بفعل الزمن، وتغدو بدايات جديدة تبحث عن نهايات لا تعرف عنها شيئا. إذ اكتشفت كل أسرة من الأسر الجديدة بسرعة أن هناك مسئولية تقع على كاهل كل رجل وكل امرأة، وأن مستلزمات استكمال بناء حياتهم الزوجية في بلاد الفلاحيد سوف تكون أكثر صعوبةً وتكلفةً جسديةً وذهنيةً من السابق. كان عليهم أن يخطّطوا لبناء عمراني يستوعب الزيادة السكانية المتوقعة، ويفتح المجال لنمو النشاطات الاقتصادية، ولا يغفل متطلبات تربية الجيل الأول من الأطفال على وجه سليم، ويضمن وجود بيئة طبيعية جميلة ونظيفة تقلل خطر الإصابة بالأمراض راض والأوبئة وتجعل الحياة أكثر متعة، والعمل على حماية أنفسهم من خطر الحيوانات الضارية والفيضانات ومواسم القحط والجفاف، وما إلى غير ذلك من أمور تحتاج إلى تخطيط وإعداد مستفيض.

وبينما انشغل الجميع في عمليات فلاحة الأرض وجني المحاصيل ورعاية المواشي والعناية بها، والاستمتاع بحياتهم العائلية والجنسية، انشغل دعبوس في عمليات التخطيط العمراني والاقتصادي، وترتيب الأمور البيئية والصحية والجمالية للمجتمع الجديد. وحين لاحظ دعبوس أن الطريق من القرية إلى شواطئ البحيرة والنهر غير مريحة، اقترح على رفاقه تخصيص ساعة عمل كل يوم لتمهيد تلك الطريق وتعبيدها كي تكون صالحة للمرور طوال أيام السنة، ورصفها

بالحجارة ورفع مستواها قليلاً حتى لا تجرفها السيول في فصل الشتاء. ومن ثم قاموا بإطلاق اسم شارع الفلاحيد على الشارع الدائري الذي يربط البيوت بعضها ببعض، وشارع الأحلام على الشارع الذي يخترق الحديقة ويصلها بقاعة الاحتفالات والاجتماعات، وهو الشارع الذي مر عليه العرسان بعد عقد قرانهم في طريقهم إلى بيوت الزوجية، وشارع الكراميد على الشارع الذي يربط القرية بشاطئ البحيرة، وذلك كي تتعرف الأجيال القادمة من الأحفاد على أصولهم، وتعرف قصة أجدادهم، من أين جاؤوا وكيف وصلوا إلى ذلك المكان.

وما أن بدأت عجلة الحياة في الدوران حتى اكتشف الفلاحيد أنهم - ولحسن الحظ والطالع - كانوا يشكّلون فيما بينهم مجتمعًا شبه متكامل، وذلك من حيث الهوايات والمهارات والمهن. إذ بينما كان دغموس يحسن أعمال النجارة والحدادة والبناء وصناعة الزخارف الخشبية، كان أخوه فرهود يهوى رعاية المواشي ويتقن فنون تدجين الحيوانات البرية كالأغنام والكلاب والقطط وغيرها. أما مريود فقد كان قد ورث عن أبيه حب زراعة الأرض وفنون تطعيم الأشجار والعناية بها، بينما كان مهدوب يتقن أعمال التجارة والمحاسبة وتخزين المواد الغذائية بعد أن كان قد عمل في دكان والده في بلاد الكراميد لسنوات قبل وقوع الطوفان. أما دعبوس فقد كان من هواة التأمل والتفكير، يستخدم العقل والعلم والتجربة في التخطيط والتدبير، وتسيير أمور الحياة اليومية.

أما فيما يتعلق بالنساء، فقد اكتشفوا أن نهدة كانت ذات مواهب فنيةمميزة، تحسن الطلاء، وتحب أعمال الزخرفة والرسم، وأن وعدة تهوى تربية الدواجن كالدجاج والحمام والأرانب، وتحب القطط كثيراً.

وبينما ورثت رعدة عن أمها حبُّ الطبخ وفنون تجفيف الخضراوات والفواكه واللحوم وحفظها، كانت شهدة قد تعلمت في صغرها فنون غزل الصوف وحياكة الملبوسات وصنع السجاد. وهكذا بدأ الفلاحيد في تشييد مجتمعهم الجديد بإمكانيات بشرية متواضعة ولكن شبه متكاملة من حيث المؤهلات الفنية والتجارب العملية والميول المهنية والهوايات الفردية والكفاءات الإدارية إلى حدٍ جيدٍ لم يك ليخطر لهم على بال.

وخلال الفترة القصيرة التي كانت قد انقضت من عمر بلاد الفلاحيد، كان فرهود قد استأنس حمارين وبعض الأغنام والدواجن وعدداً من الأرانب، وثلاثةً من الكلاب الصغيرة بعد سرقتها من أمها وهي في سن الرضاعة. وبينما قامت وعدة بالعناية بالدواجن والأرانب، قام فرهود بالعناية بالأغنام التي استأنسها والكلاب التي دربها لترافقه في رحلات الصيد ورعي المواشي، والقيام بمهام حماية بيوت ومواشي الفلاحيد من الحيوانات الضارية، خاصة في ساعات الليل الموحشة. أما الحمير فقد استولى مريود على إحداها بصفته المزارع الأول، واستولى دعبوس على الحمار الثاني بصفته المدير الإداري والمشرف على نشاطات وأعمال بلاد الفلاحيد، مما جعل فرهود يبدأ من جديدٍ عملية البحث عن حمارٍ جديدٍ يستأنسه ويكون رفيق طريق له.

كان منظر باقات الزهور التي وجدتها نهدة على عتبة بيتها وبيوت رفيقاتها في ليلة الزفاف مصدر إيحاءٍ وإلهامٍ كبير لها، شجعها على رسم تلك الأزهار بالعدد وبالكيفية وبالألوان التي وجدتها عليها على الأرض أمام كل بيت من بيوت القرية. وحين استشارت دعبوس في الأمر قبل البدء بعملية الرسم، أعجب بالفكرة كثيراً، وتحمس لها بشكل غير

عادي، وقام بمساعدة نهدة على جمع بعض الحجارة الملونة من الجبال والتلال المحيطة بالقرية، حيث قام دغموس بتقطيعها إلى أحجار صغيرة تصلح للاستخدام في رسم الزهور وأعمال الفسيفساء كما تصورتها وأرادتها نهدة. ولقد كانت تجربة رسم باقات الزهور، وتعاون دعبوس ونهدة في إتمامها، سبباً في توطيد العلاقة بين نهدة ودعبوس، وتحولها مع الايام إلى علاقة ودٍ عميقةٍ تقوم على التقدير والاحترام المتبادل. إذ بينما أُعجبت نهدة بعقل دعبوس وثقافته وتفانيه في خدمة مجتمعه، أُعجب دعبوس بجمال نهدة وفنها الراقي وذوقها الرفيع. وهذا قادهما إلى العمل معاً على حماية البيئة والحرص نظافتها، والعناية بجماليات الحديقة العامة ومباني القرية وشوارعها ومعالمها التي كانت تتشكّل يوماً بعد يوم كطفلٍ وليدٍ جميلٍ ومثيرٍ.

كان دعبوس يصحو كل صباح مبكراً، يخرج قبل طلوع الشمس بقليل للتمتع بمنظر الشروق وإطلالة النهار، وسماع صوت العصافير تغني للصباح وللحياة بشغف، ثم يعود إلى البيت قبل أن تصحو بقية الفلاحيد ليتناول طعام الفطور في صحبتهم وتبادل الأحاديث معهم. وبعد أن ينصرف كل فردٍ إلى عمله، كان دعبوس يركب حماره وينطلق به بعيداً يستكشف أطراف البلاد. لقد خصص دعبوس يومين من كل أسبوع للذهاب إلى البراري، يجوب الجبال والتلال والسهول المحيطة بالقرية، يتعرف على معالمها وطبيعتها، ويتفحص مدى خصوبة أراضيها ووعورة جبالها، ويدرس ألوان تربتها وصخورها، ويجمع ما يحلو له من تلك الصخور والرمال ويعود بها إلى بيته. أما بقية أيام الأسبوع، فقد خصص يوماً منها للذهاب إلى شواطئ البحيرة والنهر المحاذية للقرية، يسير مسافات طويلةٍ تستغرق أحياناً ساعاتٍ، يدرس

خلالها أنواع الأسماك في مياه البحيرة والنهر وطبائعها، ويجمع ما يجده من بقايا فخارٍ وأوعيةٍ، خاصةً الملونة والمزخرفة منها، ويحمل ما يجده من ملابس وأخشابٍ ومعادن وأدوات جرفتها مياه الفيضانات على مدى آلاف السنين الماضية، يضعها على ظهر حماره ويعود بها إلى غمره.

أما اليوم الرابع، فقد خصصه لركوب قارب الصيد الذي حصل عليه من وعدة وإخوتها مكافأةً له على خدماته لمجتمع الفلاحيد، والذهاب به إلى شاطئ البحيرة الذي يقع على الجانب الآخر لاستكشاف معالمه وجمع ما قد يجده هناك من أشياء ذات قيمةٍ فنيةٍ أو تاريخيةٍ أو عمليةٍ، وصيد بعض السمك في طريق عودته إلى القريةٍ وتسليمه لوعدة كي تقوم بطبخه وإعداد عشاءٍ جماعيٍ احتفاليٍ يجمع جميع الرفاق على مائدةٍ واحدةٍ. أما اليوم الخامس، فقد كان مخصصا لترتيب وتصنيف المواد والأشياء التي كان يجمعها في الايام السابقة خلال الأسبوع، والقيام بدراستها بشكل علمي منظم، وذلك بهدف التعرف على عمرها وطبيعة المواد المصنوعة منها، ومدى تقدم الشعوب والحضارات التي أنتجتها وطورتها. وفي اليوم السادس، كان دعبوس يقوم بالتعاون مع نهدة بالعناية بحديقة القرية وأشجارها وأزهارها، وتَفقُّدِ قاعة الاجتماعات وبيوت صنع النبيذ والتخزين، والحرص على نظافة الشوارع العامة والمناطق القريبة من البيوت وحظيرة الحيوانات وبيت الدواجن.

وفي يوم من الايام، وبينما كان مشغولاً بإيجاد مكانٍ في بيته للمواد التي جمعها في ذلك اليوم بعد رحلة مثمرة للشواطئ، لاحظت نهدة أنه لم يبقٍ في بيته متسعٌ للمزيد من الاشياء. لذلك اقترحت عليه نقل ما

كان لديه من أشياء إلى قاعة الاجتماعات، وتخصيص زاوية دائمة لها هناك، تكون بمثابة معرض للزوار، يسمح لمن يرغب من بني الفلاحيد بزيارته والاطلاع على محتوياته والتعلّم من دروسه. وهكذا، أصبحت نهدة تقرأ أفكار دعبوس مقدما، وتساعده على استكمال ما نقص منها، وتعمل معه على وضع حجر الأساس لأول متحف أثري في بلاد الفلاحيد، ومعاونته على بناء أول مجتمع إنساني في تلك البلاد يضع البيئة والنظافة والثقافة وصحة المواطنين في أولوياته، ويعتمد العقل والمنطق والعلم، لا التقليد، في إدارة شؤونه. ومنذ ذلك اليوم، أصبحت نهدة لا تفارق دعبوس أثناء وجوده في القرية، إلا حين تحتاج للعناية بزوجها أو أطفالها، خاصةً وأن بيتها كان يقع بجوار بيته. ومع تطور العلاقة بين دعبوس ونهدة بسبب الهوايات والاهتمامات المشتركة، بدأت نهدة القيام بمصاحبة دعبوس مرةً أو مرتين كل أسبوع في رحلاته إلى الشاطئ، وفي تجواله في الجبال والتلال والسهول المحيطة بالقرية.

ومع إنشاء المتحف، بدأ دعبوس ونهدة يقضيان ما معدله ساعتين كل يوم تقريباً يرتبّان المواد الجديدة، يدرسان المحتويات لتحديد تواريخ تكوينها وأهميتها واستخداماتها والمواد المصنوعة منها، ومن ثم يقومان بتصنيفها بشكل علمي. وهذا خلق لديهما إحساساً بضرورة تطوير الأرقام التي تعلموها في بلاد الكراميد، واختراع طريقة لتدوين أفكارهم وما يتوصلان إليه من استنتاجات ومعلومات. وباستخدام ما كان لدى دعبوس من خيال، وتوظيف ما كان لدى نهدة من مواهب فنية، تمكنا خلال سنتين من تطوير أرقام الحساب واختراع أحرف الكتابة وكيفية تركيب الكلمات، وبالتالي تطوير اللغة الشفوية التي ورثها الفلاحيد عن الكراميد إلى لغةٍ مكتوبةٍ. وهذا جعل مجتمع الفلاحيد

ينتقل نقلةً ثوريةً غير مسبوقة، إذ أصبح بإمكانه أن يحول الذاكرة القصصية الشفوية إلى ذاكرة مكتوبة مؤسسية.

وفي ليلة الاحتفال بمرور سنة على تأسيس مجتمع الفلاحيد، وبعد أن كانت ثلاثٌ من العائلات الأربعة قد أنجبت أول طفلٍ لها، تشعبَّ الحديث إلى الأجداد والجذور والأصول وبلاد الكراميد، وذكريات الوصول إلى بحيرة الأهاويل. ويبدو أن دغموس كان يتحيَّنُ الفرصة لسرد تفاصيل الرحلة الإجبارية التي حملته وأخاه فرهود وأختهم وعدة من بحيرة البهاليل إلى بحيرة الأهاويل على ظهر قارب صيدٍ صغيرٍ، والتخلص من عبء اختزان ذكريات المعاناة وقسوة الأقدار التي خطفتهم من وطنهم وفرقتهم عن أهلهم. وبعد أن انتهى دغموس من سرد حكايته بكل تفاصيلها المثيرة والمؤلمة، قام فرهود بسرد تفاصيل قيامهم بانتشال الأحياء والعناية بهم، وجمع جثث الموتى ودفنهم في قبر جماعي بالقرب من الشاطئ، وكيف كانت حالة كل واحدٍ من الرفاق الآخرين حين انتشلوهم من مياه البحيرة.

وهنا قال مريود، كنت أتمنى لو رأيت جثث الموتى قبل دفنها، فلربما كانت إحداها لأبي أو لجدي أو لأمي أو لأخي، أو لصديقٍ من أصدقائي.. إنني أفكر في أهلي وأصدقائي وأحبائي دائماً، وأتمنى أن أعرف مصير أي منهم، سواء أكان حيا أم ميتاً، لذا أريد أن استأذنكم في فتح القبر الجماعي وتفحص الجثث من جديد. وحيث أنه كان لذلك الطلب الغريب وقع الصدمة على الحاضرين، فإن فرهود سارع في الرد عليه وقد بدا عليه الانزعاج قائلاً: إنني لا أعتقد أن القيام بمثل هذا العمل سيكون له فائدةٌ تعود علينا بشيء، ولذا لا اعتقد أن من الحكمة القيام بفتح قبرٍ مضى عليه أكثر من سنة، وأن محاولة فحص جثث

تعفنت وكان معظمها قبل أن تتعفن مشوهاً، لن يساعد على التعرف على هوية أيٍّ منها.. أني أود أن أطمئنك واطمئن بقية الإخوة والأخوات أننا حاولنا جهدنا كي نتعرف على هوية الجثث التي انتشلناها، إلا أننا فشلنا.. لقد وصلت كل الجثث التي قمنا بدفنها تقريباً في حالة سيئة ومحزنة للغاية، بعضها مشوَّهٌ إلى درجة كبيرة، وبعضها الآخر عبارة عن بقايا لحم وعظام بلا معالم إنسانية مميزة، وبعضها تغَّير لونه وتَحَجَّرَ إلى حد كبير.

شعر دعبوس حينها أن النقاش بدأ يأخذ منحىً سلبياً لا يُبشر بالخير، وقد يكون سبباً لوقوع أول خلاف حقيقي بين عائلات الفلاحيد. لذلك سارع إلى التدخل، حيث قال موجهاً كلامه لكل من مريود ومهدوب ونهدة ورعدة وشهدة، إنني متأكد من أن إخوتنا دغموس وفرهود ووعدة كانوا حريصين كل الحرص على التعرف على هوية كل جثة من الجثث التي انتشلوها من البحيرة، وذلك كحرصهم على حياتنا جميعاً.. إن لكل واحد منهم أبٌ وجدٌ وأمٌ وإخوةٌ وأصدقاءَ وأحباءٌ مثلنا لا يعرفون مصيرهم، وإنهم بالتأكيد قلقون عليهم، تماماً كما نحن قلقون على أهلنا وأحبتنا. لكن مهما كانت الظروف، لا يجوز لنا أن نعود إلى ذلك الماضي المحزن ونعيد فتح جراح تعاهدنا على تجاوزها.. إن علينا أن نفتح صفحةً جديدةً في حياتنا لأنه ليس بإمكاننا أن نفعل شيئاً حيال ما مضى، لذا دعونا ننسى الماضي بكل ما كان فيه من أفراح وأحزان وذكريات جميلة ومؤلمة، لأن ذلك الماضي لم يعد مُلكاً لنا، ولا جزءاً من حياتنا، ولذا لا يجوز أن نعطيه دوراً في تحديد معالم مستقبلنا.. إن السماح للماضي بإلقاء ظلاله الثقيلة على حاضرنا، ودعوته للمشاركة في رسم صورة مستقبلنا فيه إهانةٌ لعقولنا، وتصغيرٌ لأهمية بناء حياتنا

من جديد وتوفير متطلباتها اليومية وتشكيل المستقبل الذي نريد لنا ولبلادنا ولأولادنا.. لذا أرى أن من واجبنا أن نعمل سوياً على بناء مستقبل يلبي طموحاتنا ويعتز به أولادنا وأحفادنا من بعدنا، لا أن ننبش قبوراً وماضٍ أليمٍ يذكرنا بما عشناه من مآسي وآلام، ويثقل كاهلهم بلا سبب.

دعوني أقترح عليكم فكرةً خطرت على بالي هذه اللحظة، اعتقد أنها كفيلةٌ بحلّ هذا الإشكال العويص، بل أكثر من ذلك، اعتقد أن بإمكانها أن تساعدننا على خلق رابطٍ معنويٍ جديدٍ يقوي وحدتنا ويعزز أواصر المحبة بيننا.. دعونا نقوم بانتشال جثةٍ سمن القبر الجماعي، أول جثة نصادفها، ومن ثم نقوم بدفنها في قبرٍ جديدٍ، في مكان مميز يليق بأهمية صاحبها التاريخية والعاطفية، ونطلق على ذلك القبر اسم قبر «الأب المجهول». إن قبر «الأب المجهول» سوف يكون بمثابة قبر الأب بالنسبة لكلٍ واحد منا ..قبر من مات من آبائنا وأمهاتنا في الماضي القريب ومن سيموت منهم في المستقبل غير البعيد. وهذا سيجعل ذلك القبر ومن فيه رمزاً لوحدتنا وتآلفنا وهويتنا الجماعية.. وحدة الألم والمعاناة التي عشناها فيما مضى، ووحدة الأمل والمصير المشترك التي سنعيشها في المستقبل.. سيكون ذلك الراقد في قبر الأب المجهول هو جدٌّ هؤلاء الأطفال الغارقين في النوم في أحضان أمهاتهم، وكل أطفال الفلاحيد من بعدهم، وهذا سيقوّي عُرى التماسك فيما بينهم، ويثري تراثهم المشترك، ويعزز هويتهم الجماعية.

وما كاد أن يكمل دعبوس كلامه حتى تدخلت نهدة قائلة: إنك رجلٌ عبقريٌ .. لا تتوقف عن مفاجأتنا كل يومٍ بأفكارجديدةٍ خلاقة أكثر عبقرية من سابقتها.. ماذا كنا سنفعل بدونك يا دعبوس.. إنك رجلٌ

حكيمٌ بكل ما لهذه الكلمة من معنى، لا أعتقد أن لك مثيلٌ الكراميد.. إنها حقاً خسارةٌ كبيرةٌ لبني الفلاحيد أن تبقى بدون زواج، بدون امرأة تشاركك أفكارك وأحلامك، وبدون أولاد وبنات.. إنني حقاًأخاف أن لا يأتي اليوم الذي تتزوج فيه وتخلف أولاداً وبناتاً يرثون عنك هذه الحكمة والعبقرية، وهذا التفاني والإخلاص في خدمة المجتمع.

- ومن قال أنني لن أتزوج ولن أخلف يا نهدة؟ قال دعبوس.. لا تخافي علي.. اطمئني.. إنني على يقين بأن حظي لن يخونني إلى هذه الدرجة، وقد يأتي الحظ قريباً بشيء جديد يفاجؤنا جميعا، وقبل أن يحين موعد تداول الزوجات كما اتفقنا.. قد يأتي بامرأة جميلة في قارب يحمله النهر، أو بجنّة تخرج من البحيرة بلباسها الزهري الشفاف، تسعدني وتخلص لي وتساهم في تنمية سكان الفلاحيد وإثراء حياتهم بسرعة.

- هل غيّرت رأيك بالنسبة لموضوع تداول الزوجات إذن؟ صاح أكثر من شخص في وقت واحد.

- إنني لا أريد التنازل عن مبدأ تداول الزوجات، قال فرهود.. إنها فكرة تسمح لكل منا أن يجرِّب زوجاً أو زوجةً أخرى، مما سيجعل الزواج تجربةً اجتماعيةً متجددةً باستمرار، من الصعب أن يتسلّل الملل إليها ويسرق البهجة منها.

- لا تقلقوا.. اطمئنوا.. لم أغير رأيي، ولن أتراجع عما وعدتكم به أبداً.. لكن علينا جميعاً أن نعيش على أمل أن يحمل لنا المستقبل ما نريد أو بعض ما نريد.. المستقبل يا أصدقائي هو المصنع الذي يتخيَّل الأمل في أحلى صوره، ويقوم بتصنيعه ببطءٍ وهدوءٍ كي ننعم به.

– ضحك الجميع عندئذ، وقالوا إننا نثق بك وبما تفكر به؟ وعلى يقينٍ بأنك تعرف ما تقول أكثر من أي إنسانٍ آخر، ونأمل طبعاً أن تتحقق نبوءتك قريباً.

– شكراً لكم على هذه الثقة الغالية.. إنه ليس بإمكان أي قائد أن يقود جماعةً ويضمن في الوقت ذاته إخلاص أتباعه له وولاءهم لما يبشر به من مبادئ، إلا إذا حصل على ثقتهم بشخصه وعقله وأخلاقه وحسن إدارته. لكن عليكم أن تتذكروا أن كل وعدٍ وعدتكم به جاء في ضوء واقع معينٍ وضمن ظروفٍ معينة، ولذا فإن من المسموح به أن يتغير الوعد إذا تغيرت الظروف وتبدل الواقع. وحيث إن الظروف قد تتغير بعد حين، وقد يقع حدثٌ يغير الواقع وظروف الحياة، فإن علينا أن نتوقع تغيير مواقفنا وسياساتنا على ضوء ما نعيشه من تطورات وتحولات. لكن علينا في المقابل أن نحدد مبادئنا بوضوح، وأن نتمسك بها، وأن نعمل على تطويع ظروف وواقعنا لتحقيق أهدافنا وخدمة مبادئنا وإثراء حياتنا.. إن علينا أن ندرك أن لكل حادث حديثٌ. وما أن نطق بتلك العبارة، «لكل حادث حديثٌ» حتى غدت مثلاً سحرَ كل من سمعه، مما جعل الأجيال المتعاقبة من الفلاحيد تتناقله، وتقوم بنشره في بلاد الكراميد بعد قرون.

حين انهى دعبوس كلامه كانت الأجواء العامة قد تبدّلت تماماً، مما جعل بالإمكان العودة إلى الحديث عن الأموات والأجداد والقبور في جوٍّ غاب عنه التشنج والألم. وبعد نقاشٍ مستفيضٍ، وافق الجميع على فكرة قبر "الأب المجهول" وقاموا بتكليف مريود ومهدوب ورعدة بحفر القبر الجديد على قمة التلة المجاورة وجمع الحجارة المطلوبة لتشييده، وتكليف دعبوس ونهدة وشهدة بتصميم ذلك القبر وانتشال

إحدى الجثث من القبر الجماعي ودفنها في القبر الجديد، وذلك من أجل أن يكون لكل من لم يشارك في رؤية تلك الجثث وانتشالها ودفنها في الماضي شرف المشاركة في تكريمها في شخص الأب المجهول. كما اتفقوا أيضاً على تشييد القبر بشكلٍ جميلٍ ومهيبٍ، يعكس أهميته التاريخية والعاطفية، ويكرّس مكانته الاجتماعية كرمزٍ للوحدة بين العائلات الخمسة، ويمكنّه من القيام بدورٍ رئيسٍ في تكوين هوية جماعية وطنية للأجيال القادمة.

وعلى مدى الأيام الثلاثة التالية، انشغل المكلفّون بحفر القبر ونقل الحجارة إلى الموقع المخصص له بإتمام مهمتهم على أكمل وجه، بينما انشغل دعبوس ونهدة وشهدة في تصميم القبر الذي تم الاتفاق عليه وتدارس كيفية وتوقيت فتح القبر الجماعي وانتشال إحدى الجثث منه. ومنذ أول اجتماع تعقده اللجنة المكلفة بفتح القبر الجماعي، قالت شهدة إنها لا ترغب، بل لا تستطيع أن تشارك في فتح القبر وانتشال جثةٍ منه، وأنه من المؤكد أن يغمى عليها حال رؤية أي من تلك الجثث المتعفنة. لذلك اتفق دعبوس ونهدة على إعفاء شهدة من تلك المهمة، وتكليفها بدلاًمن ذلك بالقيام بدور أكبر في تصميم حديقة الأزهار وزراعة الأشجار من حول قبر الأب المجهول.

وخلال رحلة عاديةٍ قام بها دعبوس ونهدة إلى شاطئ البحيرة بعد أيام، لمحت نهدة رأس الغنم الذي كان فرهود يبحث عنه ومشغولاً به في مساء اليوم السابق، وذلك بعد أن ضلّ التيس طريقه في العتمة بالقرب من شاطئ النهر في طريق عودتهم إلى القرية. كان تيس الغنم ينزف دماً وفي حالة صحية سيئة للغاية، وذلك بعد أن اعتدت الوحوش عليه في الليل وأكلت جزءاً من فخذه الأيمن. سارع دعبوس ونهدة بحمل التيس

على ظهر الحمار، وذلك بهدف نقله إلى بيت وعدة للعناية به وتطبيبه، إلا أن التيس فارق الحياة قبل أن يخطو الحمار خطوةً واحدةً. انهارت نهدة حين رأت التيس يموت بين يديها، وبدأت في البكاء حزناً عليه.. كانت نهدة كغيرها من بنات الفلاحيد لا تستطيع أن تتمالك نفسها أمام مشهد الموت، ذلك المشهد الذي كان يذكرها بما شاهدته من معاناة إنسانية على شواطئ بحيرة الأهاويل.

ضم دعبوس نهدة إلى صدره وأمسك بها حتى هدأ روُعها وصحت من وقع الصدمة. جلسا على جانب النهر دقائق في صمت كامل، قطعه دعبوس حين وضع يده على كتف نهدة قائلا: لا اعتقد أن منظر الجثث في القبر الجماعي، وقد تحللت وتعفنت وتآكلت سيروق لك أو لي على الإطلاق، كما وأن تعرُّضنا للروائح الكريهة التي تنطلق من تلك الجثث من الممكن أن يتسبب في إلحاق الضرر بصحتنا النفسية والجسدية.. لذا، ما رأيك في نقل جثة هذا التيس، ووضعها في قبر الأب المجهول.. إن من شأن هذا العمل أن يخلصنا من عبء فتح القبر الجماعي وما يستلزمه ذلك من معاناة جسدية ومناظر مزعجة وروائح قاتلة، ويخلصنا في الوقت ذاته من جثة هذا التيس دون أن يعرف فرهود بمصيره ويحزن عليه، وقبل أن تتعفن الجثة وتغدو محطةً جذابةً للأوبئة والأمراض، تؤمها الحشرات والحيوانات المفترسة، والتي إذا تعودت على صيد مواشينا، لن تتردد في الاعتداء على أطفالنا.

ويبدو أن ما كان يفكر فيه دعبوس كان يجول أيضاً في ذهن نهدة، مما دفعها إلى الموافقة فوراً على الاقتراح دون تردد. قاما على الفور بجر الحمار والدوران به حول القرية تحاشياً لعيون الآخرين، والذهاب مباشرة إلى موقع قبر الأب المجهول من خلف التلة التي كان قد أقيم

عليها، حيث وضعا الجثة فيه وغمراها بالتراب والحجارة، ثم تعاهدا على عدم البوح بالسر لأحد، واتفقا على أن يحمل كلٌ منهما ذلك السر معه إلى قبره بعد عمرٍ مديدٍ. عادا بعد ذلك إلى القبر الجماعي حيث نكشوا التراب من حوله ورشوا عليه الماء ليبدو كأنه فتح وأقفل قبل ساعات. وعلى مدى أيام الأسبوع التالي، انشغل دعبوس ونهدة وشهدة في عمليات تشييد بيتٍ حول القبر وتزينه، ووضع شاهدٍ كبيرٍ فوق رأس الراقد في داخله، وزراعة العديد من الأشجار دائمة الاخضرار والورود الجميلة والأزهار ذات الألوان الزاهية من حوله. وبعد أن استكملوا المهمة التي أوكلت إليهم بنجاح، قاموا بدعوة جميع الرفاق لزيارة القبر وتدشينه رسمياً، وتسميته قبر "الأب المجهول"، وإعلان ذلك اليوم عيداً وطنياً للأجاويد يحتفلون به كل عام.

في صباح اليوم التالي، صحا دعبوس كعادته مبكراً، خرج يستمتع بمناظر الطبيعة الخلابة ويستنشق عطر الأزهار والورود، ويستمع لأناشيد العصافير تناجي الربيع، ويصغي لصوت النهر يجري بسرعة وكأنه يخشى أن يتأخر عن موعد مع حبيبته. إلا أنه حين نظر في اتجاه التلة التي كان يجلس على قمتها قبر "الأب المجهول" صُعق مما رأى.. كان المنظر أمامه يدعو إلى الاستغراب والدهشة.. كان الرفاق جميعاً، بمن فيهم نهدة، يقفون في صفٍ واحدٍ إلى جانب بعضهم البعض، في خشوع تامّ أمام القبر.. كان البعض يبكي بصوتٍ مسموعٍ، بينما تتساقط الدموع من عيون الآخرين بصمت. شعر دعبوس حينئذ بالارتباك والإحراج، بل بالاضطراب الشديد، إذ لم يكن يتوقع أن تصل الأمور إلى ذلك الحد، وخاف في الوقت ذاته أن تضعف نهدة وتبوح بالسر، إلا أنه لم يكن بإمكانه التراجع.. كان أوان التراجع والمراجعة قد

فات ومات، لذلك سارع إلى قمة التلة حيث قام بالانضمام إلى رفاقه والتظاهر بمشاركتهم الشعور والخشوع أمام قبر الأب المجهول. وفي الطريق عائدين إلى البيت، همست نهدة في أذنه تُطمئنه على أنها لن تبوح بالسر، بل ستحافظ على الوعد الذي قطعته على نفسها بالرغم من عبء المسئولية.

ومن بلاد الفلاحيد، انتقلت فكرة قبر "الأب المجهول" بعد قرونٍ إلى مختلف أجزاء الدنيا، وتطورت مع تعدد الشعوب والأمم وتكاثر الحروب لتصبح قبر "الجندي المجهول".. ذلك الجندي الذي يضحي بحياته من أجل وطنه وشعبه وقومه، والمناضل الذي لا يعرفه أحد، ولا يهتم بمصيره إنسان بعد أن يرسله المتحكمون في أمره وأمر البلاد لخوض حرب لا ناقة له فيها ولا جمل. لكن المجتمع اتجه إلى تكريم الجندي المجهول كرمزٍ للفداء في سبيل الوطن، وهو تكريمٌ يعكس في حقيقة الأمر احتفاء المجتمع بعدوانية الإنسان على أخيه الإنسان، ويعطي دليلاً واضحاً على سذاجة كل جندي وعسكري وعقائدي بسيط يسمح للمجتمع بوأد أحلامه وأحلام أحبته، كما يشير إلى سذاجة، وأحياناً غباء كل مجتمع يترك أمره لقادة سياسيين وعقائديين موتورين ويمنحهم حقَّ زجِّه في حروبٍ مدمرة، والتسبب في قتل أبنائه في معارك ليسوا طرفاً فيها، ولا تعود عليهم ولا على أمثالهم من المساكين والفقراء والتعساء والبؤساء بشيءٍ سوى الموت أو العاهات الجسدية والنفسية المستديمة.

إن كل جندي يموت في معركة من المعارك لا يعرف من هو الطرف المنتصر، لأنه يموت قبل أن تنتهي المعارك وتُعلن نتائجها.. إنه لا يعرف إذا كان جيشه قد انتصر أم انهزم، كما أنه لا يعرف حجم الثمن الذي

دفعه المجتمع في سبيل ما حصل عليه من نصر أو هزيمة . لكنه يعرف شيئاً واحداً فقط، وبكل تأكيد.. إنه يعرف أنه خسر كل شيء وانهزم هزيمةً كاملةً وشاملةً لا يمكن إنكارها أو تجاوزها، وأنه ليس هناك شيءٌ يبرر الثمن الذي دفعه في سبيل الهزيمة. إنَّ كل جندي يموت في معركة يدفع حياته ثمنا لحرب مدمرة، لا تعترف بإنسانية الإنسان، ويتسبب في آلام كبيرة لعائلته وأصدقائه وأحبائه، قد تدوم حياة بكاملها، وأن مكافأته الوحيدة هي النسيان.

حين مات عمرود، فيلسوف بني الفلاحيد الذي ولد بعد أكثر من ألف سنة من تأسيسها، وجدوا في مذكراته فصلاً يشير إلى حادثة قبر "الأب المجهول" ويقوم بتحليل معنى وأبعاد فكرة قبر " الجندي المجهول". ومما جاء في تلك المذكرات قول عمرود: إن الجنود المجهولين وغير المجهولين يرسلهم المجتمع كي يموتوا دفاعاً عن كراسي حكام مرضى أو مستبدين أو طامعين أو موتورين، ومن أجل إشباع جشع تجارٍ لا يعرفون غير النهب والسلب والفساد والاستغلال والقسوة على الغير من الفقراء والضعفاء والمحتاجين، وتلبية لأهواء نخب عسكرية تربت على المذلة والهوان واستمرأت ممارستها ضد الغير. فحين يتربى جندي أو ضابطٌ على الخنوع والقبول بالمهانة من مرؤوسيه، يصبح من السهل إقناعه بأن التبعية العمياء لقادة مستبدين، وحتى لجهلاء متطرفين وعقائديين متعصبين هو إخلاصٌ للعقيدة والوطن ووفاءٌ للأمة والقائد، وأن الوحشية في المعارك والتمادي في تعذيب الآخر والقيام بقتله أحياناً دون سبب هي شجاعة واستبسال، وأن تعطيل العقل وإلغاء الضمير هو التزام بتعليمات سعسكرية ومبادئ عقائدية، وأن الانتحار الجماعي المنظم لشعبٍ في حروبٍ طويلةٍ قذرةٍ هو دفاعٌ مشروعٌ عن الحرية

والكرامة والوطن.. كرامةٌ وحريةٌ استبيحت داخل الوطن ذاته، ووطن تحول ومن فيه بفعل التسلط والجشع إلى مزرعة تلهو بها النخب الحاكمة المتحكمة بأرواح ومصائر الناس كما تشاء.

ومنذ إقامة قبر الأب المجهول، بدأ الفلاحيد في التردد عليه وزيارته بشكلٍ منتظم، يأخذون أطفالهم وأولادهم معهم كي يتعرَّفوا على جدهم الأعظَم، والاحتفاء به والاحتفال بانجازاته العظيمة كل عام. ومع تواتر الأيام والسنين، أصبحت زيارة القبر واجباً من الواجبات العائلية، وطقساً من الطقوس الاجتماعية، ومظهراً من مظاهر الوحدة المجتمعية، وجزءاً لا يتجزأ من الاحتفالات الشعبية والهوية الوطنية. وهكذا اكتسب القبر ومن فيه احتراماً كبيراً لدى المجتمع، وتمكَّن خلال عقودٍ قليلةٍ من احتلال مكانةٍ مهمةٍ في حياة الناس، زادت مع تتابع السنين حتى وصلت إلى مرتبة القدسية. ولم تمضِ فترةٌ طويلةٌ حتى بدأت زيارات العامة لقبر الأب المجهول تأخذ منحىً جديداً، استغلّها الزوار في تقديم النذور للقديس الراقد في ذلك القبر عن أرواح موتاهم، والجلوس في خشوعٍ ورهبةٍ استلهاماً لوحيٍ يهديهم إلى الطريق السليم، واتخذوه محراباً يطلبون فيه ما يتمنون من مالٍ وجاهٍ وعطفٍ وحب، وإسقاطاً لذنوبٍ تراكمت على مدى السنين.

سور غمره العظيم

حين بدأ أطفال الفلاحيد يتكاثرون ويتحركون بحُرية بين القرية والبحيرة والنهر، وذلك بعد أن كان قد مضى على تأسيس قرية غمره ما يقارب الثلاث سنوات، كانت الكثير من الحيوانات، ومنها الكلاب والقطط الضَّالة والذئاب والثعالب، قد بدأت تقترب من القرية كلما أحست بجوع ولم تجد ضحيةً سهلة تفترسها، لتبحث في أكوام القمامة عن بقايا طعام تقتات عليه. كان الفلاحيد قد اختاروا أسفل سفح التلة الشرقي مكانا يكدسون عليه قماماتهم، وذلك بسبب ما لأشعة الشمس من قدرة على الإسراع في تجفيف المواد المتعفنة والحد من الروائح الكريهة والأمراض المحتملة. وبسبب قرب ذلك المكان من قبر الأب المجهول الذي تعود الأطفال على التردد عليه، فإن الأهالي شعروا بحاجة لحماية أطفالهم من خطر تعرضهم لبعض الوحوش والحيوانات الضارية التي أخذت تزور أكوام القمامة بشكلٍ سشبه يومي. ولهذا فكر البعض في تشييد سور مرتفع حول القرية، يحتوي قبر الأب المجهول في داخله ويكون له بابٌ كبير يُغلق كل مساءٍ وعند الحاجة. وبينما كانت رعدة التي أصبحت أما لثلاثة أطفال هي صاحبة الفكرة، كان دغموس الذي أصبح أباً لطفلين في مقدمة المتحمسين لها المنادين بضرورة بناء السور. تحمس الجميع لتلك الفكرة، فيما عدا دعبوس الذي عارضها بشدة، ونهدة التي ترددت كثيراً قبل السكوت عليها مسايرةً لزوجها دغموس الذي كانت صحته قد ساءت كثيراً.

كان دعبوس، المفكر المتأمل، يدرك بحِّسه الفطري أن الإلهام والإيحاء لا يأتي إلا حين يكون الأفق واسعاً أمام ناظري المتأمل، وأن الفكر الخلّاق لا يكشف عن ذاته وعبقريته إلا حين تكون النفس خارج محدِّدات المكان والزمان تتربع في حضن طبيعة هادئة وصافية، وأن الإلهام والفكر لا يتعانقا وينجبا إبداعاً خلاّقاً إلا حين يكون الإنسان المفكر حراً ومطمئناً يعيش حياته دون خوف أو مخاوف. لذا عارض دعبوس فكرة بناء السور، وتمنى على رفاقه أن يبقى المكان مفتوحاً لترانيم الطبيعة، وشدو العصافير، وعطر السهول، وعبق التلال والجبال، وخرير المياه، وعيون الشمس، وهمسات الريح.. كانت الشمس في بلاد الفلاحيد ترسل أشعتها كل صباح لتدفئ مياه البحيرة وتستحم فيها على مرأى من عيون الفلاحيد، وتستأذنهم كل مساء قبل الهروب إلى أحضان البحيرة لتأخذ غفوةً طويلةً. وكانت نهدة، الفنانة المبدعة، تدرك تماماً أن الفن يحتاج إلى حرية، وأن الإبداع يحتاج إلى صفاء ذهن، وأن عمليات الخلق بحاجة لانطلاق الروح كي تسافر في عالم لا يحدُّه شيء، ولا يحول دون مداه عائق. لذلك اقترح دعبوس بدلاً من بناء سورٍ حول غمره القيام بحفر حفرةٍ كبيرةٍ وعميقةٍ يتم إلقاء النفايات فيها وحرقها بانتظام، مما يحول في نظره دون وصول الحيوانات إلى بقايا الطعام، ويقضي على الروائح الكريهة بسرعة، ولا يسمح ببقاء الكثير من النفايات فترةً طويلةً لتعفنها.

لكن دعبوس ونهدة فشلا هذه المرة في إقناع رفاقهم بوجهة نظرهم المتعلقة بفكرة بناء سور حول المدينة، وإن كانوا قد اقنعوهم بالموافقة على فكرة حفر حفرةٍ كبيرةٍ للنفايات وحرق ما يتجمع فيها. كان السور بالنسبة للآباء والأمهات، خاصة دغموس ورعدة هو الضمانة الوحيدة

لحماية أطفالهم ومواشيهم من خطر الوحوش الضارية، وكان الاختباء خلف حواجز الطوب العالية يضمن لهم العزلة عن النهر ومزاجه المتقلب في ساعات الليل الموحشة، ويوفّر لهم الهدوء والطمأنينة حتى قدوم الشمس في صباح اليوم التالي. وبعد مداولات استغرقت أسابيع، وافق مجلس العائلات بالأغلبية على بناء السور، وطلبوا من دعبوس ونهدة وضع التصاميم اللازمة واللمسات الفنية التي تجعل منه مفخرةً عمرانيةً تعيش آلاف السنين من بعدهم وتثري تراثهم. كان عزاء دعبوس ونهدة هو وضع تصاميم معقدة ولمسات فنية غايةً في الدقة والجمال، تحتاج عملية تنفيذها لجهود كبيرة ومواهب عديدة، وتستغرق عملية استكمالها زمناً طويلاً، قد يمتد لأكثر من جيل.

منذ أن تسلم دعبوس زمام قيادة مجتمع الفلاحيد، وضع نظاماً إدارياً يقوم على المشاركة الجماعية في اتخاذ القرارات الهامة والمصيرية. ولمّا كان عدد العائلات التي بدأ المجتمع بها هي خمسة فقط، فإن مجلس القرية أصبح يتكون من خمسة أعضاء، حيث تُرك لكل عائلة اختيار من يمثلها في الاجتماعات الدورية ويصوت نيابةً عنها. وعلى الرغم من أن كل عائلة اختارت رجلاً لتمثيلها، إلاّ أنَّ المرأة كانت أكثر مواظبة على حضور الاجتماعات الدورية، وأكثر حرصاً على المشاركة الفاعلة في المداولات وتقديم الاقتراحات والتوصيات. ولذا، حين فشل دعبوس في إقناع رفاقه بوجهة نظره فيما يتعلق بفكرة بناء سورٍ يحيط بالقرية، لم يكن أمامه خيارٌ سوى الانصياع لرأي الأغلبية، والمساهمة في صياغة الفكرة وترجمتها على أرض الواقع بشكلٍ يجعل منها تحفةً فنيةً رائعةً، على أمل أن يعوِّضهم جمال الفن المعماري عن جزءٍ من الحرية التي كانوا يعرفون مسبقاً أن السور سيصادرها. وفي الواقع لم

ينتظر الفلاحيد اكتمال السور حتى يشعروا بفقدان بعض الحرية، بل بدأ إحساسهم بفقدانها يزداد ويتعمق مع كل خطوة اتخذوها في اتجاه إقامة سور حولهم ومحاصرة أنفسهم في مكان ضيق.

كان دغموس أكبر رجال القرية سناً، وأكثرهم بدانةً، يحب الأكل، ويميل بطبيعته إلى السمنة، وهذا جعله يعاني من المرض والإرهاق بشكل متقطع. إلا أنه كان طيّب القلب ومرحاً وذا وجه طفولي مريح ومزاج هادئ في غالبية الأحيان. وهذا قربه كثيراً من قلوب الآخرين، وجعله محل ثقتهم ومحبتهم، يتقربون منه، ويسعون إليه، ويفضلون مجلسه على مجالس غيره من الرفاق. وحين أدرك الضعف دغموس وترهَّل جسمه وبدت عوارض الكهولة تكسو ملامحه وتتسرب إلى حالته العقلية، اضطرت نهدة إلى التفرغ له ولأطفالهما تفرغاً شبه كامل، مما حرمها من مزاولة هواياتها في الرسم والزخرفة وأعمال الزينة كالمعتاد، كما حرمها أيضاً من مرافقة دعبوس في رحلاته الأسبوعية وجولاته الاستطلاعية عبر الجبال والسهول والتلال والغابات. وقبل أن تنقضي السنة الثالثة لزواج دغموس ونهدة، ويحلُّ موعد تداول الزوجات الذي كان الفلاحيد قد اتفقوا عليه، فارق دغموس الحياة، تاركاً خلفه نهدة بلا زوج، وابنه دحبوس وابنته سيهونا بلا أب.

حزن الفلاحيد على موت دغموس كثيراً، وافتقدوه لسنوات، مما دفعهم إلى إطلاق لقب دغموس على كل طفل يشبهه من حيث الصفات والملامح: الطيبة، والهدوء، والبدانة النسبية. ولقد كان من نتائج فقدان دغموس، شعور رفاقه بالوحدة وتراجع حماسهم لفكرة بناء السور، مما ترك الأمر للأجيال القادمة. إلا أن دعبوس اغتنم فرصة تأجيل بناء السور ليحثَّ رفاقه على الإسراع في حفر حفرة كبيرة

للنفايات والقاذورات كما تم الاتفاق عليه، وحرق ما يتجمع في تلك الحفرة مرةً كل يومين، وذلك تحاشياً للروائح الكريهة والأمراض، ومن أجل تقليل جاذبية قريتهم ومحيطهم الحياتي للحيوانات المفترسة والجراثيم. واستجابةً لمطلب حماية الأطفال، قام دعبوس باقتراح فكرة بناء مكانٍ خاص للأطفال، يكون بمثابة حديقة صغيرة يمارس الأولاد والبنات داخلها هواياتهم في اللعب والرسم وغيره، ويقام حولها سور من الأسلاك يحول دون دخول الحيوانات إليها وخروج الأطفال منها.

بعد انقضاء فترة حدادٍ على موت دغموس دامت ثلاثة أشهر، قام دعبوس بمفاتحة نهدة بحبه، وعرض عليها الزواج منه. وبسبب حبها الكبير له ومعرفتها بمدى عمق حبه لها ولأولادها، لم تتردد لحظة واحدة في قبول عرضه. كان دعبوس، ومنذ أن أقعد المرض دغموس في فراشه وفرض على نهدة البقاء معظم الوقت إلى جانبه، قد تعود على قضاء بعض الوقت مع الأطفال كل مساء، يأخذهم إلى النهر أحياناً، يلعب معهم في الحديقة أحياناً أخرى، ويحكي لهم بعض الحكايات المسلية. وبعد موافقة نهدة على عرض دعبوس وإعلان الخبر على الرفاق، تم عقد القران بسرعة، وأقيمت مراسيم الزواج في احتفالٍ بهيج، أعاد البسمة لوجوه الفلاحيد من جديد، وغمر بالفرحة بلادهم. وفي الاجتماع اللاحق لمجلس العائلات، اقترح مريود إلغاء الاتفاق الخاص بتداول الزوجات، وبالرغم من تردد البعض ورغبتهم في خوض تجربة التداول، إلا أن الأغلبية وافقت على اقتراح الإلغاء.

لم تمض سنةٌ على زواج نهدة ودعبوس حتى رزقا بمولودهم الأول، وهذا جعل دعبوس أباً لثلاثة أطفال، أكبرهم في الثالثة من العمر، وأصغرهم في سن الرضاعة. وبسبب ذلك التطور، وجد دعبوس نفسه

مضطراً للتوجه نحو المستقبل، حيث بدأ أولاً بوضع التصاميم والخطط اللازمة لبناء مدرسة لأطفال الفلاحيد، ومن ثم قام بتصنيف الأراضي المحيطة بالقرية إلى أراضٍ زراعيةٍخصبةٍ، وأراضٍ صالحة للزراعة، وأراضٍ سكنية، وأراضٍ لرعي المواشي، ومناطق عامةٍ للنزهة، ومحميات طبيعيةٍ للأشجار والطيور والحيوانات البرية. وبعد أن أخذ موافقة مجلس القرية على ما قام به من عمل، قدم للمجلس اقتراحاً بتوزيع الأراضي الزراعية والصالحة للزراعة على العائلات الخمسة بالتساوي، وجعل ملكية المراعي ملكيةً عامةً، مع احتفاظ المجلس بحق التصرف في المناطق السكنية كما يراه مناسباً، وبما يخدم المصلحة العامة ويساهم في تنشيط الحياة الاقتصادية والنشاطات الثقافية في البلاد.

وفي يومٍ من الأيام الغائمة التي لا تسمح لإنسان بالتمتع بمناظر الطبيعة الخلابة، وجد دعبوس نفسه يقف أمام قبر «الأب المجهول» في حالة خشوعٍ ورهبةٍ. صُعق دعبوس حين تأكد من حقيقة المكان الذي كان يقف فيه وحقيقة شعوره نحوه.. شعر بالذهول لحظات كادت أن تطول، لولا أنه تذكر ما فعله ونهدة بذلك القبر، حين دفنا فيه تيس غنمٍ ميتٍ.. ابتسم دعبوس ابتسامة استهزاء وسخرية وشفقة.. شفقةً على نفسه وعلى غيره من بني الفلاحيد الذين آمنوا بتلك الأكذوبةً، وعلى من سيأتي من بعدهم. وقبل أن يسترجع اتزانه ووعيه تماماً، سمع دعبوس صوتاً خافتاً وعميقاً يأتي من داخله يقول: لا تستغرب يا دعبوس مما حدث.. إن الإنسان العادي يشعر دوماً بحاجة لروحانيات تعيد لنفسه الطمأنينة كلما اضطربت وكادت أن تضل الطريق، وكلما وجدت نفسها في مكان غريب عنها لا تستطيع أن تعيش فيه بدون رفيق طريق.. نعم يا دعبوس.. إنك صانع هذه الأكذوبة التي أصبحت بمثابة معجزة..

إن الإنسان حين يكذب كذبةً كبيرةً، ويكررها في داخله وعلى مسمع من الغير، ويتظاهر بالجدية والأمانة حين يرددها، يتحول إلى إنسان آخر.. يتحول إلى إنسان يؤمن بكذبته ويتحمس لها ويدافع عنها وكأنها تجسّد كل الحقيقة التي يعرفها ويؤمن بها، وقد يدفعه شعورٌ لاإرادي إلى تقديسها والقبول أحياناً بالموت في سبيل الدفاع عنها.. هذه هي حال الشعوب الساذجة والمغرر بها حين يغيب العلم عنها، وتتكاثر أعداد الدجالين والمنافقين بينها، وتتنامى أعداد الجهلاء والبسطاء والفقراء والضعفاء فيها، وتكون بلا هوية تعزز ثقتها بنفسها.

سارت عجلة الحياة في بلاد الفلاحيد دون توقف، وتسارعت التطورات، مما جعل السكان يتكاثرون بسرعة غير معتادة في مثل ذلك الزمان والمكان، وذلك بسبب اهتمام مجتمع الفلاحيد بالنظافة والبيئة والتعليم والصحة العامة. وبعد عمرٍ طويلٍ تجاوز المائة سنة، ماتت نهدة بعد وفاة دعبوس بسنوات، وبموتها ماتَ آخر من كان قد تبقى من مؤسسي مجتمع الفلاحيد الأوائل، وذلك بعد أن اكتسبت لقب «جدة الفلاحيد» مكافأةً لها على عطائها الذي لم ينقطع، وحنانها الذي لم ينضب حتى آخر ساعة في حياتها، مما جعلها تعيش في أذهان الأجيال المتعاقبة كظاهرة إنسانية أسطورية من الصعب أن تتكرر. وحين ماتت نهدة، كان عدد أولادها وبناتها وأحفادها وأحفاد أحفادها قد تجاوز الخمسين. كان حفيدها دعبوس الثاني أقرب الأحفاد إليها، وأحبهم إلى قلبها، وأكثرهم ذكاءً وثقافةً وفطنةً وحنكةً سياسيةً وقدرةً قياديةً، لذا أعدته جّدته لتولي رئاسة اللجنة الخماسية في مدينة غمره، وقيادة مجتمع الفلاحيد من بعدها، وذلك كما قاده جده دعبوس الأول قبل عشرات السنين.

لكن بينما كانت نهدة ترقد على فراش الموت، وقبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، قررت أن تبوح بسرٍّ قبر «الأب المجهول» لحفيدها. استغرب دعبوس الثاني تصرف جدته كثيراً، ولم يصدق ما قالت في البداية.. لقد ظن أنها كانت تهذي وقد أدركها الموت، ولذا لم يعُطِ لما قالته أي اهتمام يذكر في أول الأمر. إلا أن دعبوس الثاني، وبعد أن قام مجتمع الفلاحيد بتشييع جنازة جدته وتكريمها على أحسن وجه، أعاد حساباته من جديد، وقد أيقن أن جدته، وبالرغم من شيخوختها، كانت في كامل وعيها حين أخبرته بحكاية القبر ومن يرقد فيه. احتار في أمره.. لقد أدخلته جدته في دوامة كان من الصعب عليه العيش فيها، ومن الأصعب الخروج منها. ولذا بدأ يتساءل.. هل من الحكمة أن يخبر الناس بما قالت له جدته، أم عليه أن يتأكد من صحته أولاً؟ وماذا سيكون وقع الخبر في نفوس الناس؟ هل سيصدقونه؟ وما أثر ذلك على وحدة الفلاحيد وتماسكهم إذا تبين أن ما قالته صحيح؟ وما سيؤول إليه مستقبله السياسي في ضوء ذلك؟ وهل من مصلحته الشخصية أو من مصلحة المجتمع الذي ينتمي إليه ويحبه أن يبوح بسرٍّ خطيرٍ كهذا، حتى لو كان حقيقةً لا تقبل الشك؟ كيف سيتصرف الناس في حالة التشكيك في رمز وحدتهم وجوهر هويتهم؟ أسئلة كثيرة ومحيرة هيمنت على عقل دعبوس الثاني وحرمته من النوم ليالي طويلة.

ومن اجل التفكير ملياً في الموضوع بعيداً عن عيون الناس وصراخ الأطفال ورائحة المكان، قام دعبوس الثاني برحلةٍ في الغابات المجاورة استغرقت سبعة أيام كاملة، يتنصت فيها على همسِ الطبيعة، يتلصص على عشق العصافير، يشاهد الشروق والغروب في صمت، ويجلس خاشعاً سفي ظلال شجرةٍ كبيرةٍ وعتيقةٍ بعمر الزمن. وهناك شعر دعبوس

الثاني بأن عقله بدأ يهرب منه وكأنه كان بحاجة لإجازة قصيرة، وأن وعيه بدأ يلح عليه بالتواصل مع الوجدان. وبعد استشارة وعيه، اتخذ دعبوس الثاني أول وأخطر قرار قيادي في حياته.. قرر الاحتفاظ بالسر وعدم البوح به لأحد. لقد اتضح له بعد تفكير عميق أن جده وجدته لم يحاولا خداع رفاقهم، ولا تضليل الأجيال القادمة من بعدهم، بل كانا أمام مشكلة عويصة بحاجة لحل سريع خدمةً للمجتمع وحفاظاً على وحدته وتماسك أعضائه. وباستخدام العقل والمنطق والبديهة، توصلا إلى إيجاد حل عمليس لمشكلة اعتقدا في حينه أنها عابرة، ولن تؤثر من قريب أو من بعيد على مجرى حياتهم أو تفكيرهم أو مستقبلهم على المدى الطويل.

إلى جانب ذلك اكتشف دعبوس الثاني أنه لم يكن هناك داعي للبوح بالسر على الإطلاق، وأن من المؤكد أن تكون عواقب البوح وخيمة، قد تؤدي إلى تدمير وحدة الفلاحيد وتقويض ثقتهم بأنفسهم وبأمانة أجدادهم. كما أن عدم البوح بالسر لا يعني الكذب على الغير، وذلك لأن هناك فرقٌ كبيرٌ بين أن يحتفظ الإنسان بما يعرف من أسرار، وأن يزيف ما يقوله للناس باعتباره حقيقةً كانت مخفيةً عنهم.. فالقرار بعدم تعميم ما أخبرته به جدته يعني قيامه بالحفاظ على سر ائتمنته عليه، أما البوح به فقد يعني خيانةً لتلك الأمانة. إن البوح بالسر، همس العقل الباطن في رأسه، من المؤكد أن يؤدي إلى التشكيك في أمانة جدته وجدِّه، ويتسبب في خسارة ما كان لدى عائلتيَ الدعابسة والدغامسة من مصداقية في البلاد، وإحداث هزة مجتمعية قوية وأزمة ثقة بين الناس قد تؤدي إلى تبادل الاتهامات ونشوب خلافات كثيرة تنتهي بتفكك المجتمع وتعثره، والفشل في تشييد مستقبلٍ أفضلٍ سللأجيال القادمة.

ولكن العامل الأهم الذي دفعه إلى الاحتفاظ بالسر هو خوفه على مستقبله السياسي، ومن احتمالات أن يتسبب شيوع الخبر في تقويض فرصته في رئاسة لجنة الإدارة الخماسية، والقضاء بالتالي على كل أمل له في تولي زعامة بني الفلاحيد، وقيادتهم لتحقيق المزيد من الانجازات التربوية والثقافية والاقتصادية، وهو الهدف الذي أعدته جدته للقيام به، ونذر نفسه له، وعاش حياته من أجله. وحيث أن دعبوس الثاني عانى من إخفاء السر في صدره كثيراً وطويلاً، ولم يشعر بالقدرة على البوح به في حياته، فقد قرر أن يدوّنه في مذكراته، وأن يوصي من يأتي من بعده بعدم فتح تلك المذكرات أو نشرها أو إطلاع أي باحثٍ عليها قبل مرور خمسمائة سنة على وفاته.

لم تمر ٣٠٠ سنة على وفاة نهده حتى كان الفلاحيد قد أصبحوا خمسة عائلات مميزة، تعيش في قرى متجاورة ولكن منفصلة، تبعد عن بعضها البعض مئات الأمتار، لكل منها تقاليدها وعاداتها الخاصة بها. كانت عائلة الدغامسة، والتي ترأستها نهدة حتى يوم وفاتها، أصغر العائلات، ولكن أغناها من حيث ملكية المناطق السكنية، وكانت عائلة الدعابسة أكثر العائلات اهتماماً بالعلم والمعرفة، وأفضلها مهارة في إدارة الحكم وتصريف شؤون البلاد، وكانت عائلة الفراهدة تملك أكبر قطعان الغنم والخراف والجمال. أما عائلة المهادبة فقد كانت قد استولت على الأعمال التجارية وصناعة النبيذ والكحول من العنب والتمور وبيعه في الأسواق، وكانت عائلة المرايدة تملك الجزء الأكبر من الأراضي الزراعية والبساتين في البلاد، وتنتج أفضل المحاصيل من البقول والقمح والخضروات والفواكه. إلا أنه بالرغم من انفصال العائلات عن بعضها البعض، إلا أن التصاهر فيما بينها استمر على

حاله، والوحدة بين أفرادها تعمّقت، والحفلات الشعبية الجماعية شاعت، والمناسبات الوطنية زادت عدداً وزخماً، مما جعل الحياة تغدو أكثر ثراءً ومتعةً، خاصة في ضوء تمسك الدغامسة والدعابسة بالحرية الشخصية والقيادة الجماعية، وميلهم لحب الطبيعة، وحرصهم على الحفاظ على البيئة، وتوجههم نحو نشر التعليم وتنشيط الثقافة والفنون.

بعد مرور حوالي ألف سنة على تأسيس قرية غمره، أصبحت تلك القرية مدينة عملاقة تعُجّ بالسكان والنشاط، ومركزاً تجارياً وثقافياً يخدم المجتمع بأسره. أما مجتمع الفلاحيد الذي تجاوزت أعداده ربع مليون نسمة، فقد أصبح يتكون من خمسة مدنٍ كبيرةٍ نسبياً، لكل منها نظامها وحدائقها ومدارسها وحكومتها المحلية الخاصة بها. وفي ضوء ذلك التطور، تحوّل الحي القديم في غمره إلى مكانٍ أثري وسياحي يفتخر بمتاحفه الفنية وحدائقه الجميلة وأماكن التسلية والترفيه العديدة. وبسبب تزايد السكان بسرعة، تم تحويل غمره إلى عاصمةٍ للبلاد ومركز للإدارة الحكومية والمعاملات المالية والنشاطات التجارية الرئيسة، حيث تمت إقامة قصرٍ كبيرٍ على ضفاف نهر سراد ليكون مجمعا للخدمات والمعاملات الحكومية. إضافةً إلى ذلك، كان الفلاحيد قد حققوا حلم جّدَتهم رعدة وجِّدهم دغموس، وأقاموا حول بلادهم سوراً عظيماً، يحميهم ويحمي أطفالهم ومواشيهم من الحيوانات الضارية في الليل، ويقّوي عرى التماسك والوحدة فيما بينهم. إلا أن القدر لم يتركهم وحالهم طويلاً بعد ذلك، إذ تدخل على حين غرة، حاملاً لهم ضيفاً لم يكن في الحسبان، غيَّر مجرى حياتهم إلى الأبد، وبدل رؤيتهم لأنفسهم وللغير كثيراً، وأعاد ربطهم بجذورهم القديمة في بلاد الكراميد.

عودةٌ إلى بلاد الكراميد

حين جاء فصل الصيف بعد توقّفَ الفيضانات التي أثارها الطوفان العظيم قبل ألف عام، لم يجد النهر من القرى والبيوت والكروم التي ألفها وعاشت على ضفافه في بلاد الكراميد سوى القليل.. كانت القرى خرابٌ، والبيوت مدمرةٌ، والرجال والنساء والأطفال الناجون لا يتجاوز عددهم خمسة آلاف شخص، أي حوالي ٥٪ مما كانوا عليه قبل وقوع الطوفان. إلى جانب ذلك، كانت الحالة الصحية والنفسية للناجين سيئةً للغاية، يعانون البؤس والفقر والخوف وقلة الطعام وانعدام المأوى، يرتدون الحزن ثوباً يُغطُّون به وجوههم، ولوناً يصبغون بعتمته سواد عيونهم. لكن الأمور استقرت بعد عقودٍ قليلة، وذلك بسبب خصوبة الأرض الزراعية، واعتدال الجو لعدة سنوات متتابعة، وتعاوُنِ الناجين من الفيضانات على إعادة تشييد بيوتهم وقراهم وحياتهم المدمرة، وإعادة بناء مجتمعهم وثقافتهم من جديد.

كانت روح التعاون والتضامن التي سادت حياة مجتمع الكراميد بعد حدوث الطوفان أجمل ظاهرة تفرزها محنة الفيضانات وما تبعها من كوارث.. كانت الشيء الايجابي الأهم الذي تمخَّض عن الدمار المادي والمصائب الإنسانية التي أحدثها الطوفان. إذ قام الناجون من رجال ونساء، ومنذ اليوم الأول لتراجع منسوب النهر، بمد يد المساعدة للمحتاجين من الأهالي، وتبنِّي سالأطفال الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم وذويهم، وقيادة عملية إعادة البناء والتنمية بشكلٍ جماعي تميَّز بالجد والنشاط والإخلاص، ونبذ الأنانية وفكرة التعصب لعائلةٍ أو فكرةٍ معينةٍ. كانت المشكلة التي واجهتهم مصيريةً، تتعلق بالبقاء من

عدمه، مما استوجب التعاون والتضامن والانفتاح إلى أبعد حد ممكن على كلٍّ فكرس لتحمل تلك المسؤولية الكبيرة. ولم تمض مئة سنة على حدوث الطوفان حتى كانت بلاد الكراميد قد استعادت قدراً جيداً من عافيتها، وتسلم جيلٌ جديدٌ زمام القيادة فيها، لا تشوب ذاكرته الجماعية ولا تجربته الحياتية الفردية تلك المخاوف التي ميّزت ذاكرة وتجربة جيل الآباء والأمهات من قبله.

إن التداخل العائلي الذي أملته عمليات قيام البعض بتبنّي أطفال الغير من الأقارب والأصدقاء والجيران والغرباء، وكون معظم الأراضي والممتلكات الشخصية والعائلية التي لم تجرفها الفيضانات قد أصبحت بلا وريث شرعي، قاد السكان إلى اتخاذ قرارٍ ضمني غير رسمي وغير معلن بجعل ملكية الأراضي الزراعية جماعية، أو بالأحرى مُشاع. إضافة إلى ذلك، تَسببَّ الإحساسُ العميقُ بحسن الحظ لدى الناجين إلى رؤية الحياة كمسرح مفتوح، لكل شخصٍ دورٌ فيه، قد يطول وقد يقصر، لكنه لا يدوم. أمّا مسرحُ الحياة فهو عبارة عن مسيرة مجتمعية لا تخضع لسيطرة إنسان، ولا لمزاجية حاكمٍ أو قائدٍ، ولا لإرادة مجموعة معينةٍ دون غيرها. وهذا جعلهم يعتقدون بأن مسيرة الحياة المجتمعية تصنعُ مستقبلها بنفسها، وتفرض على المشاركين فيها والممثلين على خشبة مسرحها والمتفرجين على عروضها أن يتكيفوا لظروفها وتقلبات مزاجها. في ضوء ذلك الفهم للأمور أخذ الكراميد يتصرفون على أساس أن مسرح الحياة، وبالرغم من استقلاله ومزاجيته وقسوته أحياناً، يمنح كل إنسان فرصةً كافيةً للتمتع بحياته، ويفتح المجال أمام كل فرد للقيام بدورٍ مناسبٍ على خشبته، يتناسب مع مؤهلاته ومواهبه ورغباته وطموحاته وقدراته على العمل والمثابرة.

وهذا دفع الناجين من أبناء الكراميد إلى دراسة أسباب وقوع الطوفان وتبعاته، والعمل على تطوير بيوتهم وقراهم وحياتهم وثقافتهم على أسسٍ جديدةٍ تتوخّى السلامة، وتعزِّز الحريات العامة، وتقلِّصُ دور التقاليد الاجتماعية القديمة المكبِّلة لحركة الفرد والمجتمع. ولذلك قام الكراميد بإعادة تخطيط قريتهم وإقامة بيوتهم الجديدة على سفوح التلال بعيداً عن مجرى النهر وشواطئ البحيرة، والتوجه نحو إرساء مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين الناس، والعمل على تربية أطفالهم على الصدق والأمانة والصراحة، والسماح لجميع أفراد المجتمع، بغض النظر عن أعمارهم ومراتبهم الاجتماعية بالتمتع بحياتهم دون استهتار، وتشجيعهم على السعي نحو مزاولة الأعمال والنشاطات التي تتناسب مع مواهبهم وتتجاوب مع طموحاتهم. إلا أنهم في سعيهم لتأمين حياتهم والاهتمام بأنفسهم والتمتع بالحاضر في ضوء عدم القدرة على التنبؤ بالمستقبل والمجهول، أهمل الكراميد التعليم واستحقاقاته، ولم ينتبهوا لضرورات الاهتمام بالبيئة والصحة العامة والعناية بهما.

لقد أدرك الكراميد بحِسِّهم الفطري وفي ضوء تجربتهم التي أعادت أحداث الفيضانات تشكيلها من جديد، أن المستقبل لا يؤتمن جانبه، وأن العيش في الحاضر والتمتع به بقدر الإمكان هو أفضل ما يمكن أن يفعله الإنسان. ولذا اتجه الكراميد الجدد نحو التمتع بحياتهم، والاعتزاز بحريتهم واعتبارها أساس كل شيءٍ جميلٍ وثمينٍ وعملٍ مبدعٍ في الحياة. إذ بدون حرية يصعب على الإنسان أن يكون خلاقاً ومبادراً، وأن يكون صادقاً مع نفسه ومع الغير، وأن يختار طريقة الحياة التي تتفق مع طبيعته وتلبي طموحاته، وأن يكون متسامحاً مع الغير، يقبل

بهم ويتقبل التعايش معهم ويحترم حقهم في التعبير عن آرائهم بِحُريةٍ س وصراحةٍ، حتى وإن اختلفت عن آرائه وما يؤمن به من قيم ومبادئ. نعم.. إن الحرية والتسامح والتعاون هي أساس بناء كل مجتمع سليم يملك إمكانيات البقاء، ويكون في مقدوره تحقيق النمو والازدهار وتوفير حياة كريمة لجميع أفراده. لكن الفلاحيد اكتشفوا فيما بعد أنه بدون تعليم سليم وبيئة نظيفة وعناية صحية وتفكير علمي وعمل مؤسسي بعيد النظر لا يمكن الحفاظ على أي مكتسب من المكتسبات الفردية أو الجماعية أو المجتمعية مهما تواضعت.

بعد حوالي ستة قرون من التطور البطيء، وفي ضوء استقرار الأحوال المعيشية والأوضاع الحياتية في مدينة عتره، وصل عدد الكراميد إلى ما كان عليه قبل الطوفان، ونجح المجتمع في إرساء تقاليد وأعراف اجتماعية جديدة اختلفت كثيراً عما كان سائداً في البلاد ما قبل الطوفان. وفي مجال تنظيم الحياة الاجتماعية، قام الكراميد بسّن قوانين جيدة لتنظيم شؤون الحياة وإدارتها على أسس غير تقليدية تعتمد العقل والمنطق وتسعى لخدمة الصالح العام. إلا أنهم أخفقوا في تشجيع التعليم والاهتمام بتعميمه، وفشلوا في تشريع عمليات استغلال الأراضي الزراعية الخصبة وتوزيع ملكيتها بين الناس، وذلك بسبب توفر الأراضي الصالحة للزراعة بكثرةٍ، وميل السكان عامة للتعاون في فلاحة الأرض وتوزيع المحاصيل فيما بينهم. ولقد نتج عن ذلك القصور في الرؤية تفشي الجهالة في المجتمع، ووقوع بعض النزاعات بين ابناء العشائر، وتمهيد الطريق لظهور الكثير من الخرافات، وقيام المشعوذين والسحرة بخداع العامة من الناس وقيادتهم في اتجاهات تتناقض مع العلم وتتنافى مع مصالحهم، واتجاه الأقوياء والمتنفذين

من أبناء العشائر الكبيرة نحو الاستيلاء على الأراضي الخصبة القريبة من المدينة، وحرمان بقية الناس من حق استغلالها، والاستحواذ على دخلها من محاصيل وثمار وحيوانات وخلافه.

وحيث أن كل جديدٍ، ومهما كانت طبيعته ونُبَل أهدافه يتحول مع تقادم الزمن إلى قديم، وكل قديم لا يخضع للتطور يغدو بعد حين حجر عثرةٍ يحول دون تحقيق الضروري من إصلاحات مجتمعية والمزيد من التقدم، فإن بلاد الكراميد لم تستطع أن تحافظ على زخم التطور وروح التعاون والتآلف التي سادت حياتها في عهود ما بعد الطوفان مباشرة. لذلك ظهرت الطبقية المرتبطة بملكية الأراضي الزراعية، وانتشر الفساد الاقتصادي والإداري المنبثق عن الجشع وحب الثروة والمادة، وقام القوي والثري باستغلال الضعيف والجاهل والساذج، وتبلورت قياداتٌ عائليةٌ وتقليديةٌ جديدةٌ هيمنت على النشاطات التجارية وتسببت في حدوث تحول عام نحو المادية وما يعنيه ذلك ويترتب عليه عادة من جشعٍ وحسدٍ وغيرةٍ وتنافسٍ سلبيٍ. ولقد كان من تبعات تلك التحولات المجتمعية تباطؤ وتيرة التطور المجتمعي بشكل عام، وانتشار الأمية بين الناس على نطاق واسع، وحدوث توجهٍ عام نحو الإيمان بالخرافات وأعمال السحر والشعوذة، وتعمُّق أسبابٍ الجهالة والتخلف الثقافي، وذلك دون وعيٍ بمدى خطورة ذلك التخلف على الحاضر والمستقبل على السواء.

ودون سابق إنذار، تعرضت حياة الكراميد لحادثٍ غريبٍ، كان له ما كان للطوفان من أثرٍ كبيرٍ في مسيرتهم الحضاريةٍ والإنسانية. إذ بعد نجاحهم في بناء مجتمعٍ متجانس ومتطور إلى حدٍ كبيرٍ، واقتصادٍ لا بأس به، وحياة مستقرة، جاءهم شخصٌ من ذويهم تسبَّبَ، ومن حيث

لا يدري في تحويل مجرى حياتهم الثقافية والاجتماعية في اتجاه جديد، بعيداً عن حرية الرأي والمسلك، وفي اتجاه التزُّمتَ الفكري والتمسك بالتقاليد، وسيادة الخرافات وأعمال السحر والشعوذة. ولقد كان من نتائج ذلك التطور، اتجاه الاقتصاد نحو التدهور التدريجي، واتجاه المجتمع نحو التخلف، واتجاه الحريات العامة نحو التراجع، بينما كانت الفوارق الطبقية تتسع باضطراد. ولقد تبع ذلك، انتشار الفقر بين الناس، وتكرر أزمات الغذاء والمجاعات بالرغم من توفر الأراضي الزراعية والمياه بكثرة، وتنامي دور القيادات التقليدية والعشائرية في المجتمع، وذلك على حساب دور الفكر والمفكرين والمبدعين والملتزمين بالمصلحة العامة، وشعور الناس بالذنب حين يسعون لتحقيق السعادة وحين يحسُّون بالتمتع بالحياة.

في صباح أحد الأيام الممطرة، وقع مجذوب ابن مهبوب عن سطح منزله الذي كان يقوم بترميمه، وذلك بعد أن تسربت مياه الأمطار من السطح إلى الداخل وأتلفت أثاث البيت. ولقد نتج عن ذلك الحادث فقدان مجذوب لوعيه، ودخوله غيبوبة دامت طوال ساعات النهار والليل. لكن حين وصل الأهل والجيران لإنقاذ مجذوب، وجدوه في حالة سيئة على مشارف الموت، وبينما ظن البعض أنه لا زال حياً ومن الممكن إسعافه، ظن آخرون أنه فارق الحياة، ولذا سارع الأصدقاء بدعوة السحرة والمشعوذين لإسعافه وتطبيبه قبل فوات الأوان. قام المدعوون بالكشف عن مجذوب وطمأنة الأهل والأقارب أولاً، ثم قاموا بالتمتمة فوق رأسه وحرق البخور في البيت والرقص حوله بطريقة هستيرية لساعات، ولكن دون جدوى، إذ لم يستجب المريض لشيء. وحين فقدوا الأمل في عودته إلى الحياة، اخبروا أهله أنه فارق الحياة، وبالتالي

لم يعد بالإمكان تطبيبه. في أعقاب ذلك لم يجد الأهل خياراً أمامهم سوى نقل جثمان مجذوب من بيته إلى البيت العام، حيث قاموا بغسل جسده وتكفينه استعداداً لدفنه. إلا أن استمرار هطول الأمطار بغزارة في ذلك اليوم، وهبوط الليل بسرعة أجبرهم على تأجيل موعد الدفن حتى صباح اليوم التالي، ولذا تركوه في داخل نعشه، وذهبوا إلى بيوتهم على أن يعودوا في الصباح بعد شروق الشمس لنقله إلى المقبرة وإتمام مراسم دفنه حسب التقاليد المرعية.

لكن حين بدأ شعاع الفجر يتسلّل إلى داخل المكان الذي كان يرقد فيه النعش، بدأ مجذوب يتململ في نومه، ثم صحا من غيبوبته ليجد نفسه عارياً يلفه كفن أزرق، ويحتضنه نعشٌ جاهز للذهاب إلى المقبرة. ظن مجذوب في أول الأمر أنه كان يحلم، وأن الكفن والنعش ليسا إلا كابوسا عابرا زاره خلال الليل في المنام، لكنه بعد هنيهات تذكّر أحداث يومه، وأدرك أن ما كان يراه ويحسُّ به حقيقةً وليس كابوساً، وأنه بالتالي على وشك أن يدفن حيا. لذلك انتفض واقفا على قدميه، يرتجف من الخوف والبرد ورهبة الموت، وقد أدرك تماماً ما كان ينتظره من مصير قريب مظلم. قفز من نعشه بسرعة، فتح باب البيت العام وسارع في الهروب منه والعودة إلى منزله قبل وصول المشيعين. وفي الطريق إلى منزله، مرَّ مجذوب بالشارع الرياسي أولا، ومنه إلى أحد أزقة القرية الضيقة الموصل إلى بيته. وهناك رآه العديد من الرجال والنساء والأطفال يسير ملفوفاً في كفنه، مما قادهم إلى الاعتقاد بأنهم يرون ذلك الشبح المخيف الذي طالما سمعوا عنه في حكايات جدّاتهم، وشاهدوه في خيالهم، وحلموا به في كوابيس لياليهم المعتمة، مما جعلهم يشعرون بالرعب والرهبة ويهربون من طريقه، خوفاً من أن يؤذيهم

أو يخطفهم من بلادهم وأحبتهم، ويأخذهم معه إلى عالمه المخيف الموحش.

وما كاد أن يدخل بيته ويخلع كفنه ويلبس بدلاً منه ملابس عاديةً، حتى أحضرت له زوجته كأس ليمون أعاد الطمأنينة إلى قلبه المضطرب ونفسه الحائرة. لكن دخول الشبح إلى بيت مجذوب وعدم خروجه منه، دفع الناس إلى التجمع أمام منزل مجذوب وزوجته، وتسبب في نشر إشاعات كثيرة وغريبة بين الناس، كان بعضها موغل في السذاجة والخيال. إذ بينما ادعى البعض أنهم شاهدوا الشبح يسير برأس طويل امتدّ عالياً كأنه عمود من نور، ادعى آخرون أنهم رأوه يسير بلا رأس ويداه معلقتان في السماء. أما حارس البيت العام، فقد ادعى أنه رأى مجذوب يخرج من سقف البيت، ويطير نحو الأرض مستخدماً جناحين من ريش أحمر اللون، ويسير ومن حوله مجموعة كبيرة من الأشباح والجن يرتدون ثياباً شفافة متعددة الألوان. وما أن مضت ساعتين على وصول مجذوب إلى بيته، حتى كان المئات قد تجمعوا أمام منزله في انتظار رؤيته، أو بالأحرى رؤية شبح مجذوب. خرجت زوجته بعد حين مرتبكة، ترددت كثيرا قبل أن تتكلم، ثم خاطبت الجماهير المحتشدة أمام منزلها قائلةً: إن الشيء الذي رأيتموه يدخل بيتنا ليس شبحاً، بل مجذوب بلحمه ودمه وقد عاد إلى منزله بعد أن صحا من غيبوبته قبل ساعات.. إن مجذوب يشكركم على اهتمامكم به ويَوَدُّ أن يطمئنكم بأن صحته جيدة، وأنه قد يخرج بعد غد للالتقاء بأصدقائه كالمعتاد، إلا أنه الآن يشعر بالإرهاق والجوع وبحاجة إلى قسط كبير من الراحة والنوم، لذلك أرجوكم أن تتركوه حتى ينام ويرتاح ويستعيد كامل وعيه وعافيته.

كان مجذوب ابن مهبوب شاباً طيباً ومحبوباً وذا شعبية كبيرة في القرية، يريده كل معارفه وجيرانه وأصدقائه ويتقربون منه ويتوددون إليه. كما كان رجلاً شهماً لا يتوانى عن التطوع لأعمال الخير وخدمة المجتمع، لا يرفض طلبا لأي شخص من أهل القرية، ويقدم المساعدة لكل من احتاج إليها من الناس دون مقابل. وبسبب ما كان يتمتع به من لياقة بدنية، كان مجذوب كثير النشاط والحيوية، يهوى الطبيعة، ويحب الصيد والرحلات في البحيرة وفي البراري وعلى سفوح الجبال العالية. لذا كان يخرج في قاربه الشراعي مرةً كل أسبوع، يبحر بمفرده أو بصحبة أحد أصدقائه في مياه البحيرة، يمارس هواية التجديف وصيد السمك ومشاهدة الغروب في عرض البحر، كما كان يذهب مرةً في الأسبوع أيضاً إلى البراري، يمارس رياضة المشي وتسلق الجبال، ويصطاد ما استطاع من أرانب برية وديك حبش وغزلان، ويقوم بتوزيع معظمها على الجيران والمحتاجين من الأصدقاء والمعارف.

لكن مجذوب تعرض قبل حادثة السقوط عن سطح منزله لتجربة حياتية غير عادية مهدت الطريق لميلاد الإشاعات من حوله وانتشارها بين الناس. ففي إحدى رحلات الصيد العادية في بحيرة البهاليل، هطلت الأمطار بشكل متواصل وبغزارة كثيفة غير متوقعة، ولساعات طويلة تسببت في فقدان الرؤية. وهذا جعل مجذوب الذي كان يبحر بمفرده يضلُّ طريقه في عُرض البحيرة، حيث لم يعد بإمكانه تحديد مكانه أو وجهة سيره، خاصة مع تقادم النهار وحلول الظلام. وفي صباح اليوم التالي، فوجئ مجذوب بوجود قاربه راسياً على شاطئ بحيرة الأشباح التي تكثر الإشاعات عنها ويخافها الكراميد ولا يقتربون منها أبداً. لكن الجزيرة، وبالرغم من مخاوف مجذوب الكبيرة كغيره من

الناس، بدت له في منتهى البراءة والوداعة.. هادئةً وجميلةً ومضيافةً، تدعوه لزيارتها والتمتع بروائعها الطبيعية الخلابة. استلقى مجذوب على ظهره دون أن يغادر قاربه، فكّر ملياً في أمره، وترك خياله يجوب عالم الخرافات والسحر والأساطير الكثيرة والمثيرة التي سمعها في صباه ولم يتحقق منها شيءٌ. وهذا دفعه إلى التساؤل عما إذا كان من الأفضل له أن يعود بسرعة إلى شاطئ الأمان قبل أن تصحو الأشباح من نومها وتعتدي عليه، أو تختطفه جنيةٌ وتتزوجه دون إرادته، أم أن الفرصة والأقدار رمت به على شاطئ جزيرة الأشباح ليكون أول إنسانٍ تطأ قدمه أرضها ويقوم باكتشافها والكشف عن أسرارها وكنوزها.

نظر مجذوب في كل اتجاه بحثاً عن أي شيءٍ يوحي بالخطر أو الحذر، ولما لم يرَ غير الهدوء ولم يسمع غير الطيور ولم يلمس غير نسيم الصباح، تشجّع وقذف بالمرسى إلى الشاطئ.. نزل من قاربه بحذر، وخطى خطوته الأولى على أرض جزيرة الأشباح ببطء.. كان يسير خطوة، ثم يقف برهة وينظر خلفه للتأكد من وجود القارب في مكانه ومن عدم حدوث ما من شأنه أن يغير حياته إلى الأبد. لكن شيئاً لم يحدث، كان السكون يطغى على المكان، وكان نسيم البحر هو الشيء الوحيد الذي يتحرك بدلال، يداعب الأعشاب ويراقص الأغصان، وهذا شجعه على مواصلة الخطوات، ولكن مع بقاء القارب باستمرار في مرمى النظر. وبعد قضاء حوالي الساعتين في الجزيرة بالقرب من الشاطئ، عاد مجذوب إلى قاربه وقد استكشف بعض معالم الجزيرة، واستمتع بهوائها النقي وأجوائها المنعشة. كانت الجزيرة، والربيع يختال في شبابه الأنيق في ذلك الوقت من السنة، تبدو عروساً تلبس حلةً زاهيةً خضراء، وكانت شجيرات الورد والأزهار البرية تزيِّن الهضاب، وتضع

على رأس كل تلة من التلال إكليلاً جميلاً من الزهور متعددة الألوان والعطور، وكانت الطيور تغني للأزهار، وتتراقص سكارى على نسمات البحر وهمس الشجر.

وكغيره من فلاحي عتره ورعاة الغنم فيها، كان مجذوب ابن مهبوب يملك بعض الأغنام التي كان يرعاها بنفسه، ويعيش هو وعائلته على بيع ما تنتجه له من لحوم وجلود، وما تصنعه زوجته من حليبها من ألبان واجبان. وبعد أن عادَ إلى منزله، قرر مجذوب أن يعود إلى الجزيرة ثانيةً لاستكشاف كافة معالمها، واختبار ما إذا كان بالإمكان استيطانها، أو تحويلها إلى مكان سياحي أو مرعى للمواشي. وفي اليوم المحدد، صحا مبكرا، أخذ معه خيمة صغيرة وبعض المأكولات، واصطحب اثنين من أفضل كلابه، وذلك لحمايته في حالة حدوث ما يستدعي ذلك، وأخبر زوجته أنه ذاهب في رحلة صيد قد تستغرق عدة أيام. وهكذا، بدأ مجذوب مغامرةًغير محسوبة العواقب، كان لها أثرٌ غير عادي على مجرى حياته وحياة الكثيرين من أبناء الكراميد من بعده. وحين وصل جزيرة الأشباح، اكتشف أن قراره كان صائباً، حيث وجدها خاليةً من البشر، تنعم بالهدوء والسكينة، تسرح فيها الطيور والفراشات والحيوانات البرية على هواها بحرية تامة، وتستحم الأسماك في مياهها البلورية بشغف.. كانت أرضها خصبةً، وأشجارها كبيرةً وجميلةً، وأزهارها وعطورها في غاية التنوع والروعة. وقبل أن يغادر الجزيرة التي قضى فيها ثلاثة أيام بلياليها، أطلق مجذوب عليها اسم «جزيرة السلام».

بعد عودته إلى بيته سالماً وسعيدًاً، اختلى مجذوب مع نفسه واستعرض تفاصيل مغامرته المثيرة، وقام بتقييم تجربته دون أن يخبر

أحداً بما حدث. وفي ضوء ما توصل إليه من استنتاجات، قرر أن يبدأ تجربةً جديدةً في تربية الأغنام.. قرر أن يأخذ مجموعةً صغيرةً منها، ينقلها إلى الجزيرة، ويتركها هناك تعيش على هواها كما تعيش الأغنام والأرانب البرية والغزلان في البراري والأدغال. وفي فجر أحد الأيام في أوائل الصيف، وبعد أن كان قد انتقى خمسةً من أفضل أغنامه، أربعة غنمات وتيس، صحا مبكراً، قاد أغنامه إلى الشاطئ، وهناك ربطها من أرجلها حتى لا تستطيع الحركة، ثم وضعها في القارب، وقاده إلى جزيرة السلام التي كانت تعيش فراغاً وترقباً كبيراً في انتظار من يسكنها ويبعث فيها حياة جديدة بطعم مميز. وهناك قضى مجذوب شهراً كاملاً مع أغنامه وكلابه، ولم يتركها حتى تعودت تماماً على نمط الحياة الجديد، وعلى النوم في إحدى المغارات التي اختارها لها في مكان لا يبعد كثيرا عن الشاطئ الذي يقع في مواجهة بلاد الكراميد.

ذهب مجذوب بعد مرور بضعة أشهر لتفقد أغنامه وكلابه وزيارة جزيرته، وحين وطأت قدماه أرض الجزيرة دهش مما رأى.. كانت النتائج بالنسبة لعدد الأغنام وصحتها أفضل مما كان يتوقع ويتمنى بكثير، وكانت كلابه بانتظاره لتلحس يديه وتجلس عند قدميه. قضى هناك أسبوعين كاملين، قام خلالهما بزيارة أغنامه وكلابه، والتمتع بتذوق طعم فواكه وخضروات لذيذة لم يتذوق مثيلاً لها من قبل، وحين عاد إلى قريته وبيته كان في غاية السعادة والاطمئنان.. السعادة لان تجربته في تربية الأغنام نجحت في تحقيق هدفها الرئيس، والاطمئنان إلى انه سيتمكن بعد أشهر قليلة من الاعتماد كلياً على مزرعته الجديدة لتمدّه بحاجته من الدخل، مما سيسمح له بالتفرغ تفرغاً كاملاً للتأمل والقيام بالأعمال الخيرية، وخدمة أهله ووطنه وسكان قريته الحبيبة.

لكن أصدقَائه الذين افتقدوه خلال غيابه، حاولوا معرفة سبب الغياب والمكان الذي قضى فيه وقته بعيداً عنهم وعن بيته وقريته، إلاّأن مجذوب تهرب من أسئلتهم ولم يجب عن أيٍّ منها، مما جعل الشكوك تتسرب إلى قلوبهم. كان غياب مجذوب المتكرر سبباً في إثارة التساؤلات وتكاثر التكهنات التي رفض مجذوب الإجابة عليها أو البوح بسره لأحد خوفاً من اتهامه بمآخاة الجن أو مصادقة الأشباح أو الجنون. وحيث أن الإشاعة هي كالنار حين تستعر لا تتوقف، فإن الحكايات الغريبة والمريبة أخذت تنتشر وتتوالد بسرعة في البلاد، وهذا ساهم في تمهيد الأجواء المناسبة لظهور الهستيريا الجماعية التي تلت عودته من البيت العام ملفوفاً في كفنٍ في صباح أحد الأيام الصافية بعد بضعة سنوات.

حين عاد مجذوب إلى قريته من تلك الرحلة الموفقة، كانت معه ثلاث غنمات جميلة، وحين أخذها إلى السوق لبيعها في اليوم التالي، استحوذت على إعجاب كل من كان في سوق المواشي في ذلك اليوم، مما جعل المشترين يتسابقون على شرائها ودفع ثمنٍ مرتفع مقابل الحصول على واحدة منها. وهذا شجعه على السير في قرارٍ التفرغ للأعمال الخيرية، ودفعه إلى القيام في الأسبوع التالي ببيع كل ما كان لديه من ممتلكات وأغنام في عتره، فيما عدا البيت الذي كان يعيش فيه وحديقة الفواكه والخضاًر والورود المحيطة به، وهي حديقةٌ تخصصت زوجته في زراعتها والعناية بأشجارها وأزهارها. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد مجذوب يرعى الغنم كالمعتاد، بل كان يقضي معظم وقته في التجوال في شوارع عتره، يساعد في أعمال الخير والعناية بالبيئة، ويساهم في تقديم المعونة والخدمات لمن احتاج إليها من الناس، ويقضي أوقات فراغه في رحلات الصيد البرية والبحرية والسهر مع الأصدقاء الذين

بدأت أعدادهم بالتراجع.

دأب مجذوب على القيام بزيارة جزيرة السلام مرةً كل بضعة أشهر، يتمتع بهوائها النقي وجمالها الخلاب، يتفكر في أمور الدنيا، يتمعن في روعة الطبيعة وطبيعة الكون، يتفقد ممتلكاته من الأغنام والكلاب والقطط، ويعود ومعه بعض الأغنام لبيعها في سوق عتره. كان يغادر شاطئ بحيرة الأهاويل مع الفجر، ولا يعود إليها إلا بعد أيام وبعد حلول الظلام، وذلك حتى لا يراه أحد من الأهالي، وكي يبقى سره طي الكتمان. إلا أن غيابه المتكرر، والذي كان يستغرق أحيانا أسبوعين أو أكثر، كان سبباً في تغيُّره كإنسان، وفي جعل سيرته مثار تساؤلات كثيرة وأسئلة محيرة، خاصة بعد أن فشل تجار السوق في معرفة مصدر الأغنام التي كان يحضرها بين الحين والآخر ويبيعها لهم بأسعارٍ تقلُّ عن سعر السوق. وحين وقع الحادث الذي كاد أن يتسبب في دفنه حياً، كانت جزيرة الأشباح قد تحولت في واقع الحال إلى مزرعة خاصة به، تسرح فيها أغنامه وتمرح فيها كلابه دون رقيبٍ أو حسيبٍ أو شريك، وكان قد مضى على تفرغه للعمل الخيري حوالي ثلاث سنوات.

اكتشف مجذوب بعد عودته إلى البيت ملفوفا في كفنه الأزرق، أن إصابته كانت بليغة، شملت كسوراً في رجله اليسرى وعظام الصدر، وتسببت في معاناته من صداع في الرأس دام أسابيع، والآلام في الظهر لم يكن بالإمكان شفاؤها بسهولة، وجروح في الأرجل طال مداها. لذلك اضطر مجذوب إلى البقاء في بيته لمدة ستة أسابيع متواصلة قبل أن يخرج إلى الشارع ويتمكن من استئناف حياته ونشاطاته اليومية بشكل شبه طبيعي. وفي تلك الأثناء، كانت الإشاعات تتكاثر وتتوالد وتتشَّعبُ وتنتشر بسرعةٍ كبيرةٍ كالنار في الهشيم، بينما كانت الخرافات والقصص

الخيالية تحاك من حوله بلا توقف، دون أن تجد من يدحضها ويضع لها حداً. ولقد تبع ذلك حدوث تغير كبير في صورة مجذوب في أعين الناس، إذ تحول من شخص عادي بسيط إلى أسطورة، أو معجزة كبيرة تبحث عن تفسير ولغز مثير ينتظر حلاً.

بعد خروج مجذوب من بيته وقد تعافى وجد أن حياته قد تغيّرت تماماً، وأنه لم يعد له أصدقاءٌ كما كان عليه الحال قبل أسابيع قليلة.. لقد بدأ جميع معارفه وأصدقائه يتحاشونه، ويبتعدون عنه، ويحاولون بقدر الإمكان تجنب الحديث معه والاقتراب منه. في مقابل ذلك، حاول مجذوب أن يشرح لأصدقائه حقيقة ما حدث معه، ويطلعهم على سر جزيرة الأشباح، إلا أن أقواله زادت الشبهات من حوله، وأكدت ما كانوا يعتقدون به من خرافات تتعلق بمآخاته للجن وعلاقاته الحميمة مع الأشباح التي كانت تسكن على الجانب الآخر من بحيرة البهاليل. حاول مجذوب استعادة مكانته في المجتمع، واسترجاع مصداقيته بين الناس، مستخدماً العقل والمنطق والمال، إلا أن جميع محاولاته باءت بالفشل، وقصته لم تجد من يصغي إليها، ولا حتى بين أهله.. لم يصدق أقواله أحد، بل لم يكن هناك شخصٌ واحدٌ على استعداد للجلوس معه والبقاء بالقرب منه وقتاً كافياً لسماع قصته بالكامل.

إن من طبيعة الناس أن لا يسمحوا للحقيقة بأن تعطّل مسيرة قصة مثيرة، وذلك لأن الحقيقة باردةٌ وأحياناً قاسيةً، وكثيراً ما تكون تفاصيلها مملةً تحتاج عملية سردها لوقت طويل، وتتطلب عملية الإصغاء إليها واستيعابها لتركيزٍ مُنهك، بينما تتميز الخرافة والأسطورة بالتفاصيل المثيرة والمفاجآت العجيبة. ولذلك سارت قصة مجذوب في طريقها المثيرة، وانتشرت على شكل خرافاتٍ وقصصٍ خياليةٍ وتنبؤاتٍ غريبةٍ

أكثر اثارة، مما أدى إلى تزايد حماس الجماهير لها، واتجاههم نحو تداولها على نطاقٍ واسع. ومع تصاعد حماس الجماهير وتشوقها لسماع المزيد عن أخبارٍ مجذوب وتفاصيل قصته في بلاد الجن ومغامراته مع الأشباح كما روتها الإشاعات وروّجت لها الناس، تزايدت مخاوف الكراميد مما تحمله تلك القصة من نبوءاتٍ قد تلحق الضرر بهم وبأولادهم. وهذا جعل مجذوب وقصته يتحولان إلى هوسٍ جماهيري عارم، سيطرت عليه العاطفة والمخاوف، وجرفت في طريقها، كالمعتاد، كل مًا كان هناك من حقيقة وعقلانية.

إن من طبيعة الخرافة أن تتحول مع تقادم الزمن إلى أسطورة، وأن تتحول الأسطورة بعد حين إلى قناعة، وأن تتحول القناعة بعد قرون إلى عقيدة راسخة في النفوس، يصدقها الناس ويؤمنون بها، ويدافعون عنها بقوةٍ وأحيانا بشراسة، وينقادون بلا وعي خلف من يحمل لواءَها ويدعي فهمها والعمل على وقاية الناس منً أشرارها. وحين تصبح الحقيقة هي النقيض للعقيدة المؤسَّسة على الخرافة، فإن الحقيقة تصبح ضحيةً من ضحايا الخرافة وما يتعلق بها من أساطير، بل تصبح بمثابة أكذوبة تحاول التشكيك في عقيدة المجتمع وتستهدف ضعضعة قناعاته الراسخة وتقويض قيمه ونظام حياته، والإساءة عن عمدٍ لرجاله. وبالتدريج، تصبح الحقيقة في أعين الناس وهماً، ويصبح الوهم المؤسس على الاسطورة والخرافة هو الحقيقة، ويغدو المدافعون عن الحقيقة ضالّين ومروجين لأكاذيب ودعايات مغرضة، هدفهم هدم وحدة المجتمع وتقويض المكانة الاجتماعية لزعمائه من قادة تقليديين وعقائديين. وهذا يجعل الحقيقة ومن يحمل لواءها يشكلٍّ خطراً على وحدة المجتمع وتجانسه، ويعمل على جرِّ الناس بعيدا عن معتقداتهم

وقناعاتهم وقيمهم الراسخة، ويقوم بتشجيعهم على إتباع سلوكيات واتخاذ مواقف تتناقض مع مصالحهم وتقاليدهم وعاداتهم المتجذرة في النفوس وفي بنية المجتمع وثقافته المتوارثة عبر أجيال.

لم تمض أسابيع كثيرة بعد فشل مجذوب في استعادة مصداقيته بين الناس حتى شعر بأن حياته قد دُمرت بالكامل، وأن آماله وأحلامه قد تحطمت على سطح منزله وشطآن بحيرته الساحرة. وهذا جعله يفكر جدياً في إنهاء حياته، لأن الموت أصبح في عينه أفضل بكثير من العيش وحيداً ومنبوذاً في مجتمع يحبه، وعلى أرض يعشقها ويعشق أهلها، وبين أقارب وأصدقاء لم يعد قادراً على التواصل معهم. وفي الواقع، أصبح حب مجذوب للمغاوير وأصدقائه في عتره حباً من طرف واحد، يعيش نهاره مغترباً في وطنه، ويعيش ليله حنيناً لأيام تركته محطماً ومضت في سبيلها دون أن تلتفت خلفها، كما أصبح عشقه للأرض خفقات قلب مضطربٍ ومرتبكٍ، لا يعرف الفرق بين الفرح والحزن، بين الأمل وخيبة الأمل.

ولكن قبل أن يتخذ قراراً حاسماً بالنسبة لخيار الهروب من الواقع بإنهاء حياته، قرر مجذوب القيام بزيارة أخيرة لجزيرة السلام، يستمتع بالراحة والهدوء في كنفها، يودّع أغنامه وكلابه التي لم يرها منذ سنة تقريباً، ويتأمّل في معنى الحياة وأسرار الكون. لم يكن لديه مانع من الموت في الجزيرة، لكنه كان يخاف أن يموت دون أن يجد من يدفنه، وتستولي الذئاب على جثته وتقوم بالتمثيل بها. ركب مجذوب قاربه الصغير في فجر أحد الأيام، وقاده عبر البحيرة دون أن يخبر أحداً بوجهة سفره، أو بمدة غيابه عن بيته ومدينته. وما أن وطأت قدمه شاطئ الجزيرة ورأت عيناه أزهارها عن بعدٍ حتى شعر أنه مهاجرٌ

غاب عن وطنه طويلاً. غاب عن مكانه وأهله وأصدقائه بلا سبب. ولم تمض لحظاتٌ حتى كانت الكلاب قد التفّت من حوله، تقفز فوق كتفيه وتلحس يديه ورجليه كأنها تقبلها، وهرعت الأغنام فرحةً بقدومه، تجلس أمامه في خشوع كأنها تطلب منه أن يسعدها بشرب حليبها، وتراقصت الأزهار أمام عينيه، وغردت الطيور احتفاءً به. وهذا دفعه لقضاء ثلاثة أشهرٍ كاملةٍمع الأغنام والطبيعة والأزهار والطيور، حيث نصب خيمته بالقرب من نبع الماء الصافي الذي اكتشفه في رحلته الأخيرة، واستخدمها كديوانية يلتقي فيها خلال ساعات النهار واشتداد الحرارة بكلابه وأغنامه وقطيه. كان ينام ليله في مغارة قريبة، يتغذى على حليب أغنامه وأسماك جزيرته، ويقضي يومه يلاحق الكلاب، يواعد الطيور، ويداعب الفراشات.

وفي جزيرة السلام الوديعة، اكتشف مجذوب أن الحب يولد في العين قبل أن يعشش في القلب ويتسرب منه إلى الوجدان، وقبل أن يتحول إلى إحساسٍ يعيش على شفاه الأحبة قبُلاً مثيرةً تنعش الروح. كما اكتشف أيضاً أن العشق يستمد روحه من الطبيعة كما يستمدها من البشر، وأن الوحدة هي مصدر إلهام يزيد الروح نشوةً، والحب شفافيةً، والعشق عمقاً، والحياة عطاءً. لذلكَ قرر أن يعيش حياته كاملة، يحب من يبادله الحب من الناس فقط، ويعشق ما يحلو له من ألوانٍ وعجائب وأزهارٍ وطيورٍ وحيواناتٍ وأمكنةٍ وطبيعةٍ.. نعم إن الناس خانوه، لكن الطبيعة لم تخنه، والحب لم يفارق قلبه، والعشق لا زال يبعث الدفء في شرايينه، يبدد الغيوم التي تحول دون رؤية السماء بصفائها وزرقتها، وينير الطريق أمامه في ظلمات الليل الموحشة. ولهذا قرر مجذوب أن يعيش حياته كما يحلو له بغض النظر عما يقوله أو يفعله الغير، وأن

يعود للجزيرة باستمرار وكلما شعر بالشوق لأغنامه وكلابه، وكلما حنَّ لشواطئ جزيرته ومياهها العذبة وطيورها التي تهوى الغناء والرقص على الأغصان.

أثناء غياب مجذوب في جزيرة السلام، تكاثرت الأقاويل، وفرّخت الخرافات والإشاعات القديمة جيلاً جديداً، ادّعى المروجون لها أن مجذوب أصبح ساحراً يختفي متى شاء ويظهر متى شاء، ويستطيع بالتالي أن يفعل ما يشاء. نتيجةً لذلك بدأ المجتمع ينظر إلى مجذوب باعتباره معجزةً تملك قوة خارقة، في مقدورها مساعدة الغير وإلحاق الضرر بهم في آنٍ واحد، مما دفع البعض إلى العمل على كسب وده وتجنب غضبه، ودفع آخرين إلى الابتعاد عنه وتجنبِ الاحتكاك به. ودون وعي أو تخطيط مسبق، وجد مجذوب نفسه يتقمص الشخصية التي شكلتها الإشاعات له، يساير الناس في أهوائهم وتخيلاتهم، ويقوم عن غير قصدٍ بتكريس الخرافة والأسطورة والوهم في أذهانهم، ويساهم من حيث لا يدري في نشر أعمال السحر والشعوذة في بلادهم وتوطينها في تقاليدهم.

وحين أيقن أنه لن يكون بإمكانه العيش حياةً عاديةً، قرر أن يلعب دور الساحر في مجتمع الكراميد، مع الالتزام أمام نفسه وضميره بأن يسخر دوره المجتمعي الجديد لخدمة الناس والمجتمع، وأن يتبرع بكل ما يكسبه من مال لمساعدة الفقراء والمحتاجين من أبناء الكراميد. واستعداداً للقيام بالدور المطلوب منه، شنَّ مجذوب حملةً دعائيةً واسعةً، بدأت بنشر إشاعة جديدة تقول أن آلهةً عجيبة الشكل، عظيمة القدرات، اختطفته من البيت العام بعد أن مات، ونقلته إلى مكان غريب تحت الأرض، وهناك أعادوه إلى الحياة من جديد، وأطلعوه على الكثير

من أسرار الحياة والكون وعالم المجهول، وكلفوه أن يعود إلى عتره ليهدي الناس إلى عمل الخير والمحبة نيابة عنهم. ولهذا طلب مجذوب من الناس إطاعة أوامره باعتباره ممثلاً لتلك الآلهة لدى الكراميد، وهدد بإنزال عقوبات شديدة بكل من يعصي أوامره أو يعتدي على سلطاته أو يشكك في أقواله.

وبعد أن انتشرت الإشاعة في عتره والقرى المجاورة لها، أثارت غريزة حب الاستطلاع لدى الناس رغبةًجامحةً في سماع المزيد من التفاصيل. وهذا شجع مجذوب على الدعوة لاجتماع عام في ساحة القرية، حيث خاطب الحاضرين بحماسٍ كبيرٍ كأنه يؤمنٌ بما يّدعي به، وقال أشياء كثيرة لم يسمعوا مثلها من قبل، كان من بينها قوله: لقد أخذوني في رحلة جميلة ولكن مخيفة، قابلت خلالها آلهةً عظيمةً ذات جبروت، تعيش تحت سطح الماء في البحيرة، بين هذا الشاطئ والشاطئ الآخر الذي تسكنه الشياطين والعمالقة ويحكمه الأشباح والقرود، وأطلعوني على أحوال أناسٍ كثيرين من أجدادنا، كان بعضهم ينعم بحياة رغدٍ وسعادة لا مثيل لها على هذه الأرض، وآخرين عُراةٍ يتعذبون وقد قطعت أياديهم، أو أرجلهم، أو ألسنتهم.. إن الآلهة التي قابلتها وتعرفت عليها لا ترحم، لقد أرسلت لنا الطوفان قبل مئات السنين، وإنها اليوم غاضبةٌ علينا لأننا لا نصغي لما تقول، وهذا يعني أننا في الطريق إلى الهلاك، وذلك بسبب انتشار عادات الجشع والاستغلال والغيرة والحسد والأنانية التي أصبحت تسيطر على عقولنا وضمائرنا.. إن علينا أن نتحاشى غضب الآلهة، وأن نعمل على حماية أنفسنا مما قد توقعه بنا من عذاب ومصائب، وذلك بالعمل على إرضاءها وإطاعة أوامرها. وإنني أعدكم، إذا سمعتم نصيحتي وفعلتم

ما أشير به عليكم، أن أكون خير ممثلٍ لكم عندها، أطلب منها العطف والرحمة وإبعاد الشياطين عن بلادنا، واحمل لها رغباتكم وآمالكم كي تحققها لكم. وهكذا، تحول مجذوب في أعين الناس من إنسان بسيطٍ طيب القلب، إلى ساحرٍ جبارٍ في مقدوره التواصل مع الآلهة والشياطين، ومساعدة المرضى والمحتاجين، ومعاقبة الحاسدين والجاحدين. وهذا فرض على مجذوب ابن مهبوب امتهان تخطيط الطلاسم دون حروف طبعاً، وممارسة بعض ما يقوم به السحرة والدجالون عادة من أعمالٍ وحركاتٍ بهلوانية وشعوذة.

استمع الكراميد بشغفٍ كبيرٍ لقصة مجذوب حتى آخرها، وهذا قادهم إلى الشعور بالخوف، والانصراف إلى التفكير في كيفية إرضاء الآلهة وحماية أنفسهم من احتمالات غضبها عليهم. وفي ضوء ما قاله مجذوب، لم يجد الناس سوى الخرافات والأساطير القديمة علماً يلجئون إليه ليفهموا ما يجري حولهم، وأعمال السحر والشعوذة وسيلةً لتأمين حياتهم من المجهول وحمايتها من غضب الآلهة. وهذا تسبب في إضعاف قدرة الناس، خاصةً العامة منه، على التفكير ومقاومة ما ينسجم مع العقل خوفاً من العقاب، وفتح المجال في الوقت ذاته واسعاً أمام دعاة الاتكالية والأفكار الغيبية والسحرة والمشعوذين والنّصابين لممارسة نشاطاتهم دون رقيب، واستغلال ضعف الناس والهيمنة عليهم. وفي الواقع، أصبحت الخرافات والأساطير هي المرجع الذي يرجع إليه فكر العصر ومفكروه، وأصبحت أعمال السحر هي الأداة التكنولوجية الوحيدة المتوفرة لديهم للتعامل مع تعقيدات حياتهم ومخاوف عصرهم. إلا أن دعاة ذلك الفكر الخرافي لم يتركوا الناس عند تلك النقطة بل اخترعوا لهم آلهةً جديدةً في مقدورها حمايتهم

من الشرور والوقوف في وجه آلهة مجذوب التي وصفوها بالشياطين، وأقاموا لتلك الآلهة الجديدة بيوتاً خاصةً وطلبوا من الناس التعبد في بيوتها وتقديم القرابين لها.

مما لا شك فيه أن مجذوب حاول أن يوظِّف ما منحه المجتمع من صفات ومكانة غير عادية في خدمة عامة الناس وتحسين ظروف الحياة في المجتمع، إلا أنه تسبب، ومن حيث لا يدري، في جعل أعمال السحر والشعوذة نشاطات مشروعةً، بل علماً يحلُّ المشاكل المستعصية على الناس كما تخيله البسطاء، ومهنةً للكسب المادي بالنسبة للنصابين والمحتالين، وأداةً فعالةً للهيمنة على العامة وإحكام السيطرة على عواطفهم ومشاعرهم وحياتهم. وهكذا فُتِح الباب على مصراعيه لدخول العشرات من الدجالين الجدد مجال السحر والشعوذة، حيث وجدوا أن الفرصة سانحةً للقيام باستغلال ضعف الناس وخوفهم، وتقديم خدماتهم للغير، خاصة للقوى المهيمنة على المجتمع ومقدراته، ومشاركتهم عمليات استغلال المواطنين والحصول على المزيد من الثروات، وتعميق تخُّلف المجتمع وخنوع الشعب. وحين أدرك مجذوب ما آلت إليه الأمور على يديه وبسببه، شعر بالندم على فعلته، وأيقن أن الكذب لا يمكن أن يخدم هدفاً نبيلاً حتى وإن كانت نية القائمين عليه تتوخى خدمة البسطاء من الناس. كما أيقن أيضاً أن الانخراط في أعمال السحر والشعوذة والترويج لها من شأنه أن يحَّول الناس إلى قطيعٍ من الغنم يعتمدون على الغير وتابعين لكل دجالٍ في مقدوره غوايتهم أو تخويفهم، وبالتالي قتل روح الإبداع الفردي وتقويض حيوية المجتمع ودفع الناس نحو التواكل. في ضوء تلك الاستنتاجات المحبطة للآمال، قرر مجذوب أن يهجر بلاد الكراميد إلى الأبد، وأن يذهب إلى

جزيرته المفضلة، جزيرة السلام، وأن يتفرغ للتفكير والتأمُّل، حيث عاش فيها مع أغنامه وكلابه وقططه حتى غادرته الروح بعد عمر طويل، وتركت الجسد يحكي بعض تفاصيل حكاية مجذوب. مات مجذوب في الوطن الذي اختاره لنفسه بعد أن أجبرته ظروف الجهل وقسوة الجهالة وأخطاؤه على هجر مجتمعه ووطنه.. مات دون أن يكفنه أحد، ودون أن يتمتم على رأسه ساحرٌ أو جاهلٌ، ودون أن يدفنه إنسان، ودون أن يرثيه شاعر.

لم يكن مجذوب يعرف القراءة أو الكتابة، شأنه في ذلك شأن بقية الكراميد، لكنه كان يعي أهمية تدوين رحلته وتجربته الحياتية في جزيرة السلام، ولذلك قام برسم مشاعره ونحتها على جدران المغارة التي اتخذها مسكناً له خلال فترة حياته في تلك الجزيرة. وحين تجرأ الناس على دخول جزيرة الأشباح بعد حوالي خمسة قرون من اختفاء مجذوب، وجدوا جثته هناك وقد تحولت إلى هيكل عظمي، كما وجدوا ما كان قد نحته على حائط مغارته من رسومات وأشكال. وفي الواقع، كانت الكلاب التي توارثت مهمة حماية مجذوب وحراسة مغارته من الحيوانات المفترسة، هي التي قادت القادمين الجدد إلى المغارة، وساعدتهم على اكتشاف جثة سيدها، وكأنها تطلب منهم وتتمنى عليهم دفن الجثة وحمايتها من التآكل والفناء، وذلك بعد أن أدت مهمتها كاملةً في تسجيل ملحمة تاريخية لعبت الكلاب والقطط والأغنام فيها دوراً بطولياً لا يزال عزيزاً على الإنسان.

وبعد تحليل تلك الرسومات، اكتشف الناس أن مجذوب عاش في الجزيرة حوالي سبعين عاماً، وقام بزرع آلاف الأشجار من الزيتون والتين والعنب، وأنه كان يتغذى على حليب أغنامه، وزيت وزيتون أشجاره، وما كان يصطاده من أسماك ويجمعه من فواكه وخضراوات

وأعشاب وثمار موسمية. وفي إحدى الرسومات، رأى الناس شيئاً أدهشهم حقاً، بل أذهلهم.. لقد شاهدوا مجذوب مستلقياً على ظهره تحت غنمة مرضعة، وقد تدلى ثدييها فوق رأسه، مما أعطى الانطباع بأن الأغنام واظبت على الاعتناء به وإمداده بالحليب حتى بعد أن أدركته الشيخوخة ولم يعد قادراً على ترك مغارته. كما شاهدوا في إحدى الرسومات الأخرى نحوتاً لقطط تلحس جسده المتهالك كي يبقى نظيفاً وسليماً من الأمراض، وكلاباً تتناوب على حراسة مغارته وحمايتها. نعم.. كان من الواضح أن الكلاب لم تفارق مغارته أبداً، حيث تناوبت على حمايتها ليلاً نهاراً، وتوارث الأبناء عن الآباء تلك المهمة حتى اكتشاف جثمان مجذوب ابن مهبوب بعد قرون.

خلال عقود قليلة من اختفاء مجذوب كانت أعمال السحر والشعوذة والدجل قد أخذت مكانة العلم في مدينة عتره، وغدا السحرة والمشعوذون قادة مجتمع، يستحوذون على احترام الناس، ليس تقديراً لهم على خدماتهم فقط، بل وخوفاً مما اعتقد الناس أن بإمكانهم أن يفعلوا بهم. وانسجاماً مع المنطق الخرافي والتأويلات التآمرية، اقتنعت غالبية الناس أن الطوفان جاء بسبب غضب الآلهة عليهم، وقيامها بالتآمر مع نهر سراد ضدهم، وإرسال الفيضانات التي أدت إلى إبادة معظمهم وتدمير بيوتهم وقراهم، وذلك بهدف تلقينهم درساً لا ينسى. ولقد كان من النتائج الهامة التي ترسخت في عقول الناس بسبب تلك القناعة، ارتقاء المكانة الاجتماعية للسحرة والمشعوذين والعقائديين، وشيوع قصص الرعب عن مخلوقات غريبة ومخيفة، مثل العمالقة والأشباح والشياطين وتداولها بين الناس على نطاق واسع، والتوجه نحو إقامة تماثيل وبيوت للآلهة الجديدة، والعمل على إرضائها، وإطاعة أوامرها، وتقديم القرابين لها.

ومن أجل إرضاء نهر سراد المقدس وتجنُّب غضب الآلهة مجدداً، قررّ شيوخ البلاد تقديم فتاة جميلة للنهر كل عام في بدايات فصل الربيع، تكون عروساً له، آملين أن تكون شيئاً يسعده ويبعده عنهم. وما أن نطق أحد شيوخ العشائر بتلك العبارة، «يُسعده ويُبعده» حين رموا أولى ضحاياهم في نهر سراد المقدس، حتى غدت قولاً مأثوراً يتداوله الناس. ولقد تبع ذلك ترجمة تلك «الحكمة» إلى تقليد مجتمعي استوجب قيام الناس بالعمل على إرضاء من لا يحبون، أو بالأخرى رشوتهم بتقديم ما يشتهون، أو ما يتخيل الناس أنهم يشتهون من مال أو جنس أو غير ذلك من خدمات. وبتشجيع من السحرة والمشعوذين والجهلة المتزمتين، قام الناس بتشييد معبد كبير ومهيب على شاطئ النهر بالقرب من بحيرة البهاليل، ووضعوا فيه تماثيل لآلهة تخّيلوها وقام فنّانوا البلاد بنحتها، حيث تم توزيعها على زوايا المعبد المختلفة. وهذا تسبب بدوره في إرساء تقليد جديد، يقوم الناس بموجبه، خاصة المؤمنون والجهلاء والبسطاء منهم، بزيارة المعبد بشكل منتظم، والتقرب من الآلهة من خلال تقبيل التماثيل التي تجسدها، وتقديم القرابين لها في المناسبات الشعبية.

وبعد أن استقرت التقاليد الجديدة في المجتمع واكتسبت قدراً كافياً من الهيبة، قرر حماة المعابد، أي السحرة الذين تحولوا إلى كهنة مع الأيام أن يكون يوم تقديم القرابين للنهر المقدس عيداً وطنيا للمغاوير، يقوم الناس فيه بالاستحمام جماعةً في مياه النهر ، وغسل ذنوبهم، وتنقية أرواحهم من كل ما شابها في العام المنصرم من شوائب وسلوكيات تخالف العادات والتقاليد وأوامر الآلهة. وهذا شجع الطيبين من الناس على النظر إلى «عيد النقاء» والاغتسال في ماء النهر المقدس باعتباره فرصةً لبدء صفحة جديدة من العيش حياةً مسالمةً سويةً، يقومون من خلالها بإطاعة أوامر الآلهة وحماة بيوتها من الكهنة، ومساعدة الغير

من المحتاجين، والتعاطف مع الفقراء والمساكين، والتعامل مع بقية الناس بصدقٍ وأمانة. وفي المقابل، وَعْدَ الكهنة الأشرار من الناس وغير الملتزمين منهم بالتقاليد بعذابٍ ليس بعده عذاب بعد الموت، وبغفرانٍ كامل اذا قاموا بالامتثال لتلك التقاليد، وبحياةٍ جديدة تلغي ما كان قد اقترفوه سابقاً من أخطاء وجرائم بحق الغير. لكن الانصياع لأوامر وإرشادات ونصائح الكهنة، أسّس لعهدٍ جديدٍ من الجهالة، ومرحلة جديدة من الجشع والخداع والكذب والنفاق سعيا لتحقيق مصالح خاصة لا تتحقق إلا على حساب الغير، وعلى حساب العدالة والحرية في المجتمع، وعلى أنقاض منطق العلم والعقل.

إن الحرية، ومهما كانت قويةً فهي ضعيفةٌ في وجه التحديات العقائدية والتقاليد والعادات الموغلة في القدم، وعاجزةٌ عن مقاومة الإشاعات القائمة على نظرية المؤامرة والأساطير والخرافات المتوارثة عبر العصور والأجيال. ويعود السبب في ضعف الحرية إلى عدم قدرتها على تطوير وامتلاك نظرية عقائدية ونظرة شمولية قادرة على مقاومة محاولات الاعتداء عليها والحّد من قدرتها على تحقيق ذاتها. إن قوة الحرية الوحيدة هي في مواجهة الظلم والظالمين والفساد والفاسدين والمفسدين، وليس في مواجهة العقيدة والعقائديين.. إن المجتمع الذي يتمتع بالحرية هو بطبيعته مجتمعٌ مفتوحٌ.. مفتوحٌ لتوغُّل الأفكار المختلفة والمتناقضة على السواء، للعقلانية وللشعوذة بلا تفرقة، وللنظريات العلمية والخرافية والتآمرية التي دون تمييز. ولهذا، نلاحظ أن من السهل على الإشاعات والإيديولوجيات المغرضة أن تتغلغل في البنية الفكرية للمجتمعات المفتوحة التي تنعم بالحرية، لأن حرية الاختيار هي أساس الحرية الفردية والجماعية، وأهم دعائم المجتمع المفتوح. وهذا يعني أن الحرية لا تستطيع أن تحمي كل أفراد

المجتمع الحر من المحتالين والدجالين والمغتصبين، ولا أن تحول دون جِّر البعض إلى الإيمان بما ليس فيه خير لهم، خاصة السذج والجهلاء من الناس. لذلك، بينما يسهل على الفلسفات الحياتية والأفكار العقائدية المختلفة والإشاعات والخرافات التسلل إلى المجتمعات الحرة والتغلغل فيها، يصعب على الأفكار العلمية الجديدة، بغض النظر عن طبيعتها وعقلانيتها وأهدافها الإنسانية، أن تتسلل إلى المجتمعات العقائدية والتقليدية المغلقة، وخلق تيار فكري مناهض في داخلها.

المجتمعات الحرة هي مجتمعاتٌ مفتوحةٌ بطبيعتها وفكرها ومواقفها ونظرتها للغير وممارساتها على أرض الواقع، والمجتمعات العقائدية هي مجتمعاتٌ مغلقةٌ بتكويناتها البنيوية وتوجهاتها الفكرية وقيّمها التي لا تقبل التأويل، ومواقفها الثقافية الجامدة. وحيث ينتشر العلم وتسود العقلانية وتزدهر الحرية في المجتمع، يكون من الصعب على الأفكار التواكلية والنظريات التآمرية التغرير بغالبية الناس، وإقناعهم بصحة الإيمان بخرافات وأساطير شعبية موغلة في القدم. وإذا كان في مقدور العلم أن يحمي المتعلمين من أعمال السحر والشعوذة والخرافات، وأن من طبيعة الحرية أن تحمي المجتمع من الظلم والظالمين والفساد والفاسدين، فإن من خصوصيات العقيدة الصلبة أن تحمي الجهلاء والبسطاء من عقلانية العلم، وتحديات الفكر، ومتعة السعادة، ونشوة الحياة، وبهجة الحرية، والسعي للحصول على المتعة دون خوفٍ أو ندمٍ.

كان من الأمور الأخرى التي قام السحرة بالترويج لها وساعد الكهنة على تأكيدها وتعميمها بين الناس في بلاد الكراميد الإدعاء بأن الأراضي الواقعة على الجانب الآخر من النهر والبحيرة هي مناطق خطرةٌ وأراضٍ محرمةٌ لا يُسمح لإنسان بدخولها على الإطلاق. إذ ادعى

الكهنة أن تلك المناطق هي وطن الأشباح والشياطين، وأن دخولها يعتبر اعتداءً على أصحابها وإزعاجاً لهم، مما قد يتسبب في إيقاظهم من نومهم وإثارة غضبهم وسخطهم، وهذا من شأنه أن يدفعهم إلى الاعتداء على البلاد وقتل العباد. أما الجبال الشاهقة الواقعة على ذلك الجانب، والتي كانت قمم بعضها تناطح السحاب وتغطيها الثلوج طوال العام، فقد أصبحت في نظر الناس مغارات كبيرةً تسكنها الأشباح، ويعيش على سفوحها الشياطين، ويحكمها العمالقة من الجن.. أولئك الشريرون الذين قرروا أن يحّولوا كل شخص يتجرأ على دخول بلادهم والاعتداء على حرمتها إلى إنسانٍ بائسٍ، يبكي عمره حزيناً، دون أن يتعرف عليه أحد من ذويه، ودون أن يهتدي إلى مكانٍ آمنٍ يستقر فيه، وذلك كما حدث مع مجذوب ابن مهبوب.

ومن أشهر قصص الرعب التي اخترعها خيال المغارير ذات العلاقة ببحيرة البهاليل في حينه، قصة «الغولة» و«أبو رجل مسلوخة» التي اُستخدمت لتخويف الأطفال وإدخال الرعب إلى قلوبهم. وتقول حكاية الغولة على سبيل المثال، أن تلك المخلوقة العجيبة القبيحة ذات الرأس الكبير والشعر المنفوش تنام طوال النهار، وتخرج في الليل لتعتدي على الأطفال الذين يَعْصون أوامر أمهاتهم ولا ينامون في الوقت المحدد. ومن بلاد الكراميد، انتقلت حكاية الغولة وغيرها من حكايات الرعب بعد قرون وعصور إلى البلاد المجاورة والبعيدة، حيث تطورت عبر العهود المختلفة وتوالي السنين إلى قناعات مترسخة في الوعي الشعبي العام. إذ أن انتشار الجهل في بلاد الكرامِيد، وهيمنة الإيمان بقدسية الكثير من التقاليد والقيم والمعتقدات والعادات حال دون قيام العقل المفكر بتحدي تلك الخرافات، والعمل على تعريتها وكشف زيفها، وتحليل مدى ما تسببه للأطفال من مآسٍ يوميةٍوعقدٍ نفسيةٍ. وهكذا،

أصبحت حكاية الغولة ومثيلاتها من حكايات الرعب الغريبة والعجيبة تشكل جزءاً هاماً من التراث الشعبي العام، ومكوناً أساسياً من الثقافة الشعبية السائدة، وعنصرا من عناصرًاالحكمة المألوفة في البلاد المتخلفة التي وصلت إليها.

نتيجة لذلك، بدأ الرعب ينتشر بين الناس في عتره، وبدأت الكوابيس تزور الكثير منهم كل ليلة، وتتسبب في اختلاق المزيد من الخرافات والمخلوقات العجيبة وقصص الرعب الجديدة. ومع انتشار الخرافات، وشيوع الإشاعات، وتفشي الإحساس بالعجز أمام جبروت الآلهة وعنفوان النهر، انتشرت الإتكالية، وتسارعت وتيرة التخلُّف في بلاد الكراميد، مؤديةً بذلك إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية، وتقلُّص الحريات العامة، وتراجع النشاطات الثقافية، وجمود نظم القيم والعادات. وهذا كان من شأنه القضاء على حركة النقد والفكر الخلاق، حيث أصبح من الصعب على أي إنسانٍ التشكيك في قدرات الآلهة، أو توجيه النقد للمدافعين عن التراث والمتمسكين بالتقاليد والأعراف العشائرية، أو محاسبة المسئولين من قادة المجتمع، أو مساءلة العقائديين والكهنة. وبعد عقودٍ من سيطرة المشعوذين والمتزمتين والكهنة على حياة المجتمع، توقفت عملية التقدم، وتفشت الأمراض بين الناس، وانتشر الفساد في البلاد، وتزايدت أعداد الفقراء والبؤساء. ونتيجة لذلك غدا العلم، وكل ما ارتبط به وانبثق عنه من آراءٍ فكريةٍ ومواقف مجتمعيةٍ وتخيلاتٍ فنيةٍ ضحيةً من ضحايا الجهالة وجمود التقاليد وضحالة العقل.

الصحوة والردة

كان المرور بتجربة الطوفان العظيم درساً هاماً علّم ذوي العقل من الناجين من الكراميد أن بناء البيوت وإقامة التجمعات السكنية بالقرب من مجرى النهر يشكّل مغامرةً لا تحمد عُقباها. وهذا قادهم، مدفوعين بحسٍ غريزي لتأمين وجودهم وتحسين فرص حياتهم، إلى إقامة قراهم وبناء بيوتهم الجديدة في أماكن مرتفعة على رؤوس التلال، بعيداً عن شواطئ النهر والبحيرة بمئات الأمتار، حيث تركوا الأماكن القريبة من الشاطئ للطيور والزهور والنباتات. وهذا جعل تلك الأماكن تغدو بسرعة ودون تخطيط مسبق حدائق عامة للتنزه، ومحميات طبيعية للطيور والأزهار وبعض الحيوانات البرية مثل الأرانب والبط والغزلان، يتمتع الناس بالتردد إليها في أوقات فراغهم، ويلجأ المفكرون والفنانون إليها عند الإحساس بالحاجة لقضاء وقتٍ هادئ مع الطبيعة للتأمل والتفكر في أحوال الكون الذي يكتنفهم، أو لخلوة تصفو فيها نفوسهم، ويدق الإلهام أبواب قلوبهم، وتصحو معها أحلامهم. لكن ما حدث لمجذوب ابن مهبوب، وما ترتب على حكايته ومغامراته من تطورات متلاحقة، تسبَّب في تغيير مجرى حياة الكراميد والإسراع في عملية التدهور المجتمعي، فكراً، وقيماً، وسلوكيات، وأوضاعاً معيشيةً.

وحين مرت بضعة قرون دون وقوع فيضان مدمرٍ كسابقه في البلاد، وكان عدد الكراميد في حينه قد تجاوز ربع مليون إنسان، بدأ البعض من الناس يتساءل عن واقعية الحكمة المألوفة، والتشكيك في بعض مكونات الثقافة الشعبية السائدة، والمطالبة بالتجديد والتخلي عن تقاليد العهود الماضوية التي تجاوزها الزمن. ومن العادات التي

انتقدها دعاة التغيير بعنف وطالبوا بتغييرها عادة تقديم القرابين لما هو مقدس، خاصة للآلهة ونهر سراد، وأعمال السحر والشعوذة التي استهدفت استغلال جهل الفقراء والبؤساء وخداعهم والاستيلاء على ما لديهم من مالٍ قليل. لكن أفكار ومطالب دعاة التغيير استقبلت بالرفض الشديد من قبل المؤسسة الحاكمة ومجاميع الكهنة والزعامات التقليدية التي خافت على مواقعها المجتمعية من التآكل. أما الغالبية العظمى من الناس، وبسبب عجزها عن وعي واقعها وأهداف حركة التغيير، وعدم قدرتها على إدراك عمق ما تعيشه من تخلّف حضاري، لم تُبالِ كثيراً بما كان يدور حولها من صراع فكري وتحولٍ اجتماعي وتململٍ ثقافي وسياسي. ولقد نتج عن تلك التطورات حدوث تمحور فكري ووتفتُّت ثقافي وتمزق مجتمعي، أدى مع استمرار عملية التشكيك والتشكيك المضاد بين أتباع تياري التجديد والتقليد إلى إضعاف الهوية الوطنية والوحدة المجتمعية بشكل عام، ودخول مجتمع الكراميد في أزمة مجتمعية شاملة وطاحنة.

لم تمضِ عشرونَ سنةً على بدء الصحوة حتى تبلور في مجتمع الكراميد تياران فكريان - اجتماعيان متناقضان ومتنافسان في آنٍ واحد، حاول كل منهما الهيمنة على المجتمع وقيادته للسير في الاتجاه الذي كان يُنَظر له ويدافع عنه وينادي بإتباعه. إذ كان دعاة التغيير قد بدأوا في تطوير سلوكياتهم ومظاهر حياتهم، وتغيير مواقفهم من الطقوس الاجتماعية التقليدية والتعبدية، وذلك تعبيراً عن رفضهم لما كان قائماً وسائداً في عادات وتقاليدٍ وأعرافٍ ومواقف. ودون استشارة أي من قادة أو أتباع التيارين، أطلق الناس على التيار الأول اسم «تيار التجديد» وذلك بسبب توجههم نحو التجديد بعيداً عن التقليد، واسم

«تيار التقليد» على أتباع التيار الثاني، وذلك بسبب تمسكهم بالأصول والأعراف والتقاليد المتجذرة في الحياة الاجتماعية العامة. ومع تبلور تلك التسميات والمواقف، تبلورت قياداتها الفكرية بسرعة، حيث تولى جلهود ابن مشهود زعامة تيار التجديد، وتولى مرعود ابن مفسود زعامة تيار التقليد.

كان جلهود واحداً من أربعة عشر طفلا أنجبتهم أمه، إلا أن كثرة الأمراض المتوطّنة في بلاد الكراميد في حينه، وانعدام الوعي الصحي بين الناس تقريباً، وتكرُّر المجاعات وأزمات الغذاء نتيجة للتخلف تسببت في موت أخوته وأخواته جميعاً، تاركين جلهود وحيداً بدون أخ أو أخت، أو أب أو أم. وحين تولى زعامة تيار التجديد، كان جلهود شاباً في الثلاثين من العمر، يعيش بمفرده بعد أن ماتت زوجته الشابة نتيجة لإصابتها بحالة تسمم، ولم يكن قد مضى على زواجه منها شهراً واحداً. عاش جلهود ابن مشهود، الإنسانُ الحساسُ ذو المشاعر الرقيقة الفياضة، حياته حزيناً على فراق زوجته ومن مات قبلها من أهله وأقاربه وأصدقائه وجيرانه، وعلى من سيموت من الأطفال لاحقاً دون ذنب قبل أن يتذوقوا حلاوة الحياة أو يعرفوا مُرَّ المعاناة. لذلك قرر جلهود عدم تكرار تجربة الزواج من أجل تجنب المزيد من الأحزان، وعاش قدراً كبيراً من حياته مع أتباعه وبرفقة كلبه شهمان. لكن جلهود وجد نفسه يدرس ظاهرة الموت المبكر بين الناس، ويقوم بمتابعة تطور أعداد الموتى بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، وهذا ساعده على تحديد مسار عمليات الوفاة وأسباب تصاعد أعداد الوفيات في بعض الأعوام وتراجعها في أعوام أخرى. وبعد عدة محاولات لشرح الظاهرة لرفاقه دون نجاح ملحوظ، اخترع جلهود طريقةً احصائيةً كانت عبارةً عن رسومات بيانيّةً بأشكال

هرمية تبيِّن تطور أعداد الموتى بين سنة وأخرى وبين طبقة اجتماعية وأخرى، مع ربط ذلك بهطول الأمطار وتقلُّبات المواسم الزراعية.

وحين اشتدت الخلافات بين فريقي التجديد والتقليد، اتفق الطرفان على عقد مؤتمر شعبي عام، تُدعى إليه كافة جموع الشعب، وتُطرح على مسمعهم وأمامهم قضية التراث وتركته وتبعاتها، أي إشكالية الأصالة والحداثة برمتها، وذلك من خلال مبارزة مفتوحة بين ممثلي الفريقين. اختار دعاة التجديد زعيمهم جلهود لتمثيلهم في المبارزة، بينما اختار دعاة التقليد زعيمهم الشيخ مرعود لينوب عنهم. وفي اليوم المحدد، تجمَّع الناس أمام معبد الآلهة على شاطئ نهر سراد المقدس، وجلسوا على الأرض في ظل القمر، وحضر زعيما الفريقين استعداداً للمبارزة. وقف الشيخ مرعود ابن مفسود على يمين المنصة، ووقف خلفه حوالي المائة من أتباعه المخلصين، بينما وقف جلهود ابن مشهود على يسار المنصة، ووقف خلفه كل أتباعه الذين لم يتجاوز عددهم الخمسين شخصاً. كان على جلهود، بصفته زعيم الفريق المعارض الذي يطرح أفكاراً جديدة تتحدى التقاليد المتوارثة والمعتقدات السائدة والحكمة المألوفة، بل وقدسية الآلهة والنهر أيضاً، أن يبدأ الحديث، وأن يطرح وجهة نظره وآرائه وأفكاره أمام الناس فيما يتعلق بإشكالية الأصالة والحداثة.

وبعد أن نظر طويلاً إلى الجمهور الواقف أمامه، بدأ جلهود حديثه قائلاً:

- إن العادات والتقاليد التي نشأنا عليها وتربينا على محبتها هي جزءٌ منا ومن هويتنا الوطنية، نحبها ونحترمها وستعيش معنا على مدى الدهر كجزءٍ لا يتجزأ من تراثنا الغالي. لقد صنعها أجدادنا

الأوائل وطوروها على مدى آلاف السنين لاستكمال بنية مجتمعهم البدائي وتشكيل ثقافته، ومن اجل التعامل بكفاءة مع ظروف بيئتهم الطبيعية والاجتماعية التي عاشوا في كنفها طويلاً ولم يكن بإمكانهم تغييرها. لكن تلك الظروف تغيرت بحكم عملية التطور المجتمعي التي تلت وقوع الطوفان، ونتيجةً لفكر أجدادنا الخلاَّق ومثابرتهم على تطويع تلك الظروف الحياتية القاسية لإرادتهم، وهذا تسبب بدوره في جعل العادات والتقاليد والأعراف والمواقف القديمة غير صالحة للتعامل مع الظروف المستجدة. لذا أصبح لزاماً علينا، وقد تجاوز الزمن مكونات ثقافتنا التقليدية، أن نطور ما لدينا من عادات وتقاليد وأعراف، وأن نعيد تشكيل مواقفنا وقيمنا وطرق تفكيرنا لتكون أقدر من سابقتها على التعايش مع واقع الحياة في عصرنا، وأكثر كفاءةً على التعامل مع تعقيدات ومتطلبات حياتنا المتزايدة باستمرار. أما الآلهة التي اخترعها أجدادنا فهي آلهةٌ لا وجود لها في الواقع، ولا حول لها ولا قوة لديها.. إنها آلهةٌ من صنع خيال مجتمع بدائي يخاف من كل شيء لا يفهمه، وبحاجة إلى قوة غير عادية تبعث الطمأنينة في نفسه الخائفة دوماً من المجهول. ومهما يكن من أمر الآلهة التي تعبدونها وتثقون بها وبقدراتها الخارقة اليوم، ليس هناك قوةٌ في الدنيا باستطاعتها حماية الفرد أو المجتمع من المجهول، أو كشف أسرار الحياة أو الكون الذي يكتنف كل شيء.. إن التعلم من تجارب الحياة والآخرين، وإعمال العقل، والتأمل الواعي، والتفكير العلمي الخلاّق، وتحكيم المنطق هي الطريق الذي لا طريق سواها للتعرف على حقائق الحياة، واجتياز الصعاب، وتجاوز الكبوات، والخروج من أزمة الثقة والهوية التي نعيشها اليوم.

تنهّد الشيخ مرعود ابن مفسود طويلاً.. نظر إلى جلهود نظرة استصغار، وبدأ حديثه قائلاً:

- إنَّ التقاليد والمعتقدات هي الطريق الوحيد إلى حياة سوية.. إنها الشمعة التي تنير ظلام الليل المعتم أمامنا وتهدينا أثناء النهار.. إن أجدادنا كانوا على صواب فيما فعلوا، ولولاهم لما كان لنا أن نعيش في مجتمع مستقر مسالم يحقق لنا مآربنا ويسعدنا. إن آلهتنا العظيمة هي آلهة أجدادنا، ورثناها عنهم كما ورثنا آباءنا وأمهاتنا وأشياءنا الثمينة، ولذا ليس بإمكاننا ولا يجوز لنا أن نتخلص منها.. إن أوامر الآلهة قاطعةٌ وغير قابلة للنقض، ولا تجوز فيها فتاوى، خاصةً من قبل من لا يدركون تاريخ أجدادهم، ولا يعرفون طريقهم إلى المعابد. إن مخالفة أوامر الآلهة ستعود علينا جميعاً بكارثة إنسانيةجديدة، من المؤكد أن تتسبب في محو آثارنا من الوجود.. ألا ترون كيف أن إطاعتنا لأوامر الآلهة ضمنت لنا النجاة من الهلاك طوال القرون الماضية؟ وأن صلواتنا المنتظمة وزياراتنا للمعابد وتقديم القرابين ضمنت لنا رضا الآلهة، وقيامها بحماية بلادنا وزيادة خصوبة أراضينا ومحاصيلنا؟ هل منكم - موجهاً كلامه للجمهور المحتشد أمامه - من يخالف والديه ولا يسمع نصائحهم، أو لا يحترم طريقة حياتهم، أو يشك في عقلانيتهم وحبهم له؟ إن آلهتنا هي مرجعياتنا التي تتجاوز قدسيتها كل ما لأجدادنا وآبائنا من محبة واحترام وقدسية.

- إن الفيضانات التي لم تحدث، قال جلهود بسخرية، ليس لها علاقةٌ من بعيد أو قريب بعبادة آلهة من طين، ولا بقرابين تذبح على عتباتها، ولا بأوامر من رجال مثل مرعود ابن مفسود.. إنه ليس من عادة النهر ولا من طبيعة الطبيعة أن تتسبب في حدوث فيضانات كبيرة

كل عام. أما فيما يتعلق بالآلهة وعبادتها، فأرجو أن تخبروني من منكم يعرف شكل تلك الآلهة.. ومن منكم رآها أو على اتصال معها؟ ومن منكم سمع أوامرها تتلى على الناس في حضوره، وبالتالي تأكد من وجودها؟ إن ما تعبدونه ليست آلهةً عظيمةً كما يزعم مرعود، بل مجرد أوهام لا وجود لها إلا في الخيال. إن الآلهةالتي خلقها خيال أجدادنا الواسعً وصنعتها كوابيس أحلامهم في ظلمات الليل وشيدتها أيديهم الملطخة بالطين لا تستطيع أن تفعل شيئاً، ولا حتى حماية أنفسها وبيوتها من الدمار.. أدخلوا إلى المعبد الذي يقف خلفكم الآن لتروا كيف أن تقادم الزمن محا الكثير من معالم تلك الآلهة، وهدم أجزاءً متعددةً من جدران المعابد التي تؤيها.. وإذا كانت آلهتكم عظيمة وتملك قدرات خارقةً كما يزعم الشيخ مرعود ابن مفسود، فهل هي حقاً بحاجة إلى بيوت تحميها، وأماكن محددة كي نزورها فيها؟ ألا يمكنها أن تأتي إلينا متى شاءت، وتقول لنا ما أرادت دون حاجة لوسيطٍ يحقق من خلال وساطته أهدافه الشخصية على حسابنا؟

- إننا لم نصنع الآلهة التي نعبدها، بل ورثناها عن أجدادنا الذين أقاموا المعابد لتكون بيوتاً لها ولهم يتزاورون فيها.. لقد ترك لنا الأجداد وصايا كثيرة، أهمها تجديد بيوت الآلهة والحرص على رضاها، وعدم إثارة غضبها، وتقديم القرابين لها. وكما أثبتت الايام، كانت وصية الأجداد في محلها، إذ لم تغضب الآلهة علينا منذ مئات السنين، ولم يتكرر الطوفان ويقوم بتدمير بلادنا وقتل أطفالنا. لماذا نتخلى إذن عن الأشياء التي ورثناه عن أجدادنا من عادات وتقاليد وطقوسٍ أثبتت الأيام فائدتها وفاعليتها؟ هل هناك من يعتقد أن الناس الذين يعيشون في هذا الزمان أكثر حكمة من أجدادهم وأسيادهم؟

أتريدوننا أن نتبعكم وأنتم لا تفقهون من تقاليد مجتمعكم إلا أقلها، ولا تعرفون عن موعظة أجدادكم وحكمة آلهتكم شيئا يذكر؟

- حتى لو سلمنا بصحة ما تقول يا مرعود، فإن الآلهة تكون من صنع بشرٍ مثلنا لا يزيدون عنَّا شيئاً، وإن كانت خبرتهم في الحياة، بسبب تخلف زمنهم وبساطة حياتهم، أقل من خبرتنا بكثير.. وإذا كان لأجدادنا الأوائل الحق في بناء عاداتهم وتقاليد مجتمعاتهم وتوريثها لنا، وهم محقون في ذلك، فإن لنا الحق أيضاً في تطوير عاداتنا وتقاليد مجتمعنا كما يروق لنا ويتلاءم مع ظروف حياتنا.. وهذا يعطينا الحق في إعادة النظر فيما فعل أجدادنا وما تركوه لنا من مفاهيم ووصايا.. إن الزمن الذي نعيش فيه اليوم هو غير زمنهم، وإن معطيات حياتنا الحالية تختلف كثيراً عن معطيات حياتهم الغابرة، وهذا يعني - باختصار - أن ما صلح لهم ولزمنهم قد لا يصلح لنا، ولا يتناسب مع زمننا.

- أليس باستطاعتكم أن تتعظوا؟ قال مرعود موجهاً كلامه لجلهود ورفاقه، ألا تشاهدون المعجزات أمامكم على الأرض؟ ألم يقم النهر المقدس والآلهة العظيمة بحماية العباد والبلاد لقرونٍ من الفيضانات المدمرة والأشباح المخيفة والشياطين البغيضة والعمالقة والجن التي تتربص بنا وتحاول إلحاق الضرر بأطفالنا؟ ألم يكن تجاوُبنا مع إرادة آلهتنا، وقيامنا بتقديم القرابين لها هو السبب في رضاها عنا وحمايتها لنا؟

- إن الفيضانات لم تعد تتسبب في دمار القرى وهدم البيوت وقتل المواشي بناءً على أوامر الآلهة التي تمجدونها، ولكن لأننا تعلمنا من تجاربنا، وعرفنا كيف نتجنب الكوارث الطبيعية بدرجةٍ عاليةٍ

من الكفاءة.. لقد قمنا ببناء بيوتنا بعد وقوع الطوفان العظيم على رؤوس التلال بعيداً عن مجرى النهر، وتركنا على جانبه أكثر من مئة متر دون حرث أو زرع. وهذا ساعد على توسعة مجراه، ونمو الكثير من النباتات والأعشاب والطحالب على ضفافه، وهذه قامت بدورها بتجميع الطمي الذي تحمله مياه الفيضانات كل عام، مما جعل التراب على جانبي النهر يتراكم ويعلو مستواه ويغدو حاجزاً يحول دون وصول مياه الفيضانات إلى القرى والبيوت الواقعة على التلال المجاورة.. إن المعجزة التي تتكلمون عنها، ليست من صنع آلهة مزيفة من صنع خيال بدائي يخاف المجهول، وإنما معجزةٌ بشريةٌ صنعناها بأيدينا حين قمنا باستخدام عقولنا لتدارك أمور حياتنا.

– مهما يكن من أمر ما يزعم به جلهود ابن مشهود، وإن كان هناك بعض المنطق فيما يقول، لا يستطيع أي إنسان أن يفعل شيئاً إلا بأمر الآلهة، ولا يمكن لأي كائن حي أن ينجح في إتمام أي عمل إلا إذا رضيت الآلهة عنه أو سكتت عما يفعله.. إن الآلهةُ توحي لنا بما تريد منا، وتقود أتباعها للقيام بما يرضيها ويسعدهم.. إن سعادة البشر هي وجه من أوجه رضا الآلهة. لذا كان علينا أن نفعل ما يرضي تلك الآلهة، وأن نتجنب فعل ما يغضبها، وأن نتذكر دوماً أن آلهة آبائنا وأجدادنا هي آلهتنا أيضاً، وأنها الآلهة الوحيدة التي نعرفها ونحبها ونعبدها وتعودنا عليها، مما يستوجب علينا أن نستهدي بأقوالها ونأتمر بأوامرها. إنني أؤكد لكم أن الأيام التي أثبتت عدالتها وحكمتها وقدرتها على فعل كل شيء يهم مجتمعنا ويعنينا ويسعدنا في الماضي ستكون كفيلةً بإثبات عدالتها وجبروتها وحمايتها لنا في المستقبل، طبعاً إذا تواصلت طاعتنا لها وتقديم القرابين على عتباتها إعترافاً بكرمها وأفضالها.

– إذا كانت آلهتكم عادلةً وقادرةً على فعل كل شيء، فاسألوها لماذا تسمح بموت أطفالنا؟ ولماذا تقوم بين الحين والآخر بإلحاق الأذى بمحاصيلنا، وتغمر دوماً بالحزن أيامنا؟. إن المرأة في بلادنا تلد أحياناً خمسة عشر طفلاً لا يعيش منهم في غالبية الأحيان أكثر من اثنين أو ثلاثة.. لماذا تقتل الآلهة المئات من الآباء والأمهات كل عام، ولا تتوقف عن تيتيم الآلاف من أطفالنا كل سنة؟ لماذا تسمح بإصابة آلاف الأطفال بأمراض قاتلة وعاهات مستديمة؟ ما ذنب أولئك الأطفال؟ هل هذا عدل؟ لقد غدت أعداد القبور في بلادنا، وذلك نتيجة لعدل وحكمة آلهتكم العظيمة، تتجاوز بكثير أعداد كل الأشجار التي غرسناها بأيدينا على مدى الألف عام الماضية.. إن حماية بلادنا وتأمين حياة أطفالنا لا تكون إلا بالتعلم من الحياة وتجاربها، ولا تصحُّ أوضاعنا إلا باستخدام عقولنا لملاحظة خصائص الطبيعة وتقلبات مواسمها واكتشاف قوانينها وأسرارها – ثم أدار وجهه نحو الجمهور وقال بنبرة قوية يشوبها الكثير من الألم – إنني أحذركم من فيضانات مدمرة ستقع في أوائل الربيع القادم.. ألا تشعرون بقدوم البرودة قبل موعدها هذا الخريف؟ ألا تشاهدون تساقط الأمطار بمعدلات كبيرة غير معهودة؟ ألا ترون الجبال وقد بدأت الثلوج تتراكم على قممها بكثافة غير عادية في هذا الوقت من السنة؟ إن مياه الفيضانات التي أحذركم منها لن تصل إلى بيوتكم في أعالي الهضاب والمرتفعات، لكنها ستُهلك كل المواشي التي قد تتركونها تبيت ليلها بالقرب من النهر.. لذا أنصحكم نصيحةً، ربما كانت الأخيرة من نوعها، أن تصطحبوا مواشيكم بدءاً من نهاية الشتاء القادم إلى الروابي والتلال التي تعيشون عليها، وتقضون كل ليلة من لياليكم في حمى بيوتكم.

- : هذا كلامٌ فارغٌ، صاح مرعود مرتعداً.. أنه يستهين بعقولكم .. هل من الممكن أن يتنبأ إنسانٌ بما سيحدث في المستقبل؟.. إنه رجل ضالٌ ومخادعٌ.. إنه دجالٌ يحاول أن يغوينا بهذا الهراء ويضللنا عن طريقنا.. ابتعدوا عنه.. ابتعدوا عنه.. أحذركم من الاقتراب منه ومن أتباعه الضالين.

- إن لكم أن تسمعوا كلام شيخكم المرعود وتبتعدوا عني إن شئتم، قال جلهود موجهاً كلامه للجمهور.. إن هذا لا يضيرني أبداً، لكنه لن يكون في صالحكم أو في صالح أولادكم وبناتكم من بعدكم.. الفيضان قادمٌ لا محالة، وعلينا أن نحتاط جيداً كي لا تحدث كارثةٌ جديدةٌ.. والآن سأسألكم سؤالاً واحداً قبل أن ننهي هذا الحوار.. هل فكر أحدكم في سبب تزايد عدد الموتى في هذا العام عن العام الماضي؟ إن السبب الذي لا يفهمه شيخكم، ولا تدركه معرفة وحكمة آلهتكم الصماء، هو قلة المطر وارتفاع درجات الحرارة عن المعتاد في الشتاء الماضي، وعدم سقوط الأمطار في الربيع كالمعتاد.. حين يكون الشتاء بارداً، يقوم البرد بقتل الكثير من الحشرات والجراثيم التي تُسبب الأمراض وتساهم في انتقال الأوبئة وانتشارها بين الناس والحيوانات، وحين يتساقط المطر في الربيع بكثافة تقوم الأمطار بغسل الجو من الغبار والكثير من الأجسام الغريبة التي تعكر صفو الهواء، كما تقوم بريٍّ الأراضي جيداً، وبالتالي إضعاف زخم الزوابع الرملية التي تهبُّ علينا من الصحراء وتلوث الأجواء من حولنا.. وهذه عوامل مساعدة تقلل عدد الجراثيم التي تجوب الأجواء وتتسبب في إيذائنا. لقد حاولت على مدى السنوات الثلاثة الأخيرة إحصاء عدد الموتى بين رجال ونساء الطبقات الاجتماعية المختلفة، لأنه من الصعب إحصاء عدد الموتى من الأطفال،

ولقد تبيّن لي أن أعداد موتى هذا العام، والذي لم يكتمل بعد، تتجاوز أعداد موتى العام قبل الأخير بحوالي الضعف، وهو العام الذي كان عادياً فيما يتعلق بمعدلات سقوط الأمطار وبرودة الطقس. أنظروا إلى هذه الرسومات - ثم عرض عليهم رسوماً بيانية بأشكال هرمية لم يروا مثلها من قبل - توضح مدى تأثير الأمطار وبرودة الجو في الشتاء ومستوى النظافة على صحة الناس والحيوانات وجمال الطبيعة ولون الأزهار وعطرها.

- صاح مرعود عندئذ مقاطعاً جلهود وهو يتصبب عرقاً قائلاً: إنه ساحرٌ.. ألم أقل لكم إنه دجال.. هل رأيتم شيئاً مثل هذا من قبل.. هذه كتابات لا يتعامل بها غير السحرة.. ابتعدوا عنه.. لا تقتربوا منه أبداً. ثم أضاف موجهًا كلامه لجلهود وأتباعه بحدة متناهية.. إننا نحذركم من مغبة أعمالكم وأقوالكم وسوء تفكيركم.. إنكم لا تحملون لنا سوى الأفكار الهدامة التي تهدد أمننا وتقلق راحتنا، ولذا لن نسمح بتداول أفكاركم بين الناس، ولن نسكت على تصرفاتكم بعد اليوم، ولن نتهاون مع من يتحدى أوامر الآلهة ويخالفها منكم، وسنحكم على المشاغبين والمنافقين بالسجن والنفي إلى الشاطئ الآخر، ليعيشوا مع أمثالهم من السحرة، يرافقون الأشباح، يضاجعون الجن ويخلفّون شياطين تسكن قمم الجبال وتتسلق الغيوم.

لاحظ جلهود زعيم تيار التجديد أن جمهور الحاضرين كان يصفّق لمرعود بحماس كبير كلما خطب فيهم، ويبدي في المقابل قلقاً واضحاً كلما تكلم وانتقد الآلهة والتقاليد، كما لاحظ أيضاً أن عدد أتباعه الذين كانوا يقفون خلفه كان يتناقص بعد كل هتاف من الجمهور لصالح خصمه. وهذا ترك في نفسه أثراً سيئاً دفعه إلى محاولة إنهاء الحوار

بعبارات قوية، وذلك على أمل أن ينجح، على الأقل، في استعادة بعض أتباعه الذين فقدهم منذ بدء المبارزة، لذا قال وقد أعياه الحديث وأغضبه كلام مرعود:

- إننا لا نطالبكم يا سيدي بالتخلي عن أي شيء تؤمنون به، بل نطالبكم بالتفكير، وباستخدام عقولكم، وبمراجعة ما في تراثنا وتراثكم من أشياء قد تحتاج لمراجعة.. إننا نطالبكم بأن تسمحوا لنا بحرية الرأي والتفكير، تماماً كما نسمح لكم بحرية الرأي والفكر والعبادة.. لا شيء أكثر من ذلك ولا شيء أقل. ثم نزل عن المنصة محاولاً مغادرة المكان.

وهنا صاح أحد الحضور بأعلى صوته موجهاً كلامه لجلهود ابن مشهود، حيث قال الرجل: أريد أن أسألك سؤالاً واحداً فقط، وأريد منك جواباً صريحًا: هل تؤمن بوجود آلهة أم لا؟

- هذا يا سيدي هو سؤال العصر وكل عصر، قال جلهود.. إنه السؤال الأكبر الذي لم يجد له الإنسان إجابة مقنعة حتى الآن.. إذا كان هناك آلهةٌ كما يدَّعي البعض، فإن الناس لم يتعرفوا عليها بعد، وذلك إما بسبب رفضها الكشف عن وجهها وهويتها حتى الآن، أو لأن العلم لم يتوصل إلى التعرف على حقيقة ومكان وجودها بعد.. ومع أنني اعتقد أن حظوظنا في التعرف على تلك الآلهة شبه معدومة، إلا أنه من الصعب علي أن أتخيل وجود هذه الطبيعة الرائعة دون وجود آلية تدير أمور هذا الكون وتضمن سيرها على هذا النحو من الكمال.. لكنها، وبكل تأكيد، ليست آلهةً من حجرٍ وطينٍ ترقد في مبنى متهالك تسكنه الفئران.. إنها قوى عظيمةٌ وحكيمة، قد يتوصل البشر في يوم من الأيام إلى التعرف على مكان وجودها وهويتها بطريقة أو بأخرى.

– هذا جوابٌ عقلانيٌ ومنطقيٌ، قال السائل، لكنه مع الأسف غير مُرضٍ.. إنه منطق واضح في إمكانه إقناع العقل الذي يمتهن القلق ولا يهاب سهر الليالي، لكنه لا يريح العقل الذي يخاف المجهول، ولا النفس التي تبحث عن الطمأنينة، ولا القلب الذي يبحث عن السكينة.

لم ينم جلهود تلك الليلة كثيراً، وصحا في اليوم التالي مبكراً على غير عادته.. اغتنم الفرصة واتجه نحو المحمية الطبيعية المحاذية للنهر كي يتفقد الفراشات، ويراقب الطيور والأرانب، ويستمتع بوجه الصباح الجميل ونسيمه العليل. وما كاد أن يقترب من النهر في طريقه إلى المحمية حتى رأى جموعاً غفيرةً من الناس تقف في صفوفٍ طويلةٍ على باب المعبد، تنتظر دورها للدخول إليه وعلى وجوهها علامات الحزن والرهبة، بينما كان الخارجون من المعبد يمسحون الدموع من عيونهم وعن خدودهم. كانت كلمات جلهود وأفكاره وتوقعاته قد جعلتهم يشعرون بالقلق والخوف في آنٍ واحدٍ.. القلق من أفكار جديدة تتناقض مع طريقة حياتهم وما نشأوا عليه من تقاليد وعاداتٍ ومعتقدات بالرغم مما تتصف به من عقلانيةٍ ومنطقيةٍ، والخوف من المجهول والفيضانات القادمة التي بشَّرهم جلهود بقدومها. جلس جلهود لحظاتٍ يفكر فيما رآه، وإذا به يسمع صوتا آتياً من داخله يقول هامساً: في حالات الاضطراب والضياع، ليس هناك شيء مريح للنفس كالإيمان، إنه طريق الخلاص من القلق، وأداة التخلص من الخوف، والملجأ الذي يعيد الطمأنينة للنفوس الضالة. وكلما كان المعتقد يقوم على الإيمان بمعجزات وأعمالٍ خارقةٍ للعادة، كلما كان تأثيره أقوى وأكثر فاعلية في النفوس وذلك لأنَّ المعجزة هي الشيء الوحيد الذي يلغي قدرة المنطق على المواجهة، ويكبّل العقل بقيود قاسية، ويسجن الفكر خلف أسوار

عاتية من مخاوف كاذبة لا وجود لها. وهذا يجعل من غير الممكن على العقل والمنطق والفكر الواعي أن يحطم القيود والأسوار بالطرق التقليدية وبالحوار، ويفرض على المفكر بالتالي أن يعمل على هدمها وتجاوزها بالكامل.

نظر جلهود طويلاً إلى الداخلين إلى المعبد والخارجين منه باستغراب، وهناك لمح اثنين من أتباعه يحاولان التسلل إلى داخل المعبد بسرعة خوفاً من أن يقع نظره عليهما. هزَّ جلهود رأسه بدهشة تعبر عن صدمة بالغة وخيبة أمل، ابتسم ابتسامة ساخرة يشوبها الحزن، عكست عمق ما شعر به حينئذٍ من مرارة واستهزاء بحاله وحال وطنه وشعبه.. أدار وجهه نحو النهر وواصل سيره في اتجاه الحديقة، يتبعه شهمان، كلبه الوفي. وقبل أن تغرب الشمس ويعود إلى منزله، كان جلهود قد اتخذ قرارات مصيرية فيما يتعلق بدعوته، وفيما يخص دوره في حياة مجتمع الكراميد.

وفي الطريق إلى البيت، مرّ كعادته من أمام بيت المرأة التي أحبها طويلا ولم يبح بحبه لها أبداً، إلا أنه لم يجدها كعادتها تجلس على عتبة المنزل في انتظار مروره ليلقي عليها تحية المساء كالمعتاد. توقف هناك لحظات ثم تابع سيره، وحين وصل إلى منزله فوجئ بوجودها جالسةً على عتبة الباب، وإلى جانبها طبقٌ من طعام، اكتشف فيما بعد أنه يحتوي أشهى ما كان يتمناه من مأكولات. أخذ طبق الأكل منها ودعاها للدخول.. تبعته بهدوء دون سؤال. فجأةً، شعر أن حبه الدفين الذي رفض لسنوات عديدة الكشف عن ذاته، قرر أن يتحرر من قيود المُحب وأن يكشف عن ذاته بنفسه.. حاول جلهود أن يخفي مشاعره ويكبح رغبته، إلا أن حبيبته لم تسمح له هذه المرة بذلك.. اقتربت منه، لفّت

يديها حول عنقه، وألقت بنفسها بين أحضانه.. كانت تلهث بسرعة، وكأنّها قطعت مشواراً طويلاً جرياً على الأقدام لتصل قبل أن يقلع قطار الحب إلى غير رجعة ويتركها خلفه وحيدةً بلا رفيق. دار بعينيه في زوايا الغرفة يتفقدها ركناً ركناً، وكأنه يحاول التأكد من عدم وجود عيون غريبة أو مريبة تراقبهما عن قرب، وأنهما وحيدان في البيت. وحين وجد نفسه وجهاً لوجه مع حبيبة حلمه دون رقيب، ضمّها إلى صدره بحنان، وَهمَّ بتقبيلها ورشف خمر رحيقها. ولكن ما كادت شفتاه تلامس شفتيها حتى سمع أصواتاً مألوفةً خلف الباب، معلنةً وصول أول فوج من أتباعه.

فتح جلهود الباب على عجل، دعا ضيوفه إلى الدخول، ثم جلس وأجلسهم على الأرض أمامه، وأجلس سومار، العشيقة التي ولدت في مساء ذلك اليوم المضطرب، إلى جانبه. لاحظ بسرعة أن أصدقاءه لم يكونوا في وضع نفسي عادي، وأنهم جاؤوا ليستمعوا إليه بعد ليلة الأمس الصاخبة، وليس لاستعراض تجارب يومهم، وطرح أفكارهم وآرائهم كالمعتاد. لذلك بدأ حديثه بلا مقدمات قائلاً: لقد شاهدتم ما حدث الليلة الماضية.. أعتقد أننا خسرنا خسارة فادحةً حين قبلنا مبدأ المبارزة.. إن منطق الجهل والدجل لم يهزم منطق العقل والعلم، لكن منطق العقل فاجأ الجمهور وباغته قبل أن يقترب منه.. لقد فاجأه بطرح منطقٍ جديدٍ بجرأة غير عادية، أربكت الجمهور وأفقدته صوابه. ولقد تسبب ذلك في إدخال الشك إلى قلوب العامة من الناس، تلك القلوب المؤمنة الملتزمة بعقائد وتقاليد متوارثة، وأربك ضمائرهم المطمئنة. نعم.. إن خسارتنا فادحةٌ بلا شك، لكن خسارة مجتمعنا أفدح من خسارتنا بكثير. ومهما يكن من أمر خسارتنا، فإن علينا أن

ندرك أننا خسرنا جولة حوار ولم نخسر الحياة، لأن الحياة سلسلةٌ من الحلقات المتصلة غير المتشابهة، لا تكاد تنتهي واحدةٌمنها حتى تبدأ الثانية، ولا يكاد الإنسان أن يتعود على واحدة منها حتى يُفاجأ بغيرها.. إنها مسيرةٌ على طريق طويلة كثيرة التعرجات والصعوبات والمنحنيات، لا تُعرف لها بداية، ولا تُعرف لها نهاية.

إن علينا أن ندرك أيضاً أن الإنسان الذي يخسر نزالاً ويقبل بالهزيمة التي تترتب عليه ويستسلم لها، لن يتذوق طعم النصر في المستقبل، حتى وإن دقّت الفرصة على بابه مرات ومرات، وذلك لأن ثقافة الهزيمة تكون قد استقرت في أعماق قلبه وتوغّلت في خلايا عقله. لكن من يعترف بالهزيمة دون أن يستسلم لها، ويعيد حساباته على أساسها، مستخدماً العقل والتجربةعبر التاريخ، ويقوم بناءً على ذلك بتحديد أسباب الهزيمة واستكمال مقومات النصر، فلا بد له أن ينتصر عاجلاً أم آجلاً. وهذا يتطلّب، بين أشياء كثيرة أخرى، استبدال أساليب العمل التي قادت إلى وقوع الهزيمة في المقام الأول، وتطوير الأفكار التي حكمت المواقف والقرارات في الفترة السابقة.

لقد أدركت بعد تفكير طويل وعميق سَرق النوم من عينيَّ طوال الليلة الماضية، وخطف المتعة من قلبي في هذا النهار، إن الأمل في إصلاح حالنا ضعيفٌ جداً، وإن وضع مجتمعنا على الطريق السليم نحو النماء والتحرر من عبء التقاليد البالية والمعتقدات الخرافية صعب للغاية.. لقد أيقنت اليوم أن تحرير مجتمع بدائي كمجتمعنا يحتاج لعقود طويلة، وربما لقرون.. إن وضعنا في هذا المجتمع كوضع جنين في بطن أمه، يتنفس من رئتيها، يتغذى على ما تأكله من طعام وشراب، يمرض حين تمرض، يتحرك داخل بطنها كلما غيرت مشيتها

أو جلستها، لكنه لا يستطيع الخروج من رحمها أو التحرر من قيوده إلا بعد أن تلده أمه وتلقي به في الخارج. لذا، لا يمكن لنا أن نتحرر من هذا المجتمع التعيس، ونساهم في تحريره مما يكبله من قيود ثقافية وتراثية إلا بالخروج عليه، وما دمنا غير قادرين على ذلك الآن، فإن سبيلنا الوحيد لبناء قدراتنا يكمن في الخروج منه أولا، وتحرير أنفسنا من قيوده وأفكاره والعودة إليه – إن سمحت الظروف طبعاً – لتحريره، مسلحين بسلاح الحرية ومنطق العلم. إن من لا يتذوق طعم الحرية، لا يستطيع أن يصفها للغير، ولا يمكنه إقناعهم بمذاقها الطيب ورائحتها العطرة. لذلك اتخذت قراراً لا رجعة فيه.. سأهاجر من ديار الكراميد.. سأغادر هذا المكان في أقرب فرصة ممكنة.. سأهاجر مع من يوافقني الرأي منكم، ومن يختار مرافقتي إلى عالم المجهول.. وإذا فشلت في إيجاد صديق، فسوف أهاجر مع شهمان، أفضل رفيق.

وقبل أن يتفرق الأصدقاء والأتباع من حوله، ويعود كل منهم إلى بيته، قال جلهود مخاطباً جمهوره الصغير: نعم.. إننا أصدقاء، ونؤمن بنفس المبادئ، لكن ظروفنا متباينة، والتزاماتنا الاجتماعية والعائلية ليست واحدةً، وقدراتنا على التحرر من تقاليد مجتمعنا القاسية متفاوتة.. لذلك لا أتوقع منكم أن تتخذوا قرارات مصيريةً بسرعة ودون تفكيرٍ عميق، بالرغم من اعتقادي بأن أي قرار تتخذونه يشكل بحد ذاته معاناةً جديدة تضاف إلى ما تعانون منه من قلق وآلام.. إن لكل منكم كامل الحرية في اتخاذ القرار الذي يناسب ظروفه، وإن بإمكان أيٍّ منكم أن يغير رأيه في أية لحظة شاء فيها ذلك، طبعاً ما دمنا في بلاد الكراميد ولم نهجرها بعد ونركب قارب الهروب.. ولا بد أن تدركوا من الآن أن السفر سيكون صعباً، وقد يكون إلى غير رجعة.. سنلتقي

غداً في الصباح أمام الحديقة العامة بالقرب من شاطئ البحيرة لنبدأ الإعداد للرحلة، والاستعداد لركوب النهر والهجرة من هذه الديار التي نعشقها.. إن المشاركة في التحضير للرحلة المرتقبة لا تعني، ولا بأي حالٍ من الأحوال، التزاماً من المشاركين بركوب البحر ومرافقتي حين يحين موعد السفر.

الهروب إلى المجهول

بعد أن تفرَّق المجتمعون وغادروا بيت جلهود، نظرت سومار إلى جلهود قائلةً: أحسنت.. إن ما سمعته منك هذه الليلة، وما شاهدته الليلة الماضية أمام المعبد من حوار مستفيض يدعو حقاً إلى الإعجاب.. لكن ما لم تذكره يا عزيزي هو أن الأفكار الجديدة، شأنها شأن الأفكار القديمة، تحمل معها قيودها الخاصة بها، قد تكون القيود الجديدة أقل قسوةً وجموداً في مراحل تطورها الأولى من القيود القديمة، إلا أنها قيود تحتاج كغيرها إلى تليين أو كسر عاجلاً أم آجلًا. إن كل شخص يحمل أفكاراً عقائدية أو يؤمن بفلسفات شمولية كمرعود ابن مفسود لا بد وأن يتعصب لأفكاره ويرفض غالبا السماح للغير بنقدها، وهذا يقوده، ومن حيث لا يدري، إلى الدخول طواعية في سجن صغير يكبله ويحد من حريته، ويفرض عليه قيودا عويصة تُضعف قدرته على التفكير بحياد وصفاء وتواضع. وحين يجد صاحب العقيدة نفسه في مركز قوة، يتحَّول عادةً إلى إنسانٍ آخر ليس في مقدوره التواصل مع الغير من الناس بارتياح، خاصة من يخالفه الرأي منهم، مما يجعله يغدو، ودون وعي أحياناً، دكتاتوراً صغيراً أو كبيرًا يرفض الرأي الآخر، ويتنكر لمبدأ الحوار والتسامح، ويعمل على فرض وجهة نظره وطلاسم عقيدته بالقوة على كل من يخونه الحظ ويقف في طريقه.

إن من شأن العقيدة، أضافت سومار قائلةً، أن تُحَوِّل كلَّ إنسانٍ مؤمنٍ بها إلى شخص تابع للغير من مفكرين عقائديين وقادة سياسيين. إن العقيدة تُحول المؤمن بها إلى إنسانٍ ملتزمٍ بأفكارٍ هلامية متزمتة تفرض عليه أن يعمل على تحقيقها وأن يضحِّي من أجلها دون أن يفهم

في غالبية الأحيان معناها، أو أبعادها المجتمعية، أو تبعاتها على حياته وحياة الآخرين. وحين يُفكرٌ القائد العقائدي، لا يفكّر بحرية ضمن فضاء فلسفي مفتوح، بل داخل أسوار سجنه الصغير الذي اختاره بنفسه لنفسه، أي داخل إطار عقيدته التي تحّثدها مقولاتٌ فكرٌية وحكاياتٌ وهميةٌ ذات مسحة قدسية، وإن كانت لا تمُّست لواقع الحياة بصلة حقيقية، مما يجعل الإطار ضيقاً للغاية، يصعب الخروج منه ويتعذّر الخروج عليه. وهذا يعني أن العقائدي لا يتكلم عادةً إلا في موضوعين أساسيين فقط، الأول هو شرح معطيات عقيدته وجوهرها، وتعداد ميزاتها وحسناتها، وإيضاح قدرتها على تفسير أسرار الحياة والكون وطبيعة التطور وتحقيق الأماني الفردية والجماعية. أما الثاني فهو نقد الفكر الآخر، وتعداد عيوبه والتحذير من مخاطره، والتنويه بالحاجة لكبت حرية الرأي لحرمان الفكر الآخر من الانتشار. وحيث أن لكل عقيدة ولكل فكرة وموقف ورأي وجهين، أحدهما إيجابي والآخر سلبي، فإن العقائدي يجد نفسه مضطراً لتبرير أخطاء عقيدته وسلبياتها حفاظاً على وجهها الايجابي، والدفاع أحياناً عن جرائمها بحق الغير مهما كان الدفاع خالياً من المنطق والجرائم قاسية. وفي الواقع، يقود الإيمان الأعمى بالعقائد والفلسفات الشمولية إلى القبول بالاستعباد عن طيب خاطر، وإلغاء العقل وحرية التفكير دون مناقشة، والقبول في الكثير من الحالات والأحيان بارتكاب جرائم بشعة بإسم العقيدة وخدمة للمصلحة العامة، وذلك طبعاً بناءً على أوامر قادته وزعماء طائفته من المتزمتين الساديين.

– هل يعني هذا أن الإنسان العقائدي لا يعير اهتماماً لمشاعر الغير من الناس، وأنه لا يكترث لما قد يحدث لهم من مصائب نتيجةً لمقولات

عقيدته ومواقف أنصارها وممارساتهم على الأرض؟

– هذا صحيح إلى حد بعيد.. إن من طبيعة الإنسان أن يعمل الخير، وأن يساعد من هم بحاجة لمساعدة من الأهل والأصدقاء والجيران، وحتى الغرباء من الناس أحياناً، لكن حين تتدخل العقيدة، يتجه الإنسان عادة إلى اختصار مساعدته على رفاقه وأتباع عقيدته دون غيرهم من الناس. وحيث إن ما يميِّز الإنسان عن غيره من كائنات حية هو تعاطفه مع أخيه الإنسان بغض النظر عن لون بشرته وأصله ونسبه وعمره وجنسه، فإن الإيمان الأعمى بفكر عقائدي متزمت يقود الإنسان، ومن حيث لا يدري، إلى القبول باختصار إنسانيته.

– لكن الفكر بطبيعته إنساني، مما يجعل كل فيلسوف يبدأ حياته مصلحاً اجتماعياً، يفكر ويؤطرِّ أفكاره ويقولبها ويعمل على نشرها بين الناس بهدف هدايتهم لما فيه الخير لهم وللإنسانية جمعاء. وحتى حين يحاول أتباع عقيدة معينة إقناع آخرين بمبادئ عقيدتهم ووجهة نظرهم، فإنهم يفعلون ذلك عادةً انطلاقاً من قناعة بأن أفكارهم تحمل للآخرين الخير وتساعدهم على تجنب الخطايا والنجاة من عواقب عدم الايمان.

– هذا أيضا صحيح يا عزيزي، لكن الفكر كي يكون ايجابيًا ومفيداً وقادراً على التواصل والتحاور مع الآخر، لا بد وأن يبتعد عن التعصب بقدر الإمكان، وأن يكون مرناً بالقدر الذي يسمح له بالتغير كلما تغيرت ظروف الحياة، وهذا ما لا يتوفر لأية عقيدة، ويصعب أن يدركه عقل أي عقائديّ، لأن العقيدة في نظر أصحابها قوالب فكرية وممارسات عملية غير قابلة للتحول. وفي الواقع، لا تسعى أية عقيدة، بغض النظر عن طبيعة رسالتها وجوهرها وأهدافها، إلى إصلاح المجتمع بقدر ما

تسعى إلى فرض تصوّرها على الغير وترجمة مفاهيمها وطلاسمها إلى واقعٍ ملموسٍ على الأرض، وهذا لا يتأتّى عادةً إلا من خلال فرض برنامجها كنظامٍ حياتي شاملٍ، من شأنه في حالة نجاحه أن يعتدي على حريات وحقوق كلّ من يحمل فكراً مغايراً من أفراد المجتمع. ولمّا كانت التجربة العملية هي الطريقة الوحيدة لاختبار مدى صلاحية أي نظرية، وتحديد مدى قدرتها على تغيير ما تسعى لتغييره من تقاليد اجتماعيةٍ وآراء فكريةٍ ومعطياتٍ حياتية، فإنه ليس من العدل قيام أي عقائدي بمحاولة فرض وجهة نظره على الغير مهما بلغ حماس أتباعه لها، وإيمانهم بصلاحيتها.

لم يكن جلهود يتوقع أن يسمع مثل ذلك الكلام في مثل تلك الليلة من شابَّةٍ لم تطحنها الحياة بعد، مما جعله يحسُّ بنوعٍ من التشتت الفكري وفقدان الحماس لمواصلة الحوار.. كان جلهودٌ قد تعب من نقاش الفكر وكل ما هو نظري وفلسفي، وبدأ يفكر فيما هو عملي.. يفكر في الهجرة واختبار مدى صلاحية فكره على أرض الواقع في بلاد غير بلاد الكراميد، بعيداً عن مرعود وآلهة مرعود. لذا تنهد طويلاً قبل أن يعلِّق على كلام سومار، وطلب العشاء قائلاً: هل لنا أن نتوقف الآن عن الحديث، على أن نتابعه فيما بعد.. إنني اشعر بالحاجة لبعض الطعام.. إن معدتي تتلوى من الجوع.

- بالتأكيد، أجابته سومار.

- هل يعني هذا أنكِ جاهزة لتناول طعام العشاء معي؟

- أعتقد ذلك، وإلا لما كان من الضروري أن أعِدَّ هذا الطعام وأحضره بنفسي، وأبقى إلى جوارك طوال هذا الوقت.

– إن الطعام لذيذٌ جداً، شكراً على هذه الوجبة الطيبة، قال جلهود لسومار، وشكراً لك أيضاً على وجبة الفكر التي تزيد روعة عن وجبة الطعام بكثير.. لكن هل فكرّتِ لماذا يصعب على الناس إعطاء الأفكار الجديدة فرصةً كافيةً لإثبات منطقيتها، وإعطاء أنفسهم فرصة معقولة لفهمها جيداً واختبار مدى صلاحيتها على أرض الواقع قبل رفضها؟

– هذه قضيةٌ سهلةٌ يا عزيزي.. إن الناس يولدون في بيئات اجتماعية وطبيعية مختلفة، لكل منها عاداتها وتقاليدها وأعرافها ومعتقداتها وظروفها الخاصة بها، وهذه تشكّل في مجموعها طريقة حياة ونظام عمل وأسلوب تفكير ومنظومة قيم تختلف عن غيرها من طرق ونظم وأساليب. ومن خلال الانتماء إلى ما نشأ الإنسان عليه من معتقدات وتقاليد، والالتزام بمعطيات الثقافة السائدة في مجتمعه الصغير، يريح الناس أنفسهم من عناء التفكير، إذ يعرف كل منهم حقوقه وواجباته وحدود حريته، وطقوس مجتمعه، وما يمكن أن يتوقعه من الآخرين، وما يمكن أن يتوقعونه منه.. إن التعُّود على طريقة حياة معينة تجعل تلك الطريقة جزءاً من طبع الإنسان، يتصرف على هَديه دون حاجة لتفكير. أما الأفكار الجديدة فتتطلب من الناس أن يفكروا، وأن يُعملوا عقولهم ويرُهقوا أنفسهم، وأن لا يعتمدوا على طبائعهم فقط. وهذا يفرض عليهم منذ البداية أن يتحرروا من قيود طبائعهم، وأن يعتبروا تلك الطبائع أساليب حياتية قابلة للتغير كلما تغيرت ظروف الحياة، وأن يتنازلوا عن كل ما هو ثابت ومقدس وموروث، وهذه قضايا متعبة تدعو للقلق وتثير الشك. ولذا يتجه الناس عادةً إلى مقاومة التغيير والوقوف أمام تياراته، ورفض كل ما يهدد أمنهم الاجتماعي بالخطر، ويربك عقولهم التي تعودت البساطة، ويرهب قلوبهم التي تعودت الطمأنينة.

– آه يا سومار كم أنت رائعة.. من أين لك هذه الفلسفة؟

– دعنا من هذا كله، قالت سومار بدلال.. إنني لم أحضر هنا للخوض في قضايا العقل والفلسفة، وإنما جئت استجابةً لنداء القلب، فهل أنت مستعدٌ لذلك؟ هل تذكر يا جلهود حين كنت اتبعك كظلك في حديقة البيت حين كنت طفلةً لم أتجاوز الثالثة من العمر، حين كُنتَ تروي الأزهار، وتغرس أشتال الورود بعناية، وتقطف ثمار الجوافة والتين بحنان؟

– طبعا يا سومار.. أذكر ذلك جيداً، هل من الممكن أن أنسى تلك اللحظات الرائعة.. قد تستغربين يا سومار إذا قلت لك أنني كنت أنتظر خروجك من البيت كل يوم كي أبدا في زرع الأشتال وري الأزهار.. إن وجودك من حولي كان مصدر سعادة لا توصف.. كانت شقاوة الطفولة في عينيك منارةً مضيئةً وشعلة ذكاء، وبسمة الثغر البريئة تعكس عمق ما يحمله الإنسان في قلبه من مشاعر جميلة وآمال عريضة حين يأتي إلى هذه الحياة.. كنتِ يا سومار بالنسبة لي مدرسةً لم أدخلها بعد، لم أتعلم دروسها ولم أتعرف على أسرارها.. فكما تعلمين، ماتت زوجتي بعد زواجنا بأسابيع، وهذا حرمني من الأطفال.. من محبة الولد وحنان البنت، وكم سعدت بدخولك في حياتي بنتاً جميلةً حنونةً، ومدرسةً رائعةً، ونجمةً ساحرةً، ومصدر إلهام لا ينضب.

– آه يا جلهود.. لقد كانت أياماً جميلةً حقاً.. كنتُ استغرب لأنك لم تغضب مني ولو مرة واحدة حين كنت أدوس شتلة صغيرة، أو اقطف وردةً جميلةً قبل الأوان. هل تعلم أن اسعد يوم في حياتي كان ذلك اليوم الذي جئت فيه إلى بيتنا لتطلب من أبي أن يسمح لي بمرافقتك إلى البحيرة وحديقة الطيور.. لم أنم تلك الليلة على الإطلاق، قمت

في الصباح الباكر وجلست على عتبة البيت انتظر خروجك كي امسك بيدك وأسير إلى جانبك.. كانت الشهور القليلة التي قضيتها معك ومن حولك هي كل طفولتي، لم أعرف قبلها معنى الطفولة، ولم أعش بعدها يوم طفولة.

- كم أنا سعيٌد بسماع هذا الكلام الذي يشبه الحلم يا سومار.. لم أكن في الحقيقة أعي ما كان يدور في عقلكِ الصغير وقلبكِ الكبير من أفكار ومشاعر في حينه.. كنت معنياً بنفسي، أبحث عن طيف سعادة في وجودكِ بالقرب مني، والتمتع بفرحتي حين انظر في عينيكِ الساحرتين.. نعم.. لقد أدركت منذ تلك الأيام أنه لا يمكن لي أن استمد السعادة أو البهجة أو البسمة من إنسان لا يعيشها ولا يستمتع بها، ولذا كنت ولا زلت أحبك وأحرص على سعادتك.

- حين عدت في مساء ذلك اليوم إلى البيت سألني أبي عما فعلنا في البحيرة.. قصصت عليه وعلى أمي ما حدث، بينما كان قلبي يتراقص من الفرح.. قلت لهم، لقد أخذني عمو جلهود إلى البحيرة حيث استحم وحممني معه، ثم ذهبنا سوياً إلى حديقة الزهور والطيور، وهناك علمني أسماء العديد منها، وشرح لي أشياءً كثيرةً عن حياتها.. كيف تبني بيوتها وتربي أطفالها، وكيف تهاجر إلى بلادٍ بعيدة قبل حلول الشتاء وتعود في الربيع. وبعد ذلك أخذني في قاربه الصغير إلى البحيرة حيث اصطدنا الكثير من الأسماك.. قال لي خذي ما شئت منها، فحملت ما استطعت أن أحمله وأحضرته إلى البيت. وبينما كنت أحكي لهم حكايتي معك بشغفٍ، لاحظت أن وجه أبي تغيَّر لونه، ولذا طلب مني أن أتوقف عن الحديث.. أعتقد أنه غار منك وخاف أن أتعلَّق بك وأنساه. وفي صباح اليوم التالي قال لي بنبرة قويةٍ وحادةٍ، إن جلهود

رجلٌ غريبٌ، يأنس مصاحبة الأطفال، وهذا يقلقني.. هذه آخر مرة تذهبين فيها إلى بيته أو ترافقينه إلى البحيرة، ثم أدار وجهه نحو أمي وقال بحزم، أنني اعتبرك مسئولةً عن تنفيذ هذا القرار، وغادر البيت منزعجاً. وبينما كان في طريقه خارجاً من البيت، سمعته يهمس قائلاً، لا أعرف كيف يستطيع رجلٌ في سنه أن يستمتع برفقة طفلةٍ صغيرةٍ لا تفهم من الحياة شيئاً.

– مسكين أبيك يا سومار.. لم يكن يدري أن الطفولة مدرسةٌ في غاية الأهمية، ربما كانت أعلى مرتبة من مدرسة النضوج، فلولا الطفولة لما كان هناك نضوج أصلًا.

– وهكذا حرمني أبي منكَ وحرمك مني حتى مات وماتت أمي.. لقد انتظرتك بعد ذلك سنتين كاملتين كي تكلمني، كي تعود إلي، لكنك أهملتني، مما اضطرني إلى المجيء هذا المساء، وأنا خائفةٌ من حدوث رد فعل يجرح شعوري ويهين كبريائي.

– آسف يا سومار.. إنني لم أهملك أبداً، كان حبك في قلبي ينمو يوماً بعد يوم، لكنني كنت مثلك تماما، لا أعرف كيف ابدأ، ولا من أين أبدأ، وذلك بسبب اختفائك عني فجأةً وانقطاعنا عن بعضنا البعض سنوات.. كما أن قلقي على ما آلت إليه أحوال الكراميد وأفكاري الجديدة شغلتني عنك وعن غيرك من الأحبة.. إن مشاغلي الفكرية لم تترك لي فرصة لمراجعة نفسي والبحث عمن يحبني لذاتي.. وفي الواقع، كان موت زوجتي سبباً في عزلتي واغترابي، حيث لم أعد أرى شيئاً ذا قيمة حقيقية في حياة تعيسة لا تعي معنى الحياة.. كان همي الوحيد أن أجد طريقة لتغيير مجتمعنا بتقاليده وعاداته وأفكاره البالية، كي يعيش الناس سعداء، لا يحاصرهم المرض والموت من كل جانب، ولا تكبّل

الخرافات عقولهم، ولا تنغِّص الشائعات حياتهم، ولا يقضي الإحباط واليأس على طموحاتهم ومستقبل أطفالهم.

– هذا يعني أنك سجنتَ نفسك داخل ذاتك، أليس كذلك؟ وأقنعتها بأنك تفكر وتعمل لخير المجتمع، وحين فتحت باب سجنك ليطل عليه الناس، آملاً أن يروا فيه ما يعجبهم ويدفعهم للتعاطف معك والتجاوب مع أفكارك، خيَّبوا ظنك، إذ لم يعجبهم ما سمعوه منك من أفكارٍ عجيبةٍ، ورأوه من طباعٍ غريبةٍ أثارت لديهم الكثير من الشكوك والمخاوف.

– اعتقد أنك على حق، وأعدكِ أن أغير طريقة تعاملي مع الناس.. أما الآن فليس أمامي سوى الهجرة إلى بلادٍ بعيدةٍ، إلى البراري والجبال والسهول والغابات.. أعيش ردهةً من الزمن مع الطبيعة وطيورها وأزهارها وينابيعها ووحوشها وفراشاتها، أعيد هناك اكتشاف ذاتي وأختبر مدى صلاحية أفكاري على أرض الواقع قبل أن أعود إلى هذا المكان.. لكن هل ستنتظرينني حتى أعود يا سومار؟ أم ستسافرين معي حين يحين موعد الإبحار؟

– هذا سؤالٌ صعبٌ، ليس من السهل الإجابة عليه.. دعنا نحاول الآن أن نتمتع بذلك الحب القديم الذي جمعنا في الماضي، وأصُّر على أن يجمعنا مجدداً قبل فوات الأوان.

صبَّ جلهود على صدر سومار في تلك الليلة كل ما كان قد اختزنه على مدى سنين الصبا والرجولة من شوقٍ وحرمان، وقامت سومار بدورها باستعادة كل ما فاتها من طفولة ولهوٍ شبابٍ ونضجٍ أنثويٍ متدفقٍ في أحضان جلهود الدافئة. لقد تذوقا طعم الحب والعشق والجنس من أول لحظة لامست شفتاه شفتيها، واستعذبا ذلك الطعم وتعودا عليه..

كانت تلك الليلة بداية لحكاية عشق لا تعرف معنى النهاية، حيث لم يعد بإمكان أيٍّ منهما بعد تلك الليلة العابثة أن يفترق عن الآخر.

قام جلهود قبل ذلك الحدث بسنتين تقريباً بتبنّي كلب من الكلاب الضالة التي تعيش بالقرب من القرية، ولا تعود ملكيتها لأحد. إذ بينما مَّر في مساء يوم جميل حافل بالأمل والتأمل كعادته بالحاكورة التي كانت تسكنها تلّ الكلاب وتعتبرها مملكةً خاصةً بها لا تسمح للغير بالإقتراب منها، حتى تراكضت الكلاب نحوه والتفّت من حوله. ويعود السبب في معاملة الكلاب لجلهود معاملةً خاصةً وحُبها غير العادي له لأنه كان يحن عليها، ويزورها ثلاث أو أربع مرّات كل اسبوع ليقدم لها نصيبها من سمك البحر الذي واظب على اصطياده، مما جعلها تستقبله بالترحاب كلما حطَّ في ربوع مملكتها. وبينما كان يشاهد الكلاب منهمكةً في نهش السمك، لمح كلباً صغيراً جميل المظهر وصلب البنية، أعجبه كثيراً وقرر على الفور أن يتبناه. وبالرغم من أن جلهود اختار رفيقاً لا يمُّت لأتباعه ولا لبني جنسه بصلة، إلا أن الأيام أثبتت أنه أحسن الإختيار، إذ كان شهمان صديقاً وفياً، ورفيقاً ودوداً يطيع سيده ويبادله الحب بلا حدود. ومع الأيام، تعود شهمان على سيده، وتعرَّف على طباعه وعاداته، وحفظ برنامجه اليومي، حيث أخذ يوقظ سيده من النوم حين يتأخر عن موعده في الصباح، ويذكره بمواعيد ما بعد الظهيرة إذا نسي منها شيئاً مهماً.. وهكذا أصبح شهمان أقرب المقربين إلى قلب جلهود، وأحبَّ المخلوقات إليه، وأكثرها وفاءً له وخوفاً عليه.

كان شهمان يخرج مع سيده في الصباح الباكر إلى الحقول التي يحبها ويمارس هواية الرياضة الصباحية فيها، ويعود معه في الظهيرة

إلى المنزل لتناول بعض الطعام وأخذ قسط من الراحة قبل بدء مشوار المساء إلى شاطئ البحيرة وحديقة الأزهار والطيور. كما كان شهمان، وقد دربه سيِّدهُ على الصيد وركوب البحر، يشارك جلهود في صيد الأسماك من البحيرة، ولا يأكل منها شيئاً إلا ما يقدمه له سيده. وحين يجتمع جلهود بأتباعه في بيته أو خارج البيت، كان شهمان يجلس عند قدمي سيده، لا يبرح مكانه إلا حين ينتهي الاجتماع ويقف جلهود على قدمية. وحين ينتهي اللقاء في الليل، كان شهمان يسير مع سيده إلى خارج المنزل، يمر بجانب الضيوف ويلامس برأسه كل واحد منهم مودعاً.

تعَّود جلهود على قضاء يومه متنقلًا بين الحقول والبحيرة وحديقة الطيور، يعود إلى البيت في المساء ليستقبل رفاقه في أول الليل، وينعم بدفء أحضان سومار في آخره. وكانت سومار تبدأ يومها بإيقاظ أخيها الوحيد من النوم، والذي كان يصغرها بحوالي خمس سنوات، ليذهب إلى حقل العائلة، بينما تنشغل هي في ترتيب أمور البيت والعمل في الحاكورة التي تعلمت من جلهود أصول العناية بها، والتمتع بإنتاجها من أزهار وخضراوات وثمار. وبعد أن يخلد أخوها رعدان إلى فراشه بعد العشاء، كانت سومار تذهب إلى بيت جلهود ليقضيا سوياً ما يكون قد تبقى من الليل. وحيث أن جلهود وسومار كانا يلتقيان أحياناً في حضور رفاقهم، ويخرجان سوياً إلى البحيرة والنهر، فإن المجتمع اعتبرهما زوجان، لهما ما لغيرهما من حريات وحقوق، وذلك لأن الزواج في بلاد الكراميد كان يتم بالتراضي بين الرجل والمرأة دون واسطة أو تدخل خارجي من أحد.

حين وصل جلهود في صباح اليوم التالي إلى مكان الاجتماع الذي إتفق عليه مع رفاقه، كانت ترافقه سومار. وهناك وجد في انتظاره ستةٌ من الرفاق، لحق بهم فيما بعد أربعةٌ آخرون. وما أن بدأ الاجتماع حتى بادره الرفاق بأسئلتهم الكثيرة واقتراحاتهم العديدة، إذ قال أحدهم: هل لك أن تخبرنا عن المكان الذي اخترت الهجرة إليه؟

– ليس لدي مكانٌ محددٌ.. ولذا اقترح عليكم أن نبدأ عملية التخطيط للهجرة بالتشاور والتداول بشأن قضية اختيار المكان المناسب، والتفكير في كيفية الوصول إليه.

– هذا جيّد.. لكن هل تنوي أن تبحث عن مكان مأهول، أم عن مكانٍ مهجور؟

– أولاً لا أدري إذا كان هناك مكان مأهول في هذا الكون غير بلاد الكراميد، إلا طبعاً إذا صدقنا الخرافات واعتبرنا الجانب الآخر من النهر مأهولا بالشياطين والجن والأشباح، ولا أعتقد أن أيّاً ّمنا يودّ الهجرة إلى مكان كهذا؟

– لا بد من أنك فكرت في هذا الموضوع، قال آخر، لذا نود أن نسمع رأيك أولاً.

– في الحقيقة، وكي أكون صادقاً معكم، لم أعطي هذا الموضوع حقه من التفكير.. يبدو أن رغبتي في الهروب من هذا المجتمع دفعتني إلى التركيز على عملية الخروج منه، أكثر من التركيز على عملية اختيار المكان الذي يُستحسن الخروج إليه.

– إننا في الواقع لا نعرف مكاناً مأهولاً بالسكان غير بلادنا، لذا لا نستطيع أن نأخذ قراراً بالنسبة لهذه القضية بالرغم من أهميتها لحياتنا ومستقبلنا ووطننا.

– هذا صحيح، قال آخر.. لذلك لا يجب أن يأخذ مكان الهجرة الكثير من التفكير.

– إنني اتفق مع هذا الرأي، واقترح أن نركب قواربنا ونسافر حتى نرى ما يعجبنا.. مكاناً مأهولاً صغيراً، أو مكاناً جميلاً أرضه خصبة، ننزل إليه ونتخذه وطننا جديداً لنا.

– هذا كلامٌ جميلٌ، فيه من المرونة ما يكفي لإرضاء الجميع.

– دعني اقترح إذن ما يلي، قال جلهود: نبحر مع النهر لمدة أربعة أيام متواصلة حتى يكون المكان الذي نختاره في النهاية بعيداً عن بلاد الكرامين، ثم نبدأ في دراسة المواقع التي نمر بها حتى يقع اختيارنا على مكان يروق لنا.. إنني أفضل أن يكون مكاناً صغيراً ومأهولاً بالسكان، كي لا نبدأ من نقطة الصفر، ونضطر لصنع كل شيء بأيدينا.

– إن السفر لأيام بشكلٍ متواصلٍ لا يبدو لي فكرةً جيدةً، قال أحد الرفاق.. إن من الممكن، بل من المحتمل، أن يسلب سفر الليل منا فرصة رؤية واحدٍ أو أكثر من أجمل الأماكن التي قد نمر عليها.. لذا أقترح أن نبحر في النهار، وننصب خيامنا في مكان آمن في الليل، ننام فيه حتى صباح اليوم التالي، ثم نتابع السفر.. لا اعتقد أننا على موعدٍ محددٍ يفرض علينا أن نصل قبل فوات الأوان.

– هذا أفضل الاقتراحات جميعاً، قال جلهود.. إنه أسلمها وأكثرها عمليةً وعقلانيةً، ويعطينا في الوقت ذاته الفرصة لنتناول طعام العشاء معاً، والتداول في أمور حياتنا وأحلامنا، واستعراض أحداث يومنا بهدوء.

وبعد الاتفاق على هذا الرأي، قال جلهود لرفاقه: إن عددنا الآن حوالي ثلاثة عشر شخصاً، قد ينضمُّ إلينا رفيقٌ أو اثنان في الأيام

القادمة، وقد يتراجع رفيقٌ أو أثنين عن السفر فيما بعد.. وهذا يعني أن العدد الذي يجب أن نخطِّطَ له هو ما بين أحد عشر وخمسة عشر شخصاً.. وهذا في اعتقادي يتطلب أربعة قوارب كبيرة.. لا تنسوا أنه سيكون علينا أن نأخذ معنا كل ما نحتاج إليه من طعام ولباس وأدوات للبدء من نقطة الصفر. إن لدي - كما تعلمون - قاربًا جيداً، يحتاج لإصلاحات طفيفة يمكن انجازها في أسبوعٍ على الأكثر، ولذا هناك حاجة لثلاثة قوارب أخرى، لا بد من بنائها أو شرائها من السوق.

- إن السيد مهرود، صاحب البقالة الكائنة بالقرب من المعبد، عرض عليَّ في الأمس بيع قاربه مقابل خمسة هملات، أو العمل لديه لمدة شهرين.

- هذا شيءٌ جيدٌ.. سندفع له المبلغ المطلوب لأنه ليس باستطاعتنا الاستغناء عن خدماتك لمدة شهرين، لأننا ربما تمكنّا من الإبحار قبل انتهاء تلك المدة.. لقد اتفقت مع عربود، المرابي الكبير الذي تعرفونه، على استئجار ما لديَّ من أرض لمدة ثلاثة سنوات مقابل خمسمائة هملة، ولذا لدينا من المال ما يكفي لشراء كل ما سنحتاج إليه من معداتٍ ومأكولاتٍ وملابس وأكثر.

- هذا يعنيَ أن حاجتنا أصبحت الآن لقاربين فقط.

- هذا صحيح.. لذا دعونا نبدأ العمل والبناء بسرعةٍ كي لا تخبو عزائمنا.

بالرغم من تشُّعبِ المناقشات، ومشاركة كل الرفاق تقريباً فيها، إلا أن سومار لازمت الصمت، مما جعل جلهود يشعر بالقلق والخوف.. القلق عليها، والخوف على نفسه بعيداً عنها. وقبل أن تنتهي المداولات، قام الرفاق بتشكيل ثلاثِ لجان عملٍ مختلفة وتوزيع أنفسهم عليها:

لجنة بناء وتجهيز القوارب، لجنة إعداد قوائم المشتريات من معدات ومأكولات وملابس وغير ذلك من أشياء إضافةً إلى القيام باستئناس آراء الغير من الرفاق في موضوع الهجرة، ولجنة المشتريات المكلفة بتوفير كافة اللوازم. ولم يمض شهرٌ ونصف حتى كانت الاستعدادات قد اكتملت تماماً، لكن الخريف كان قد انتهى وترك الشتاء يأخذ مكانه. ومع قدوم بوادر الشتاء اشتدَّت الرياح وبرودة الجو، وتكاثرت الأمطار، تماماً كما توقعها جلهود. وهذا جعل ركوب النهر في مثل تلك الظروف صعباً، وبمثابة مغامرة غير مأمونة العواقب، مما جعل الرفاق يقررون جرَّ القوارب بما فيها من أدوات وتجهيزات وملابس وغيره إلى طرف البحيرة الغربي بالقرب من نقطة خروج النهر من حضن البحيرة، وذلك حتى يكون كل شيء جاهزاً للإقلاع حال تحسن الظروف الجوية مع بدايات الربيع.

وخلال فترة الإعداد للهجرة وانتظار موعد الرحيل، كانت هناك عمليةق أخرى تتم بشكلٍ موازٍ، ولكن دون وعي. كان كل من الرفاق يقوم بإقناع نفسه، وعلى طريقته الخاصة، بأن المجتمع الذي كان يعيش فيه لم يعد يُطاق، وأن هجرانه هي الوسيلة الوحيدة لإدراك معنى الحياة والسعادة، والطريق الوحيد لرؤية عالمٍ جديدٍ، والقيام بتشكيل مقوماته وثقافته واقتصاده بشكل يضمن العدالة ويحقق التقدم ويوفر الحرية للجميع. أما جلهود فقد وجد نفسه يعيد حساباته على ضوء علاقته بسومار. لقد أدرك أخيراً أن بلاد الكراميد لم تكن بالسوء الذي تخيَّله واقنع نفسه به، وأن علاقته بسومار كشفت له عن وجهٍ جديدٍ وجميل للحياة لم يكن يعرفه من قبل. وحين أدرك جلهود أنه كان يعيش حلم حياته لأول مرة، قرر أن لا يسمح لنفسه بأن يعيش حلم حياته لآخر

مرة، حتى لو اضطر للتخلي عن رفاقه وهجر فكرة الهجرة. وهذا جعله يقضي ليله ونهاره قلقاً، يفكر في كيفية إغراء سومار على الهجرة معه، لأنه لم يعد يحتمل فراقها.

إن تواصل العلاقة مع سومار، ليلةً بعد ليلةٍ على مدى أشهر، جعلت جلهود يشعر أن برد الخريف لم يعد يخيفه، وعواصف الشتاء لم تعد تهزه، وعنجهية الجهل لم تعد تعنيه كثيراً كما كان عليه الحال في السابق.. فالبرد أصبح دفئاً في أحضان سومار، وصوت زخات المطر المتساقطة على سطح البيت أصبحت بشائر أمل تنبؤ بيوم مشمس جميلٍ وخفيف الظل بجانب معبدوته، يتراقصان متعانقان على أنغام موسيقى الطبيعة التي تزيل الكلل وتزيح الملل وتبعث في الكون سحراً لا يجارى، وهذا فتح عينيه على عالمٍ جديدٍ داخل عالمه القديم.. عالم يتجاوز التقليد والجهل والخوف من المستقبل، ويحمل له بدلاً من ذلكً كله الكثير من المتعة والسعادة والبهجة وراحة البال. وبينما استمر جلهود في إبداء الحماس للرحيل، كان حماسه يخبو تدريجياً مع كل ليلة يقضيها في حضن حبيبته.

وفي يوم من الأيام، حاول جلهود أن يُقنع أتباعه بطريقةٍ غير مباشرةٍ بإعادة التفكير في موضوع الهجرة، إلا أنهم أخذوا يزاودون عليه وعلى بعضهم البعض في إبداء الحماس للرحيل ومغادرة بلاد الكراميد إلى الأبد. وهذا جعل جلهود يدرك أنه تجاوز الخط الأحمر، وأنه لم يعد بإمكانه التراجع. وهنا بدأ يتساءل، ويسأل نفسه بحزنٍ كأنه يؤنبها.. هل من العدل أو من الحكمة أن أطلب من سومار أن ترافقني؟ هل بإمكاني أن أهاجر وأتركها خلفي؟ هل بإمكانها أن تتركني أهاجر وحدي؟ نعم.. إنني أعرف تماماً أنه ليس هناك شيءٌ أفضل من أن

نعيش معا، لكنني لا اعرف شيئاً عن طبيعة المكان الذي يمكن لنا أن نعيش فيه أحراراً، آمنين بلا منغصات. أسئلةٌ كثيرةٌ ومحيرةٌ ومقلقةٌ لم يجرؤ جلهود على طرحها على سومار، وذلك خوفاً من سماع رد يخّيب آماله، ويحطم أحلامه.. لذا قرر عدم منافشة الموضوع معها قبل أن يحين موعد الرحيل.

وفي مساء يوم هادئ في بواكير الربيع، قال جلهود لرفاقه: اعتقد أن غداً سيكون يوماً مشمساً وهادئاً أيضاً.. لذا أرى أن نكون على كامل الاستعداد، وأن نحاول ركوب النهر في الصباح الباكر إذا صدقت توقعاتي. والآن هيا بنا نُعِدُّ العُدَّة للرحيل، ضعوا القوارب في النهر، وضعوا كل ما اشتريناه من أشياء فيها.. سأنام هذه الليلة في خيمتي هنا بالقرب من القوارب.. سنقلع مع طلوع الشمس، إلا إذا تبدلت الأحوال الجوية.. لا تتأخروا.. سنقلع بمن يحضر، سنعتبر من يتخلف عن الموعد مستنكفاً عن السفر.

- لا تقلق.. لن نتأخر، أجابه الرفاق.

- اقتربت سومار من جلهود عندئذ، بينما كان قلبه يدق بسرعة مضطرباً، وقالت: لا ادري ماذا سيكون عليه حالنا بعد اليوم.. لكنني أريد أن أخبرك أنك ستكون أباً قريباً.. لقد بدأ الجنين يتحرك في بطني قبل يومين.. أرجو أن يكون قدومه خيراً وبداية لسعادة بلا نهاية.. والآن سأذهب إلى البيت، وهناك سأحاول إقناع أخي رعدان بالرحيل معنا.. لا أعتقد أن ذلك سيكون صعباً لأنه ليس باستطاعته أن يعيش في البيت وحده.. سأكون هنا في الموعد المحدد في صباح الغد، وسأحضر معي ما يكفي من الطعام لنا وللرفاق لمدة ثلاثة أيامٍ على الأقل.

- تنفس جلهود الصعداء عندئذٍ وقال: إنك لا تدرين كم أحبك يا سومار.. أنت حياتي وحلم ليلي وأملي.. لا تتأخري.. لن أبحر بدونك.. لكن ما هو الاسم الذي اخترتينه للمولود؟

- لم أفكر في هذا الأمر حتى الآن.. لا يزال الوقت مبكراً.

- لكنني كنت أفكر في هذا الاحتمال منذ شهرين تقريباً، ولقد اهتديت لاسم جميل للبنت، أرجو أن يحوز على إعجابك.. إن لدي احساسا قوياً بأننا سنكون أبوين لبنت أولا، وثم سيأتي الولد.. لذلك ما رأيك أن يكون لي حق اختيار اسم البنت، وتختارين أنت اسم الولد.

- ليس لدي مانع.. ما الاسم الذي تقترحه؟

- نيمار.. لا أدري من أين اخترعه خيالي، لكنَّه يُحدِث صدىً جميلاً في داخلي كلما سمعت نغماته تتردد في أذني.

- اسم جميلٌ حقاً.. دعني الآن أعود إلى البيت قبل أن نتأخر.. إن هناك أشياءٌ عديدةٌ لا بد من إنجازها قبل أن نغادر هذا المكان.

- لا تتأخري يا سومار.. لن أقلع بدونك، ولن يهدأ بالي حتى أراكِ غداً.

- كن مطمئناً يا جلهود.. لن أتأخر.. أنت كل دنياي التي أعرفها والتي لا أريد أن أعرف سواها.

وبعد أن اطمأنَّ جلهود إلى أن سومار لن تتخلف عن السفر، وتأكد من أنها سترافقه إلى عالم المجهول، وأنها تحمل في رحمها بنتاً أو ابناً له، شعر بالسعادة تطغى على كل أحاسيسه، وبالفرحة تداعب روحه المعذبة، وبحالة من الاسترخاء تلقي بظلالها على جسده المتعب وتريحه من عناء التفكير. لذا نام مرتاحاً كطفلٍ لم ينم منذ أيام، وترك العنان لعقله وقلبه كي يحلما أجمل الأحلام.

وحيث أن الرياح لا تجري دوماً كما تشتهي السفن، فإن الفيضانات العاتية التي توقعها جلهود وحذَّر الناس من عواقبها، ونسي أن يأخذ حذره منها، وصلت مع الفجر قبل موعدها بأسابيع، وقبل أن يصحو من نومه ويصحو رفاقه وحبيبته ويَصِلون إليه. وحين حاول شهمان إيقاظ سيده من النوم، وقد أدرك بغريزته قدوم العاصفة، ظن جلهود أن نداءات كلبه مجرد تخيلات تحاول اختطافه من حلمه الجميل. وما كاد يستيقظ على صوت الرعود ومزاريب المطر تتساقط فوق خيمته، حتى كانت الفيضانات قد جرفته ودمرت قواربه، وحملتها إلى عالم المجهول قطعاً من الخشب المحطمة والملابس الممزقة.

حاول جلهود الهروب من عين العاصفة، إلا أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً.. كانت العاصفة أقوى منه وأسرع بكثير، كما حاول شهمان أن ينقذ سيده من الغرق، إلا أنه فشل. لذلك قام جلهود بالإمساك بقطعة من خشب أحد القوارب المحطمة والتعلق بها والركوب فوقها، وتبعه شهمان بالركوب على نفس القطعة الخشبية، حيث استسلما مرغمين لأهواء العاصفة وتسارع مياه الفيضانات. صمد جلهود يومين قبل أن ينهكه الجوع والبرد ويفقد وعيه جزئياً، إلا أن هدوء النهر قليلاً جعل بإمكانه التمسك بالحياة وعدم فقدان الأمل. أما شهمان فقد بقي صامداً دون حراك.. يمد رقبته إلى الماء كلما أحس بالجوع، يصطاد سمكةً أو سمكتين، يأكل إحداها ويشارك سيده في الثانية، ثم يعود إلى جلسته المعتادة، يراقب كل سمكةٍ تحاول الاعتداء على سيده ليصدها أو يقتلها.

وبعد ثلاثة أيام ولياليها من السفر المتواصل، وصل جلهود وشهمان إلى بحيرة الأهاويل في غاية التعب والإرهاق، حيث هدأ النهر هناك

وتاه في عرض البحيرة. جرَّ شهمان سيده من قميصه وساعده على الوصول إلى الشاطئ، وذلك بعد أن اعترضت طريقهم بعضُ النباتات وأدت إلى توقّف قطعة الخشب عن الإبحار. وما أن لامس جلهود اليابسة حتى فقد وعيه ودخل في غيبوبة.. غيبوبة الاسترخاء غير المحدود الذي يحاول إعطاء العقل والجسد والضمير إجازةً قصيرةً لإعادة ترتيب كل أمور الحياة من جديد. تركه شهمان لوحده، وأخذ يركض في كل اتجاه بحثاً عن إنسان في استطاعته مساعدتهم وانقاذ سيده من الموت. وسرعان ما شاهد شهمان الشيخ عثيران الذي كان يتفقد الشواطئ كعادته كل صباح. اعترض شهمان طريق الشيخ، وأخذ ينبح ويجري أمامه في اتجاه المكان الذي كان يرقد فيه جلهود. وبعد عدة محاولات، أدرك الشيخ ما كان يعني شهمان، لذا تبعه حتى رأى جلهود مستلقياً على ظهره، فاقد الوعي، في حالةٍ يرثى لها، وعلى حافة الموت. حمل الشيخ جلهود إلى بيته، حيث قامت زوجته بالاعتناء به حتى استعاد كامل صحته وذاكرته، وأصبح بإمكانه أن يجلس ويأكل بشكلٍ عادي، ويتبادل الحديث مع الشيخ عثيران وأفراد عائلته بارتياح. وكما حكى جلهود للشيخ عثيران قصته مع النهر والشيخ مرعود وحركة التجديد، حكى الشيخ عثيران لجلهود قصة الفلاحيد مع النهر والطوفان.. كيف وصلوا إلى بحيرة الأهاويل، وكيف بدأوا حياتهم من اللاشيء، وكيف استطاعوا أن يبنوا مجتمعاً متحرراً ومتقدماً وسريع التطور. وهكذا اكتشف الضيف والمضيف أنها ينتميان إلى أصول واحدة، وأنهما ولدا في مكانين متباعدين بعد مرور أكثر من ألف سنةٍ على الافتراق ووقوع الطوفان.

بلاد الفلاحيد

بعد أسابيع من الراحة والعناية المكثفة، تعافى جلهود من جروحه ومتاعب رحلته عبر نهر سراد، وأصبح قادراً على المشي والتجوال في أنحاء مدينة غمره، وهذا شجع الشيخ عثيران على أخذه في جولة تفقدية طويلة، شملت كافة قرى بلاد الفلاحيد. ومنذ اللحظة الأولى لخروجه من البيت، أُعجب جلهود بما رآه من تقدم في المجالات الحياتية المختلفة، خاصة في مجال التنمية الاقتصادية، والعناية بالصحة العامة والبيئة، والعمران، والتعليم، وتطور فن الكتابة والتدوين. وكما أعجب جلهود ببلاد الفلاحيد وأهلها، أُعجب الفلاحيد بجلهود وعلمه وفكره وذكائه، وحرصه الواضح على التواصل مع الناس وكسب ودهم وثقتهم به. ومن أجل أن يُؤسَس له موقع قدم ثابت في مجتمعه الجديد، قام جلهود أولاً بالاتفاق مع الشيخ عثيران على أن يقوم الشيخ بتعليمه فن الكتابة ومساعدته على تطوير معارفه في علم الحساب وكتابة الأرقام. وبعد ستة أشهر من دراسة فن الكتابة بشكل مكثف واتقانه، قام بزيارة معظم بيوت الفلاحيد، وقضاء حوالي الشهر في كل قرية من قراهم، يتعرف على السكان فرداً فرداً، صغيراً وكبيراً، ويحكي لهم حكايته مع النهر، ويسرد لهم تاريخ أجدادهم الأوائل، ويصف لهم أحوال الكراميد المعيشية والثقافية، دون أن ينسى محبوبته والجنين الذي تركه في رحمها.

وخلال جولته التفقدية في البلاد والتعرف على جميع سكانها تقريباً، عمل جلهود على جمع كل ما كان لديهم من معلومات ووثائق تتعلق بأصولهم وحياتهم وعاداتهم، حيث استخدمها في رسم شجرة

عائلية لكل قرية، شملت أسماء الأحياء والأموات منذ وصول الأجداد المؤسسين قبل حوالي ألف عام مضت. كما قام أيضاً بإحصاء السكان، وتصنيفهم بناءً على العمر، والمهنة، والحالة الاجتماعية، والدراسة، والهوايات، حيث وجد أن أعدادهم تقارب الربع مليون، أي ما يعادل أعداد الكراميد. وبعد أن انتهى من عمله هذا، قام بتعليق الشجرات العائلية على الحائط الرئيس في قاعة الاجتماعات الكبرى، والتي كانت قد تحولت فيما سبق إلى متحف وطني لبني الفلاحيد، ثم قام بالتعاون مع الشيخ عثيران بالتفرغ لمدة سنة تقريباً أنجز خلالها كتابة تاريخ البلاد وسيرة أهلها وعاداتهم وتقاليدهم، وربط تلك السيرة بسيرة بني الكراميد. وهذا جعل جلهود يغدو خلال سنة ونصف تقريباً المرجع الوحيد فيما يتعلق بتاريخ بلاد الفلاحيد، وأحوالهم الاجتماعية، وأعدادهم، وأوضاعهم الاقتصادية، وأسماء عائلاتهم ورجالاتهم وقادتهم عبر التاريخ، ومراحل تطور بلادهم وحضارتهم في المجالات المختلفة.

اكتشف جلهود أثناء قيامة بمهمة إحصاء سكان بلاد الفلاحيد وكتابة تاريخهم أن أعداد الفلاحيد تساوي تقريباً أعداد الكراميد. وهذا جعله يتساءل عن سبب تساوي السكان في ضوء تفاوت أعدادهم كثيراً بعد الطوفان، إذ بينما كان عدد الكراميد حوالي ٥٠٠٠ شخص في حينه، كان عدد الفلاحيد الذين بدأوا حياتهم بتأسيس قرية غمره تسعة أشخاص فقط. وبناءً على تلك الحقيقة الساطعة، استطاع جلهود أن يطور نظريته الخاصة بتحديد أثر النظافة العامة، والعناية بالصحة والبيئة، والاهتمام بالتعليم، وعدالة التوزيع بالنسبة للدخل في معدلات التزايد السكاني بين البشر. وفي الواقع، اكتشف جلهود أن

معدل التزايد السكاني بين الفلاحيد كان يعادل ضعف معدل التزايد السكاني بين الكراميد تقريباً، مما جعل المجتمعين يصلان إلى نفس النقطة تقريباً بعد مرور حوالي ألف عام. لقد حقق الفلاحيد ذلك المعدل المرتفع نسبياً في النمو السكاني بالرغم من أن الأراضي الزراعية في بلادهم كانت أقلَّ خصوبة من الأراضي الزراعية في بلاد الكراميد، وإن كانت الطبيعة أكثر جمالاً، والنباتات والأزهار والطيور والحيوانات أكثر تنوعاً.

كانت الحرية السائدة في بلاد الفلاحيد من أبرز الاشياء التي لفتت انتباه جلهود، وهذا جعله يرى أن هناك علاقةً وطيدةً بين غياب الحرية وقتل الإبداع وحرمان المجتمع من فرص التقدم، وتبعات التزمت والتعصب الفكري في دفع المفكرين من أبناء الوطن إلى الهروب من وطنهم. ولذلك شعر بسعادة كبيرة تغمر قلبه، بالرغم من البعد عن حبيبته ورفاق دربه.. شعر بأنه كان محظوظاً حين جرفته مياه الفيضانات وحملته إلى بلاد الفلاحيد،حيث تزدهر الحرية الاجتماعية والفكرية، وتتقدم المعرفة العلمية، ويتسع نطاق التعليم، وتكاد أن تختفي الخرافات، وتغيب العقائدية العمياء المكبِّلةُ لحرية الفكر والرأي والحركة، وتتميز الطبيعة بجمال جبالها وروعة غاباتها ونقاء هوائها. وهذا قاده إلى الاعتقاد بأن مهمته في نشر فكره التحرري والعلمي والأخلاقي ستكون سهلة للغاية في وطنه الجديد، وذلك لأنها لا تتناقض مع تقاليد الحياة في مجتمع الفلاحيد، بل تتوافق معها، وتكمل ما كان ينقصها من أفكار تقدمية، ومواقف اجتماعية وتخيلات عقلانية كانت سبباً في خروجه على ثقافة وطريقة حياة ومعتقدات الكراميد والوصول إلى بلاد الفلاحيد.

وفي أول اجتماع تعقده اللجنة الخماسية للإدارة بعد صدور المجلد الأول من كتب جلهود، وبناً على اقتراح من الشيخ عشيران، تمت الموافقة على ضم جلهود إلى عضويتها. وهذا أعطى جلهود فرصةً ثمينةً لم تسنح له في بلاد الكراميد لنشر أفكاره والتأثير في مجرى التطور الاجتماعي والتحول الثقافي والاقتصادي في وطنه الجديد. ولذلك كانت أولى الخطوات التي اتخذها جلهود في هذا الاتجاه، تقديم اقتراح رسمي لرفاقه الجدد يطلب فيه الانضمام إلى كادر العاملين في مجال التربية والتعليم، والإسهام في أعمال لجنة «الحفاظ على البيئة والعناية بالصحة العامة». وكان من أبرز الاقتراحات الأخرى التي قدمها جلهود فيما بعد، ولاقت قبولاً لدى لجنة الإدارة التي أصبحت سداسيةً بعد انضمامه إليها، بناء مدرسة حديثة مشتركة للأولاد والبنات، وترميم مباني وقاعات المتحف الوطني كي يصبح معلماً حضارياً مميزاً يحكي قصة تطور مجتمع الفلاحيد في نواحي الحياة المختلفة، وبناء قاعة اجتماعات كبرى جديدة تتسع لخمسمائة شخص، وتشييد مسرح مفتوح على قمة أقرب تلة من شاطئ البحيرة، وإعادة ترميم سور غمره العظيم ليكون شاهداً على انجازات حضارة الفلاحيد. وهذا جعل جلهود ينغمس انغماساً كاملاً في نشاطات المجتمع، مما أنساه، أو كاد أن ينسيه حبيبته سومار والابنة نيمار التي تخيَّلها في رحم أمها قبل أن تختطفه الفيضانات من بلاده وتفرق بينه وبينها.

لم تمض سنتان على وصول جلهود إلى بلاد الفلاحيد حتى أصبح أشهر رجل في البلاد، يحترمه الناس لعلمه وأخلاقه ونشاطه، وحرصه على القيام بواجباته على أحسن وجه ممكن. وبعد وفاة رئيس اللجنة السداسية، الأخ الأكبر للشيخ عشيران، انتخب جلهود رئيساً

لها بالاجماع، وهذا وضعه من الموقع الذي طالما تمنّى أن يحصل عليه في وطنه الأصلي، مما جعل بإمكانه طرح كل ما يخطر على باله من أفكارٍ بصراحةٍ تامة، وأن يؤثر في مسيرة التطور المجتمعي من الداخل دون حاجة لواسطة. لكن جلهود، وعلى الرغم من كل ما حصل عليه من احترامٍ وتقديرٍ ومكانةٍ اجتماعيةٍ لم يكن يحلم بها من قبل، بقي مخلصا لحبه الأول، لبني الكراميد وسومار، حيث رفض عروض الزواج العديدة التي حاولت اختطافه من حبيبة عمره.. كان دائم التفكير في سومار ونيمار وأتباعه، قلقٌ على أحوالهم المعيشية وأوضاعهم الحياتية، ومحتار في كيفية العودة إليهم بالسرعة الممكنة.

وبعد تفكيرٍ طويلٍ وعميقٍ، توصل جلهود إلى فكرة تخدمه وتحقق هدفه، تعيده إلى حبيبته وتقوم في الوقت ذاته بخدمة الفلاحيد والكراميد على السواء، وبإمكانها في الوقت ذاته وضع حجر الأساس لتوحيد البلدين والشعبين. وتدعو الخطة المقترحة إلى القيام برحلة استطلاعية إلى بلاد الكراميد تحت إشراف لجنة الإدارة، تعيد ربط الفلاحيد بجذورهم وأهلهم، وتعمل على إقامة علاقاتٍ تجاريةٍ وثقافيةٍ بين البلدين والشعبين. وما أن انتهى جلهود من عرض فكرته على لجنة الإدارة حتى أدرك أعضاؤها مدى النفع الذي يمكن أن يعود على كلا المجتمعين، مما جعلهم يبدون تأييدهم وحماسهم لها دون تحفظ. وقبل أن يخبو حماس اللجنة أو يغير أحدٌ أعضائها رأيه، اقترح جلهود عليهم تعميم القرار المتعلق بالرحلة المرتقبة، ودعوة شباب وشابات الفلاحيد إلى الانضمام إليها والمشاركة فيها. وحالَ إعلان الفكرة وشيوع الخبر بين الناس، بدأ الشباب يتسابقون على تسجيل أسمائهم للانضمام للرحلة، خاصةً وأنها كانت برئاسة جلهود الحائز على ثقتهم

وتقديرهم. وفي ضوء الإقبال الشديد على المشاركة اضطرت اللجنة إلى إجراء مقابلات مع المتقدمين للسفر لاختيار الاصلح والأكثر حماساً منهم. وعلى مدى عدة أيام احقة، انشغل جلهود، وانشغل معه أعضاء اللجنة باختيار عشرة أشخاص من شباب وشابات الفلاحيد لمرافقته، وذلك على أساس مشاركة اثنين من كل قرية، واختيار أستاذ وأستاذة لتعليم الفلاحيد فنون الكتابة والقراءة والحساب. وبعد الانتهاء من تلك المهمة، بدأ الشباب في إعداد ما يحتاجونه من حمير وجمال وتجهيزها، وشراء الخيام والمواد الغذائية والأدوات اللازمة لحماية أنفسهم وإعداد طعامهم أثناء ترحالهم. وبناءً على المعلومات التي توفرت لجلهود، وتناقلتها الأجيال عبر قرون عن المسافة بين بلاد الفلاحيد وبلاد الكراميد، قدَّر جلهود أن الرحلة ستستغرق ما بين خمسة عشرة إلى عشرين يوماً.

ومع حلول فصل الربيع، وكان قد مضى على وجود جلهود في وطنه الجديد ما يقارب الأربعة سنوات، أقلع ورفاقه العشرة من غمره، متوجهين نحو الشرق في اتجاه عتره وبلاد الكراميد. لكن جلهود بدأ رحلته وفي فمه بعض المرارة، وذلك لأنه لم يستطع أن يأخذ معه كلبه شهمان، رفيق دربه الأول وصديق غربته الوفي، وذلك لأن الشيخ عثيران طلب منه أن يستبقي شهمان لديه حتى يعود، يستعين به في حراسة الشواطئ ورحلات الصيد التي كان يحبها ويتسلى بها. وفي ضوء ما قدمه الشيخ عثيران لجلهود من خدمات جليلة على مدى السنوات الماضية، لم يكن باستطاعة جلهود أن يرفض طلباً للرجل الذي أنقذ حياته من الهلاك، وعلَّمه القراءة والكتابة والحساب، وساعده على تبُّوءِ مركز القيادة والصدارة في مجتمعٍ غريبٍ عنه.

عودة إلى الوطن

في صباح أحد الأيام الجميلة، تجمعت أعدادٌ كبيرةٌ من الفلاحيد لتودِّع جلهود ورفاقه المسافرين إلى بلاد الكراميد، وتتمنى لهم حظاً سعيداً وعودة آمنةً سريعةً.. إذ رأت تلك الجموع في الرحلة حدثاً تاريخياً هاماً من شأنه أن يعيد ربطهم بجذورهم وأهلهم، وأن يؤثر إيجابيا في مسيرة حضارتهم ومستقبل أبنائهم وأحفادهم. أقلع جلهود ورفاقه بعد أن ودَّعوا الأهل والأصدقاء بفرح، ركبوا على ظهور حميرهم وربطوا جمالهم المحملة بأشيائهم بها واتجهوا نحو الشرق. كان جلهود ورفاقه قد اتفقوا على السفر أثناء النهار، والتوقف عند مغيب الشمس، وقضاء الليل في الخيام، ومعاودة السير في اليوم التالي مع شروق الشمس، وهي الفكرة التي طرحها أحد رفاقه في بلاد الكراميد وعاشت في رأسه، وكأنه يفي لذلك الصديق بوعد قطعه على نفسه. كانت الطريق مريحةً إلى حدٍ كبيرٍ، والجوُّ جميلٌ ومنعشٌ، والرحلة ممتعةٌ بسبب طبيعة المناطق التي مروا بها. وبينما كانوا يسيرون على مهلٍ، كان نهر سيراد يتلوى أمامهم كالأفعى، يتسع أحياناً ويضيق في غالبية الأحيان الأخرى، دون أن يبخل عليهم بأنواع السمك الشهي وبالبط الذي كان يعيش بكثرةٍ في المستنقعات الصغيرة الممتدة على طوله بدءاً ببحيرة الأهاويل.

وقبل مغادرة مدينة غمره رأى جلهود أن أفضل هديةٍ يحملها معه لبني الكراميد هي كميةٌ جيدةٌ من المصنوعات التي اخترعها الفلاحيد وأحسنوا صنعها، كالأواني الفخارية الملونة والأواني الزجاجية والنحاسية المزخرفة، والقماش المصنوع من القطن، ومعدات زراعة الأرض وقطف الثمار وما شابه ذلك، وهي بضائع لا تتوفر في بلاد

الكراميد. إضافةً إلى ذلك حمل جلهود معه كميةً من قصب السكر الذي لم يكن معروفاً لدى الكراميد في حينه، وبعض الحيوانات والطيور البرية التي تقطن منطقة بحيرة الأهاويل وقام الفلاحيد بتدجينها، ومنها ديك الحبش. ولقد أراد جلهود بذلك إطلاع الكراميد على مدى تقدم أولاد عمومتهم وتشجيعهم على التعاون معهم سياسياً بالعمل على تحقيق وحدة الشعبين، واقتصادياً من خلال اقتباس بعض الصناعات وتأسيس شبكات التجارة وتبادل السلع بين البلدين.

سارت القافلة لمدة سبعة أيام متواصلة دون وقوع أيّ حدث هام، ودون حدوث مفاجأة غير متوقعة. إلا أن القافلة اضطرت للتوقف حين اعترض طريقها نهرٌ صغيرٌ يجري بسرعة، حال دون مواصلة السير كالمعتاد. كانت شمس الغروب عندئذ قد خفضت رأسها وأغمضت عيونها استعداداً للنوم، وكان الضباب يزداد كثافةً ويقصّر مدى الرؤية. لذلك قام جلهود بإصدار أوامره بالتوقف ونصب الخيام، على أن يتعاملوا مع مشكلة النهر في الصباح. وما أن أشرقت شمس الصباح في اليوم التالي حتى رأى الرجال أمامهم أشياءً مدهشةً: سلسة جبال طويلة ومرتفعة تقع شمالاً ولا تبعد كثيراً عن مجرى نهر سراد، تكسوها أشجارٌ كثيفةٌ مزهرةٌ ومتعددة الألوان، وأمامها مباشرة تزهو غابة نخيل في غاية الروعة. كان منظر الجبال والأزهار والنخيل سببا لدهشة كبيرة وفرحة لا توصف، مما دفع القافلة إلى قضاء يوم إضافي كامل في ذلك المكان، يستكشفون معالمه وآثاره، ويتمتعون بجمال طبيعته وعذوبة مياهه.

وبعد القيام بجولة استطلاعية شاملة، اكتشف جلهود ورجاله أن النهر الذي اعترض طريقهم كان يتغذى على مياه عدة ينابيع عذبة تنبع

من سلسلة الجبال وتصُّب فيه، وتدفع به إلى السريان بسرعة نحو نهر سراد ليساهم في تغذيته. كانت سلسلة الجبال تشكل فيما بينها هلالاً يحتضن في داخله سهلاً خصباً، تغطيه الأعشاب البرية ونباتات الزينة وشجيرات الورد، ويوفر محمية طبيعية للغزلان، تسرح فيه وتمرح حرةً آمنةً لا يقلق مضجعها حيوانٌ مفترسٌ، ولا ينافسها في مملكتها إنسان. وبعد أن تجوب الينابيع السهل الداخلي، كانت تخرج إلى السهول الواقعة في الخارج، ترويها وتخِّصُب أراضيها، ثم تتجمع في النهر الذي يصب في نهر سراد. كان ذلك النهر، والذي أطلقوا عليه فيما بعد اسم «نهر القمر» هدية الطبيعة لتلك البلاد الجميلة، لا يتوقف عن ترطيب الجو حين تشتد الحرارة، ولا يبخل على الأراضي الممتدة على جانبيه بالماء، يروي الأعشاب والخضار والأزهار، ويوفر للأسماك الدفء كي تنمو وتتكاثر، ويروي ظمأ الطيور التي تمر به وتقف على شطآنه وتتغذى على أسماكه.

وعلى أطراف السهل بالقرب من سفوح سلسلة الجبال، كانت تقف أشجار النخيل مرفوعة الرأس، تشكل غابةً كثيفةً تغطي الفضاء المحيط بها، وتمد أعناقها عالياً لتعانق السحاب، وتحجب الغزلان عن عيون المتطفلين من الحيوانات المفترسة التي تجوب الغابات والجبال المتاخمة. وفي مواسم الإثمار، كان الرطب أو التمر يتساقط من تلك الأشجار على الأرض بكثرة، يوفر غذاءً طيباً لمن يشتهي من الطيور والحيوانات وسماداً يغذي الأعشاب وشجيرات الورد. وإلى جانب أشجار النخيل، كانت دوالي العنب تمد جذورها إلى الينابيع لترتوي من مياهها العذبة، بينما تتمدد أغصانها لتتسلق أشجار النخيل، تحمي ثمارها من عبث الثعالب، وتوفر للعصافير والغزلان ما تشتهيه من مأكولاتٍ شهية.

إذ بينما كانت الغزلان تستحسن طعم أوراق الدوالي الطرية في الربيع، كانت العصافير تهوى مذاق عناقيد العنب في الصيف، وتعيش بالقرب منها حيث تضع أعشاشها على سفوح الجبال أو على أشجار النخيل.

بعد ساعات من التجوال والمتعة، وقبل أن تغرب الشمس، عاد جلهود ورفاقه جميعاً إلى خيامهم ومعهم ما يكفي من سعف النخيل والأخشاب الجافة وأغصان الشجر الكبيرة لإقامة جسر مؤقت فوق نهر القمر، يمكنّهم من العبور إلى الجانب الآخر بسلام. وبعد أن انتهوا من عملية إقامة الجسر، جلس البعض للاستراحة، بينما قام البعض الآخر بصيد بعض السمك وتحضير العشاء، وكان حديث النهر وما شاهدوه وما كانوا قد اكتشفوه في ذلك اليوم المثير، الموضوع الذي شغل بالهم وأخذ الكثير من وقتهم وقام بتسليتهم في ذلك المساء الساحر. كان القمر في تلك الليلة جميلاً ومثيراً كيومهم، يختبئ خلف تلال الضباب الرمادية حيناً، ويظهر حيناً آخر بوجهه الصبوح المبتسم، يناجي الليل بصمت، يغازل نجوم الليل المحيطة به من كل جانب، ويستحضر أرواح العشاق الذين لم يتذوقوا طعم الغرام ومتعة الحب بعد.

اقترح بعض الشباب حين جلسوا حول مائدة الطعام البقاء في ذلك المكان الساحر بضعة أيام أخرى ليستمتعوا بوقتهم ويكتشفوا المزيد من أسرار المكان. لكن جلهوداً لم يوافقهم الرأي وذلك لأن الطريق أمامهم كانت لا تزال طويلةً، ومهمتهم تحتاج لوقتٍ لا يُعرف مداه. قال جلهود، محاولاً سرقة رفاقه من الخيال وإعادتهم إلى الواقع: ما دمنا أول من يكتشف هذا المكان، فإن من واجبنا، ومن حقنا أيضاً أن نطلق عليه ما شئنا من الأسماء حتى نشعر بأنه لنا، ونغرس في نفوسنا الشوق إليه، وإنني أعدكم أن نتوقف هنا طويلاً في طريق العودة إلى بلاد الفلاحيد،

وذلك من أجل التعرف على كل بقعة وكل هضبة وكل كنز من كنوز هذا المكان الساحر. وبعد مداولات تخللها الكثير من المداعبات والضحكات، اتفقوا على تسمية المكان «أرض القمر»، وتسمية النهر الصغير «نهر القمر»، تيمُّناً بتلك الليلة القمرية الجميلة، وتسمية السهل الداخلي «واحة الغزلان»، وتسمية سلسلة الجبال «جبال الخير» بسبب غزارة مياهها وكثافة أشجارها وكثرة عطائها من الحيوانات والطيور والثمار.

وفي صباح اليوم التالي، أقلعوا كالمعتاد مع طلوع الشمس، وتكرر الحال لمدة ستة أيام أخرى متتالية دون وقوع مفاجآت جديدة. وفي اليوم السابع، وقبل أن يظهر القلق على وجه جلهود الذي كان يحاول كبت مخاوفه في صدره وإخفائها عن رفاقه، لاحت في الأفق معالم بلاد الكراميد.. رأى جلهود بعض الجبال التي يعرفها، وتعّرف على بعض الطيور التي تسكنها، مما جعله يدرك أنهم كانوا على وشك الوصول إلى مشارف بحيرة البهاليل.. شعر عندها بالارتياح وأخذت كل المخاوف التي ساورته طوال الرحلة في الاختفاء تدريجياً، وعادت البسمة إلى وجهه والطمأنينة إلى قلبه المرهق بالإثارة والترقب. إلا أنَّ الشمس كانت حينئذ في طريقها إلى الزوال، وكان أمام القافلة ثلاث ساعات تقريباً قبل الوصول إلى محطتها الأخيرة في وسط عتره. وكي يتجنب الدخول إلى البلاد في الليل والتسبُّب في إثارة الرعب بين الناس، طلب جلهود من رفاقه التوقف للاستراحة، وقضاء ليلتهم على مشارف البحيرة، حيث أخذ كل شاب وشابة قسطاً وافراً من النوم والراحة، ولكن قبل الخلود إلى النوم تشاوروا في كل الأمور التي تتعلق بمهمتهم وكيفية القيام بها على أحسن وجهٍ ممكنٍ.

استيقظ الرفاق في صباح اليوم التالي قبل الموعد ليجدوا جلهود يرتدي لباساً مختلفاً تماماً من حيث الزي واللون عما كان يلبسه طوال فترة وجوده في بلاد الفلاحيد.. كان الفلاحيد الأوائل، وانسجاماً مع غربتهم وقرارهم ببدء حياة جديدة بتقاليد جديدة، قد قاموا بتغيير أزيائهم وطريقة لباسهم وحياتهم عما كان عليه الحال في بلاد الكراميد. وحين حملت الأقدار جلهود إلى بلادهم قبل حوالي أربعة سنوات، كان عليه أن يجاريهم في عاداتهم، وأن يقلدهم في الكثير من طبائعهم، وذلك كي لا يبدو غريباً عنهم، إلا أنه بالرغم من حبه لموطنه الجديد وعادات أهله، احتفظ بملابسه القديمة الممزقة في بيته حتى يحين الوقت المناسب للعودة إلى بلاد الكراميد وارتداء شيءٍ يشبهها. لذا قام جلهود حين اقترب موعد الرحيل بشراء قماشٍ جديدٍ وفصّله على مقاسه وعلى طريقة الكراميد استعداداً للرحلة، وذلك على أمل أن يدخل عتره كما خرج منها تقريباً. وبينما كان جلهود يقوم بتحسين هندامه وتمشيط شعره الطويل، كان رفاقه يقومون بإعداد الطعام ووضع أشياءهم على جِمالهم استعداداً لمواصلة الرحلة، ويبدون إعجابهم بملابس زعيمهم واستحسانهم لها. وبعد أن اكتملت الاستعدادات، وانتهوا من تناول طعام الافطار، أشار جلهود عليهم بالتحرك في اتجاه بحيرة البهاليل، حيث دخلوا البلدة في وقت الظهيرة.

اتجه جلهود بعد دخوله مدينة عتره مباشرة إلى البيت العام، والذي كان أحد أصدقاءِه المقربين قد تولى إدارته منذ سنين، وهناك طلب جلهود من سيراج أن يعتني بالضيوف الذين أحضرهم معه، وأن يجد لهم مكاناً لائقاً للسكن، وأن يسهر على راحتهم. فرح سيراج كثيراً حين رأى جلهود بكامل صحته، حيث أخذه بالأحضان، وقدم له ولرفاقه

الماء والغذاء. كان جلهود يستعجل الحديث مع ابن عمه، دون أن يسأله عن أخبار سومار، إلا أن سيراج قال له دون مقدمات: إن سومار جعلتك فخوراً بها في غيابك يا جلهود، لن أقل لك أكثر من ذلك.. سترى بعينيك كم هي ذكيةٌ وإنسانةٌ رائعةٌ. وبينما كانا يتبادلان الحديث والمعلومات عّما حدث وعمّا تغير في غياب جلهود عن الوطن، كانت الإشاعات بعودة جلهود سالماً تجتاح البلدة. وحين وصل الخبر إلى مسامع سومار، قامت على الفور بتغيير ملابسها، ووضع أفضل ما كان لديها من ثياب وعطور، وبدء عملية الاستعداد لاستقبال الزوج والحبيب. وبسبب عدم تأكدها من صدق الخبر، لم تخبر طفلتها بأن والدها قدعاد، بل فضلت أن تتركها تلعب كعادتها في حديقة البيت، بينما جلست هي على عتبة الدار، كما كانت تفعل في الماضي، تنتظر بدراً طال غيابه، وعشيقاً فاض شوقها إليه.

بينما كان جلهود لا يزال يصارع المرض والكسور التي أصابته أثناء رحلته القصرية فوق مياه نهر سراد الذي حمله إلى بلاد الفلاحيد قبل حوالي الأربع سنوات، كانت الحياة في بلاد الكراميد تستعيد عافيتها بصعوبة، وتعود إلى طبيعتها ببطء. إذ بعد أن هدأت الفيضانات التي حطمت قوارب جلهود وخطفته وكلبه شهمان وحملتهم بعيداً، اكتشف الناس أن الفيضانات قتلت بعض المواشي، ودمرت المعبد على رأس من كان فيه من كهنة في الليلة الأولى لوصول العاصفة، وتسببت في اختفاء جلهود عن الأنظار. كان عربود، احد رفاق جلهود المقربين، في طريقه إلى النهر حين داهمت العاصفة البلاد على حين غرة، وذلك من أجل الانضمام إلى الركب والإقلاع مع الرفاق إلى المجهول. لكنه حين وصل إلى المعبد في طريقه إلى موقع القوارب وحيث كان يغفو جلهود بالقرب

من شاطئ بحيرة البهاليل، اكتشف أن مياه الفيضانات غمرت كل الأراضي المحاذية للشاطئ، وأقفلت كافة الطرقات المؤدية إلى النهر، وحالت بالتالي دون وصوله إلى حيث أراد.

حاول عربود أن يلتجئ إلى المعبد، إلا أن الشيخ مرعود ابن مفسود، حارس المعبد وشيخ التقليديين من دعاة الأصالة وتمجيد التراث، رفض استقباله قائلاً: إن عدم إيمانك بالآلهة من المؤكد أن يثير غضبها علينا إذا سمحنا لك بالاحتماء في المعبد، وقد يتسبب ذلك في هلاكنا جميعاً.. إن عليك أن تعود إلى بيتك أو تجد لك مكاناً آخراً تحتمي به. حاول عربود أن يشرح لمرعود حال الطرقات في الخارج، ومصيره المحتوم إن بقي في عين العاصفة دون مأوى، إلا أن مرعود أغلق أذنيه وأصر على موقفه الرافض.. قال مرعود موجهاً كلامه لعربود: لقد اخترت أنت ورفاقك وزعيمكم جلهود ابن مشهود عدم الإيمان، وعليكم أن تتحملوا نتائج أفكاركم المغرضة وأفعالكم المسيئة للآلهة وأتباعها. كان مرعود في حينه يقيم الصلوات والدعوات في المعبد مع سبعة من أقرب المقربين إليه من الكهنة والأتباع، يدورون حول الأصنام يبتهلون إليها ويستغيثون بها كي تتدخل لإيقاف الفيضانات، طالبين منها حماية البلاد والعباد من غضب نهر سراد وعنفوان المياه الهائجة.

طلب سمحود، أحد رفاق الشيخ مرعود المتواجدين في المعبد من رفاقه إيواء عربود في المعبد حتى الصباح، وذلك خوفاً على حياته من الموت، إلا أنه فشل في إقناعهم بوجهة نظره.. كان خوف مرعود ورفاقه من غضب الآلهة، وحرصهم على حياتهم سبباً في رفضهم توسلات عربود وعدم تلبية طلب رفيقهم سمحود. وحين أيقن سمحود أنه ليس باستطاعته مساعدة عربود في تلك الليلة العاصفة حالكة السواد،

احتجّ على موقف رفاقه غير الإنساني، وقام بالتخلي عنهم والخروج من المعبد، وربط مصيره بمصير عربود، حيث بدءا على الفور عملية البحث عن فكرة تنقذهم من الهلاك، أو عن مكانٍ آمن يمكن اللجوء إليه والاحتماء في كنفه مؤقتاً حتى تهدأ العاصفة. وما أن خرجا من المعبد الذي كانت المياه قد بدأت تتسرب إليه بغزارة، حتى رأوا شجرة الجميز الكبيرة المعمرة على بعد أمتار، وهي الشجرة التي تحدَّت الطوفان الذي وقع قبل ألف عام. كانت الشجرة تقف شامخةً، غير معنية بما كان يجري حولها من فيضانات وتشنجات وتوُّلات ومخاوف. وحيث أنه لم يعد بإمكان عربود ولا سمحود رؤية معالم الطريق في الظلام الحالك والوصول إلى بيوتهم بسلام، وذلك لقربهم من عين العاصفة، فإن سمحود اقترح على زميله عربود تسلق شجرة الجميز، وقضاء تلك الليلة المرعبة في أحضانها.

وأثناء وجودهم فوق الشجرة في انتظار هدوء العاصفة وتوقف الفيضانات، أخذا يتبادلان الحديث ويبوح كل منهما بسِّره للآخر. قال عربود لزميله سمحود أنه حين ذهب إلى المعبد لم يكن يبحث أساساً عن ملجأ يلتجئ إليه، بل كان في الحقيقة مشوش الفكر، وقلقٍ غاية القلق على مستقبله، وغير واثقٍ من صواب قراره بالرحيل مع جلهود إلى المجهول. ولذا كان يرغب في زيارة الآلهة على أمل أن تساعده على اتخاذ القرار الصائب، وتريحه من عذابات الظنون التي كانت تتلاطم في رأسه بلا رحمة. لم يستغرب سمحود ما سمعه من زميله عربود، وذلك لأنه كان أيضاً يعاني من تشوشٍ في الفكر، وضبابية في الرؤية، وشعورٍ عارم بعدم الارتياح لتصرفات مرعود ابن مفسود وأتباعه، إذ بدأ بعد ليلة المبارزة يشعر بالشك في صواب فكرهم، ومصداقية

آلهتهم، وحسن نواياهم.

لذلك قام سمحود بكشف واحد من أهم أسرار دعاة الأصالة وحماة التقليد التي كان من المفروض أن يخفيها عن جميع الناس، إذ قال لزميله عربود أن الشيخ مرعود كان قد دعاهم للاجتماع على مدى ثلاث ليالي متتالية، لا من أجل الصلاة والدعاء في المعبد، ولا من أجل تمجيد الآلهة وطلب رضاها، بل من أجل التآمر على جلهود ورفاقه، وإيجاد طريقة للتخلص منهم، وذلك لأنهم – كما قال مرعود – كانوا يشكلون خطراً على حركة التقليد وقادتها وأتباعها وعلى امتيازاتهم الاجتماعية، ويعملون في الوقت ذاته على تقويض مصداقيتهم ومصداقية آلهتهم بين الناس. وحين سأل سمحود رفيقه الشيخ مرعود عن الجريمة التي ارتكبها جلهود ورفاقه، والتي يستحقون بموجبها القتل، قال مرعود: ألم تسمع ما قاله جلهود في المبارزة؟ لقد شكك في إيماننا وقيمنا، وهاجم آلهتنا، وانتقد معتقداتنا بشدة، وخرج على مبادئ مجتمعنا وتقاليده المتوارثة عبر مئات السنين.. ولذا أصبح من واجبنا، ومن حق الآلهة علينا، أن نتخلص منهم بأية طريقة كانت. أجابه سمحود حينئذ: إذا كانت الآلهة متضايقةً إلى هذا الحد من جلهود ورفاقه، وأن أفكاره متناقضةٌمع رغباتها وما تريده لنا من خيرٍ وهدوءٍ بالٍ وسعادة كما تزعم، فلماذا إذن لا تقوم الآلهة بالتخلص منهم بطريقتها الخاصة؟ أليست الآلهة قادرة على فعل ما تريد؟

أجابه مرعود بغضب: نعم.. إن الآلهة قادرة على القضاء عليهم في لحظات، إلا أنها تريد اختبارنا، والتأكد من مدى إخلاصنا لها، واستعدادنا للتضحية في سبيلها وفي سبيل ما نؤمن به من مبادئ، ولذلك تركت أمر جلهود ورفاقه لنا، وإن علينا أن نقوم بهذه المهمة استجابةً

لرغباتها وإخلاصاً لمبادئنا وحفاظاً على مستقبل أولادنا وأحفادنا من بعدهم. رد سمحود قائلاً: لكنني لم أسمع تلك الأوامر التي تتحدث عنها، ولا اعتقد أن أيّاً من الرفاق سمعها.. إن الآلهة، إذا صدقت يا مرعود فيما تقول، تريد في الحقيقة التضحية بنا وبأمننا الاجتماعّي.. تريد منا أن نقوم بتدمير مجتمعنا، وقتل أصدقائنا، والاعتداء على أهلنا لمجرد أنهم يختلفون معنا في الرأي.. هذا منطقٌ خالٍ من المنطق، وأنا غير مقتنعٍ به على الإطلاق، ولن انصاع إليه، ولن اشترك في مثل هذه الجريمة النكراء مهما كانت النتائج. وما كاد سمحود يكمل كلامه حتى دخل عربود إلى المعبد طالباً الاحتماء فيه من عين العاصفة، مما جعله يتسبب في قطع ما كان يدور من حوارٍ ساخنٍ في داخله، ويعطي سمحود الفرصة للاحتجاج على موقف زميله مرعود، ويمنحه المبررات الكافية للخروج من المعبد دون أسف.

نعم.. قال عربود لزميله الجديد، إن جلهود علمنا أشياء كثيرة، كان أهمها قوله باستمرار إن كل مجتمع إنساني يضم الكثير من الرجال والنساء الخيرين الذين يعملون الخير دون أن يتوقعوا مكافأةً مقابل ما يقومون به من أعمال خيرية، والعديد من الناس الذين يرتكبون الأخطاء بحق الغير والجرائم أحياناً دون مبرر لما يقومون به من أفعالٍ شريرة. من ناحية أخرى، إن بالإمكان إقناع بعض الشريرين بالعدول عن مواقفهم وتعديل سلوكياتهم باستخدام سياسة الترهيب أو الترغيب أو كليهما، إلا أنه ليس بالإمكان إقناع الخيرين من الناس بارتكاب جرائم بحق الغير دون جرِّهم أولا إلى الإيمان بأفكارٍ عقائديةٍ تلغي العقلانية في رؤوسهم، وتقودهم إلى رفض التعددية الثقافية والفكرية في المجتمع، فالعقائد بغض النظر عن طبيعتها وأهدافها ونوايا أتباعها،

تقوم على التفرقة ضد الآخر على أساس الفكر، أو الرأي، أو الموقف، أو الانتماء العشائري، وبالتالي لا تقبل ولا يقبل أتباعها المتعصِّبون لها مبدأ التسامح، ولا مبدأ المساواة، ولا مبدأ الحرية، ولا مبدأ احترام الرأي الآخر وحقه في التعبير عن نفسه، ولا حق من يخالفهم الرأي في إسماع رأيهم للآخرين من افراد المجتمع والاحتكام لرأي الأغلبية الشعبية.

وما أن جاء الصباح حتى كانت العاصفة قد هدأت كثيراً، وذلك على خلاف الحال بالنسبة للفيضانات التي لم تهدأ، حيث استمر منسوب المياه في الارتفاع لمدة يومين متتاليين قبل أن يبدأ في التراجع. إلا أن سمحود وعربود شعرا في مساء اليوم الثاني أن بالإمكان النزول عن الشجرة والعودة إلى بيوتهم. وما كادت أقدامهما تلامس الأرض حتى تجمع الناس من حولهم، يسألونهم عما حدث للمعبد، وعن مصير الشيخ مرعود ورفاقه. كانت سومار وبعض رفاقها من أتباع جلهود يتساءلون عن مصير زعيمهم، والقلق يبدو على وجوههم، والدموع تنهمر من عيونهم. وبسبب تحول الشاطئ إلى مستنقع من الطين والنفايات والأوحال، لم يكن بإمكانهم المغامرة بعيداً والذهاب إلى حيث كان يرقد جلهود للاطمئنان عليه. وبعد أسبوع تقريبا، اكتشفوا أن جلهود لم يعد له اثر.. لم يكن بالإمكان اعتباره حياً أو ميتاً، وذلك لأن سومار رفضت فكرة موته.. لقد أحسَّت به حياً في خيالها، وشعرت أن دقات قلبه انتقلت إلى قلبها تتناغم معها وتُتطمئنها بأن جلهود لا زال حياً بالرغم من اختفاءه عن الانظار. لذا عاشت على أمل أن يعود إليها ثانيةً، ووهبت نفسها لدعوته التي اقتنعت بها وجاء الطوفان ليؤكد وجهة نظره ويعزِّز تنبؤاته، ورفضت بالتالي كل عروض الزواج التي

عُرضت عليها أثناء فترة غيابه عن عتره.

بعد موت الشيخ مرعود ابن مفسود ورفاقه في المعبد ضعفت حركة التقليديين كثيراً، خاصةً بعد أن كشف سمحود سر تآمرهم على حياة جلهود ورفاقه، واستعدادهم لإغراق المجتمع في بحر من الدماء باسم آلهتهم المصنوعة من طين، وخدمةً لمصالحهم وحفاظاً على امتيازاتهم الاجتماعية، وتكريساً لأفكارهم الظلامية المتناقضة مع مبدأ الحرية. وفي المقابل، زادت مصداقية جلهود ابن مشهود وأفكاره التحررية، خاصة بعد أن َصدُقت توقعاته بالنسبة لحجم الفيضانات التي حملها نهر سراد في ذلك العام، وتأكيداته على أن الآلهة المزعومة لم يكن لها وجود، ولا تملك حولاً ولا قوةً ولا تستطيع حماية بيوتها من الدمار. ولم تمضِ سنةٌ على حدوث الفيضانات حتى أصبح دعاة التغيير والحرية من أتباع تيار التجديد يمثلون التيار الفكريّ الرئيس في بلاد الكراميد، وأصبحت سومار زعيمةً لذلك التيار، تُغذيه بأفكارها المتجددة باستمرار، وتقوده بشخصيتها القوية الجذابة، وتمنحه المزيد من المصداقية بمواقفها الإنسانية والأخلاقية البناءة.

بعد أن اطمأنَّ جلهود على وضع رفاقه في البيت العام، توجه إلى بيته ودقات قلبه تتسارع بشكلٍ مضطربٍ أفقده القدرة على السيطرة على مشاعره. وحين وصل إلى حديقة البيت، كانت نيمار أول من استقبله هناك والبسمة تعلو وجهها الصغير الذي يتدفق جمالاً وحيويةً. لم يكن جلهود بالطبع متأكداً من هوية الطفلة التي استقبلته، ولذا بادرها بالسؤال عن اسمها واسم أمها. وبعفوية طفولية لا إرادية، أجابته قائلة: اسمي نيمار، واسم أمي سومار. حملها بين يديه، ضمَّها إلى صدره وقبَّلها بحرارة، ثم سألها عن اسم أبيها ومكان وجوده.

قالت: أنا بنت جلهود بن مشهود، لكن أبي ترك البيت قبل أن تلدني أمي.. لكنه سيعود قريباً.. إنني اخرج كل يوم في هذا الوقت بالذات لانتظره في الحديقة التي يحبها. قال لها جلهود والدموع تتساقط من عينيه بغزارة، أنا جلهود، وأنت ابنتي وحبيبتي وأعزُّ الناس إلى قلبي. وحين سمعت تلك الكلمات، لفّت نيمار يديها الصغيرتين حول عنقه، وضمته إلى صدرها، وعصرته حتى شعر بأنه بدأ يذوب في حضنها.. أصبحت نيمار في تلك اللحظة هي الأم الحنونة، وأصبح جلهود هو الطفل الخائف الذي يحتمي بحضن أمه بحثاً عن الدفء والطمأنينة التي افتقدها طويلاً.

وما أن ظهر جلهود من خلف شجيرات الورد حتى قفزت سومار من مكانها، وكأنها فراشةٌ شمَّت رائحة أول ورود الربيع فسارعت تعانقها وترشف الرحيق من قلبها. تعانقا طويلاً حتى أفرغا كل ما في عيونهما من شوق عذَّبته سنوات الغياب، وسكبا كل ما في قلبيهما من عشق عتّقته أيام الحرمان حتى غدا خمرا يسكر الروح، ويحمل العاشقين إلى عالم الخيال الذي لا يعرف غير الحب والمتعة. وبعد أن هدأت عاصفة الشوق، وأفسحت المجال للحب الدفين كي يكشف عن مكنون ذاته، وأعطت للحنان الفرصة كي يمارس دور الأمومة الغالية، قالت سومار لجلهود: لا تتكلم كثيراً، إن الليل أمامنا طويلٌ، لا تدع بعض الكلمات تسرق من اللقاء عذوبته.. لقد جهزت لك الماء الساخن، والعشاء على النار.. وبعد الحمام والعشاء، سيكون لنا أحاديث وأحاديث. عاش جلهود في عتره سعادةً لا توصف.. كانت أكثر بكثير مما توقع وتمنى.. لقد عرف الحب كما لم يعرفه من قبل، وغرق في بحار العشق التي لا تعرف نهايةً، ومارس الأبوة في أروع صورها بعد أن حرم منها طويلاً.

ومن خلال تجواله في عتره والقرى المحيطة بها، لاحظ جلهود حدوث تغيرات مجتمعية كبيرة في بلاد الكراميد.. تحولات اجتماعية لم يحلم بها أبداً، ولا في أحلى ليالي الخيال والهروب الواعي من ظلام الواقع. كانت أفكاره، وبفضل سومار وذكائها وقيادتها الحكيمة لحركة التغيير والتجديد، قد تغلغلت في النفوس وبدأت تؤثر في آراء الناس ومواقفهم، وتنعكس على سلوكياتهم الفردية والمجتمعية بوجٍ عامٍّ. ومن مظاهر التحول التي رآها جلهود بوضوح، ميل الناس نحوَ النظَّافة الشخصية، والتوجه نحو العناية بالبيئة التي أصبحت أكثر نضرةً ونقاوةً، وحدوث تراجع ملحوظ في أعمال السحر والشعوذة، يقابله توسُّعٌ لا بأس به في النشاطات الاقتصادية والعمرانية، وتوجُّهٌ شعبيٌّ عامٌّ نحو الحرية والعقلانية. كانت قصة سمحود التي سمعها من رفيقه عربود أكثر القصص التي أثارت خياله وكادت أن تسرق النوم من عينيه، حيث رأى فيها دلالةً واضحةً على نقاء الإنسان حين يبتعد عن عقم العقائد وعبادة آلهة صماء، وحين يكتشف عدوانية العقائد المتزمتة ونوايا من يقف وراءها من قادةٍ موتورين وأتباعٍ مضللين.

لذا كان أول ما فعله جلهود بعد استعادة ما فاته من ليالي العشق والتمتع بابنته نيمار وتعُّودها عليه، هو السؤال عن سمحود والاجتماع به، وذلك لسماع قصة الشيخ مرعود وما حدث في تلك الليلة الظلماء داخل المعبد. لكن جلهود اكتشف أنه كان عليه أن يسافر يوماً كاملاً إلى أقاصي بحيرة البهاليل في الطرف الشرقي منها كي يلتقي مع سمحود الذي كان يقضي معظم أوقاته هناك يتعبد على طريقته الخاصة. وبعد أن قص سمحود حكاية المعبد على جلهود، قال: حين التحقت بمرعود وأصبحت واحداً من أتباعه المقربين، كنت في الواقع

ابحث عن روحانيات تطمئن نفسي وتريح قلبي المضطرب، وظننت أن الطقوس التعبدية في المعابد هي السبيل الوحيد للإحساس بما كنت أبحث عنه وأشعر بالحاجة إليه من طمأنينة وروحانيات، لكن لم تمضِ أسابيعٌ قليلةٌ حتى اكتشفت أن الطقوس التعبدية والروحانيات شيئان مختلفان تماماً، بل إن التناقض فيما بينهما يكاد أن يغلب على التوافق أو الانسجام. ففي المعبد حيث تقام الطقوس، لا يتم التأمل في الحياة، ولا التفكر في جمال الكون وحُسن صنعه وكماله وآلية عمله المعقدة، بل كثيراً ما تقوم الطقوس بجِّر الناس إلى الإيمان الأعمى بأشياء لا تخضع لمنطق العقل، وحثهم على كراهية كل من لا يؤمن بما يؤمنون به من أفكارٍ وخرافات، والحقد عليهم والتآمر ضدهم أحياناً، وذلك بدلاً من حثهم على التوصل إلى الحقيقة من خلال التحليل والتأمل واستخدام العقل والتقرب من الطبيعة وملاحظة آلية عملها الرائعة.

إن مرعود ابن مفسود كان يتعبد أحياناًطالباً من الآلهة أن تحقق له أحلامه، لكنه كان يؤدي الطقوس غالباً طلباً لقيام الآلهة بإلحاق الأذى بالغير وإهلاكهم. إن ضحالة فكر مرعود من ناحية، وعمق إيمانه بصلاحية معتقداته وسلامتها من ناحية ثانية، جعلته يكره كل فكرٍ آخر، ويحقد على كل من كان لديه رأي مخالف. إن من جملة ما آمن به مرعود واعتقد أن بإمكانه أن يحققه هو توظيف الآلهة لخدمة أغراضه ومآربه الخاصة في تعزيز سطوته على المجتمع وإلحاق الأذى بأعدائه. وفي الواقع، كان مرعود يتعبد ليس خدمةً للأهداف والمبادئ التي كان يدعي أن الآلهة تريد نشرها بين الناس، بل من أجل توظيف الآلهة لخدمة أهدافه التي غلب عليها طابع الكراهية والتفرقة ضد الآخر. وحيث أنه كان يعتقد بأن الآلهة لا تضمر خيراً لغير أتباعه، فإن إيمانه بالنصر

على الغير كان قوياً، مما دفعه للتصرف بعنجهية وفظاظة. وهذا في رأيي المتواضع هو نتيجةٌ طبيعيةٌ للتزُّمت الفكري والإيمان السطحي المبني على الجهل برموز وطقوس لا تمتُّ لحياة الإنسان بصلة. لذا شعرت أن بقائي إلى جانبه من المؤكد أن يقودني إلى القبول بإغلاق عقلي تماماً والتنازل عن حقي في التفكير، ويحولني بالتالي إلى آلة في يد مرعود مسخِّرة للقيام بأعمال ضد الآخر لا يقبلها ضميرٌ حُي. لذا كان علي أن أبحث عن روحانياتي في مكان آخر وبأسلوب مختلف بعيداً عن كل الآلهة الصمَّاء والمعابد المفرغة من كل فكر والعقائد الجامدة جمود الجليد في أشهر الشتاء الباردة. وهذا ما قادني إلى هذه الخلوة مع الطبيعة أتمتع بسحرها وأتأمل عبقريتها، استمع لهمسات الريح ونسيم البحر الآتي من خلف الجبال، استنشق عطر الصباح كل صباح، أناجي الطيور المهاجرة، أتسلق الجبال الشاهقة، اقطف ما يحلو لي من الورود والثمار الناضجة، وأتابع الغروب حتى تغمز الشمس بطرف عينها مودعةً النهار قبل قضاء ليلتها في حضن البحيرة.. ترتاح نفسي، يطمئن قلبي، وتنام عيني على حلم جميل يتجدد كل يوم.

بعد أن سمع جلهود درس ذلك اليوم غير العادي، ذهب إلى الحديقة التي تعود الذهاب إليها قبل الطوفان، وهناك خَلَى بنفسه ساعات حتى استوعب الابعاد العميقة لما سمعه من سمحود. وفي اليوم التالي، قرر جلهود البحث عن مكان مناسب لفتح مدرسة في عتره، ودعوة شباب وشابات الفلاحيد للالتحاق بها، والبدء بجولة تفقدية في بلاد الكراميد. استغرقت جولة جلهود ثلاثة أشهر كاملة، أطّلع خلالها على كل المستجدات من عمران ومشاريع اقتصادية ومواقف وقيم وسلوكيات جديدة. وبينما كان يقصُّ على الناس قصته مع النهر والفلاحيد اثناء

زياراته للبيوت والمزارع والأماكن العامة، دأب على جمع ما كان لدى البعض من معلومات شفوية وحكايات عن أصولهم وأنسابهم، تماماً كما فعل في بلاد الفلاحيد من قبل. وحين شعر بأنه جمع كل ما يمكن جمعه في ظل ظروف الأمية السائدة في تلك البلاد واعتماد الناس على ذاكرة شفويةس جماعية لا غير، قام برسم شجرة عائلية لكل مجموعة ذات أصل واحد، ومقارنتها بأشجار العائلات التي احضرها معه من بلاد الفلاحيد، ومن ثم قام بتنسيق المعلومات وربطها بعضها ببعض، حيث استنبط شجرة نسب ضمَّت أبناء الكراميد والفلاحيد معاً. وهذا كان مصدر فرح عارم في البلاد، أدهش الناس جميعاً، خاصةً كبار السن منهم، وتسبب في حماس شباب الكراميد للتعلم والدراسة والقيام بزيارة بلاد الفلاحيد والتعرف على أقاربهم والتواصل معهم.

ومما ساعد جلهود على إتمام تلك المهمة الكبيرة بسرعة وكفاءة، وإثارة حماس الناس في بلاد الكراميد لما كان يفعله من أمور، وجود عشرة من شباب وشابات الفلاحيد إلى جانبه. إذ قام هؤلاء بإعطاء مثال جيد يُحتذى به لأبناء وبنات عمومتهم، وذلك من خلال تصرفاتهم الجادة، ومواقفهم الأخلاقية، ونشاطاتهم اليومية التي لم تعرف الكسل أو التقاعس.. مواقف وسلوكيات عكست فكراً علمياً وعملياً، وتفكيراً عقلانياً، وموقفاً أخلاقياً، والتزاماً مجتمعياً سليماً، وتوجُّهاً نحو التوحد مع أبناء عمومتهم، والعمل سوياً من اجل أن يعُّم التقدم والسلم والرخاء كافة أرجاء البلاد، ويشمل كافة أبناء الشعبين. وهذا أعطى دفعةً قويةً لتيار التجديد الذي أسسه جلهود وقادته سومار طيلة فترة غيابه في بلاد الفلاحيد، وتسبب في اقبال شباب الكراميد على الانضمام إليه وتوسعة قاعدته الشعبية، وزيادة فاعلية نشاطاته على

أرض الواقع، وساهم في تشجيع الكراميد على التفكير بالتوحُّد مع أبناء عمومتهم من الفلاحيد. ولمَّا كان لكل فعل رد فعل، فإن إحساس كل عائلة من الكراميد بأن لها جذراً هنا وفرعاً هناك أدّى إلى نمو علاقة جديدة بين الناس تبلورت مع الأيام والسنين على شكل رابطة عشائرية، حيث أصبح العدد الكبير نسبياً شرطاً أساسياً لتكوين العشيرة، وأصبح التعصب لعادات وتاريخ وزعامات العشيرة مطلباً أساسياً لتماسك أبناء العشيرة الواحدة. وهذا استوجب وقوف أبناء العشيرة الواحدة مع بعضهم البعض ضد الغير من أبناء العشائر الأخرى، وأعطى انطباعاً خاطئاً بأن العلاقات بين العشائر لا بد وأن تقوم على التنافس والتناحر، وليس على التعاون والتكامل.

أرض القمر

قضى جلهود ورفاقه من أبناء الفلاحيد حوالي الستة أشهر في بلاد الكراميد قبل أن يبدي بعض رفاقه الشوق إلى الأهل والوطن، ويضطره إلى اتخاذ قرار بالعودة إلى غمره مصطحباً معه زوجته سومار وابنته نيمار. لكنه قبل أن يغادر عتره، رأى أن من الحكمة تنظيم الأهالي في جمعيات مختلفة للعناية بالصحة العامة، والحفاظ على البيئة، وتقديم الخدمات الاجتماعية للمحتاجين، والاهتمام بالعلم والتعليم وتربية الأطفال، وغير ذلك من أمور حياتية. كما قام أيضاً بإقناع شيوخ العائلات الستة الرئيسة التي تشكل فيما بينها شعب الكراميد بضرورة تشكيل لجنة سداسية لإدارة شؤون البلاد الاقتصادية وغير الاقتصادية، وإسناد رئاستها له باعتباره رئيس اللجنة الخماسية في بلاد الفلاحيد. وهذا أعطى جلهود فرصة متابعة كافة النشاطات في البلدين، ومنحه ما يكفي من الصلاحيات لتوجيه عملية التطور في الاتجاه الذي كان يخدم القضايا النبيلة التي وهب نفسه لها، وفي مقدمتها قضايا الحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية وتحقيق الوحدة بين الشعبين.

وفي أول اجتماع لتلك اللجنة، قام جلهود بإقناع أعضائها من الكراميد بضرورة العمل فوراً على خلق شبكة للتواصل والتعاون مع أهلهم في بلاد الفلاحيد، ولذا اقترح عليهم اصطحاب نخبة من قادة المجتمع والتجار والشباب معه لزيارة أقاربهم، وإقامة علاقات تجارية بين البلدين والشعبين. كما عرض عليهم فكرة التعاون مع أبناء عمومتهم في استكشاف كافة مناطق أرض القمر، والتفكير جدياً

في استيطانها سوياً، وذلك تمهيداً لإقامة دولة واحدة تضمُّ البلدين والشعبين، كما حثَّهم على الاهتمام بقضية تعلم فنون الكتابة والقراءة وتعليمها لأبنائهم من الأولاد والبنات. وحين حان موعد الرحيل والعودة إلى بلاد الفلاحيد، انتدب جلهود أحد المقربين منه من أعضاء اللجنة ليقوم مقامه في غيابه، واعداً بالعودة قريباً ومعه ما يسُّر الكراميد من أخبار.

خلال فترة الاستعداد للرحيل والعودة، اكتشف جلهود أن أربعةً من رفاقه من أبناء الفلاحيد، ثلاثة شباب وشابة، كانوا قد وقعوا في الحب، وأنهم قرروا الزواج من أبناء عمومتهم من الكراميد. لذلك أقامت لهم لجنة الإدارة حفلة زواج جماعية رائعة لم تشهد لها البلاد مثيلاً أغرقت الناس في بحر من الفرح والسعادة. وقبل أن تترك القافلة مدينة عتره، قرر اثنان من العرسان الجدد عدم العودة إلى بلادهم مع جلهود ورفاقه، والبقاء إلى جانب زوجاتهم في بلاد أجدادهم. وهذا أثلج صدر جلهود، وشجعه على السير في خطته لتوحيد البلدين والشعبين، وتأسيس دولة تسودها الحرية والمساواة ويحكمها قانون يضعه الناس بأنفسهم، وتكون لها حكومةٌ منتخبةٌ تحكم بالعدل بين الناس، وتعمل على تحقيق التقدم والازدهار، وتحرص على رفاه وسعادة مواطنيها.

كانت بلاد الكراميد أقلُّ تقدماً من النواحي الاقتصادية والتكنولوجية والعلمية والثقافية من بلاد الفلاحيد، لكن أراضيها كانت أكثر خصوبةً وعطاءً. كما كانت الجبال الشاهقة تحدُّها من الشمال وتغطي الأراضي الممتدة على طول النهر من الجنوب، وكانت غابات النخيل وكروم التين والعنب تحيط بها من الشرق. وهذا خلق أجواءً مناسبةً للعديد من أنواع الطيور كي تسكن تلك البلاد وتتكاثر

فيها، وأعطى الفرصة للكثير من الحيوانات البرية كي تعيش حياتها في الغابات والسهول المحيطة بالبلاد، تجوب الجبال والبراري حّرةً بلا رقيب. ولقد وفرت تلك الطبيعة وما بها من حيوانات وطيور وأسماك فرصةً كبيرةً لممارسة هواية الصيد التي أحبها وأجادها الكراميد. أما الناس، فقد كانوا أكثر بساطةً وعفويةً من أولاد عمومتهم، يتصفون بهدوء البال والقناعة، ويقضون معظم أوقاتهم في نشاطاتٍ عائليةٍ واجتماعية تقليدية ممتعة، وإن كانت غير منتجة. وهذا جعل تلك البلاد أكثر جاذبية لمن يحب الزراعة وفلاحة الأرض ويهوى الصيد، ولمن يتطلع لحياةٍ عائليةٍ هادئةٍ لا تعكرٌ صفوها تعقيدات حياة صناعية، ولا ترهق عشق الروح فيها متطلبات حياة سريعة وضغوط ثروة مادية وسعيٍ دؤوبٍ لتحقيق امتيازاتٍ اجتماعيةٍ وطموحاتٍ شخصيةٍ صعبة المنال.

حين غادرت القافلة شاطئ بحيرة البهاليل في ظهيرة أحد أيام الخريف المعتدلة، كانت تضم في عضويتها أكثر من أربعين شخصاً، من بينهم ثمانية من أبناء الفلاحيد العائدين إلى بلادهم، يصطحب شابٌّ منهم زوجته، بينما تصطحب شابّةٌ زوجها، والعديد من رجال الأعمال والتجار والمستثمرين، ومجموعةً أخرى من الشباب الذي يهوى المغامرة من كلا الجنسين. كما حملت القافلة معها بعض البضائع والمصنوعات اليدوية والفواكه المجفَّفة التي اشتهرت بها بلاد الكراميد والكثير من الهدايا لأقاربهم. وحين وصلت القافلة إلى أرض القمر، توقفت هناك لمدة سبعة أيامٍ كاملةٍ، حيث قام جمهور المسافرين خلالها ببناء جسرٍ كبيرٍ شبه دائمٍ على نهر القمر، وذلك بدلاً من الجسر الخشبي الصغير الذي بناه جلهود ورفاقه في طريق ذهابهم إلى بلاد الكراميد،

واستكشاف باقي معالم المنطقة، والتعرف على ما كانت تحتويه من ثروات طبيعية ومياه معدنية ساخنة وغير ذلك.

ومن الاشياء الجديدة التي اكتشفوها في أرض القمر على الجانب الآخر من سلسلة جبال الخير، بحيرة كبيرة لا تعيش فيها أسماكٌ أو طحالبٌ، مياهها مالحةٌ ودافئةٌ طوال أيام السنة. كانت البحيرة تتغذى من ينابيع مياه معدنية ساخنة تتساقط على شكل شلالات كثيفة وقوية من أعالي أحد الجبال التي تتلوّن صخوره باللون الأخضر الداكن. وهذا أعطى البحيرة لوناً غريباً ومثيراً يختلف عن لون بحيرات البهاليل والأهاويل التي عرفها البعض وتعوَّدوا عليها، وجعل البحيرة تبدو مكاناً رائعاً للاستجمام والراحة، وبحراً واسعاً لممارسة هواية السباحة والتزلج على الماء. وحيث أن البحيرة كانت تقع عند أقدام سلسلة من الجبال تحدها من الجنوب، وصحراء واسعة تبدو بلا نهاية تحدها من الشمال، فإن هواة صيد طيور وحيوانات البراري وجدوا في ذلك المكان ما يسعدهم ويجذبهم إليه ويغريهم بالتردد عليه. وبالفعل، قام المستوطنون بسرعة بتحويل تلك البحيرة، والتي أطلقوا عليها اسم «بحيرة العيون» بسبب لون مائها المائل للاخضرار كلون عيون نيمار، إلى منتجع صحي للتشافي من الأمراض، ومنتزه جميل لقضاء الإجازات الدورية والعطلات الأسبوعية وأشُهر العسل ورحلات الصيد والقنص.

وقبل مواصلة الرحلة إلى بلاد الفلاحيد، قرّر الرفاق أن من المصلحة استيطان أرض القمر، وتطويرها إلى محطة للتجارة والراحة والاستجمام على طول الطريق التي تربط بلاد الفلاحيد ببلاد الكراميد. وبسبب ما لتلك الأرض من مميزات مناخية ومكانية، كجمال

الطبيعة، وخصوبة الأرض، ووفرة المياه النقية، وتعُّددِ الينابيع، وكثرة الجبال والغابات وحدائق النخيل وكروم العنب والتين، وشلالات المياه الساخنة، والتوسط بين بلاد الفلاحيد وبلاد الكراميد، فإن الشباب من جمهور القافلة كانوا الأكثر حماساً لفكرة استيطان تلك المنطقة الحيوية. لقد رأى الشباب في أرض القمر مكاناً رائعاً للعيش في أمان، يمارسون فيه هواياتهم بحرِّيةٍ تامة، ويعيدون فيه تشكيل تقاليدهم وعناصر ثقافاتهم بما يتلاءم مع ظروف بيئتهم البكر، ويتذوقون فيه طعم السعادة الذي طالما حلموا به، بعيداً عن عيون المحافظين وأتباع تيار التقاليد، وما كانوا يحاولون فرضه على الناس من قيود وأعراف ومعتقدات وطقوس وآلهة.

وهناك في بلاد الفلاحيد، كان الشيخ عثيران يقوم كل صباح بتفقد شواطئ بحيرة الأهاويل ومعه شهمان، يصطاد السمك أحياناً، وأحياناً يأخذ غفوة بين أشجار الورد والنخيل، بينما يقوم شهمان برياضة الصباح. وفي آخر النهار، وقبل أن يعود كل منهما إلى بيته، كان الشيخ عثيران يقف على طرف البحيرة الشرقي، وإلى جانبه شهمان، ينظران بعيداً علهما يلمحان طلائع القافلة وقد عادت من بلاد الكراميد. كان شهمان قد تعود على المبيت على عتبة بيت سيده، يتفقده ويدور حوله عدة مرات قبل أن يجلس على العتبة ويسترخي، ويفتح المجال للنوم كي يغالبه ويغلبه، كما كان قد تَّعود أيضاً أن يرى جلهود كل صباح وكل مساء. وحين طال غياب جلهود، بدأ حماس شهمان للخروج مع الشيخ عثيران يتراجع، ونشاطه وحيويته تتناقص. ومع تتابع الأيام دون عودة جلهود، فقد شهمان شهيته، وذوى جسمه، وتساقط شعره، وتدهورت صحته. ولم تمضِ فترة شهرين على سفر جلهود حتى فقد شهمان

الأمل في عودة سيده الغائب، وفقد بالتالي الرغبة في الحياة. وحين مرَّ الشيخ عثيران كعادته على بيت جلهود لاصطحاب شهمان في صباح أحد الايام، وجده جثةً هامدةً لا حراك فيها. حزن الشيخ عثيران كثيراً على موت شهمان، وشعر بالندم لأنه طلب من جلهود أن يتركه معه، إذ لم يكن عثيران يعلم بمدى حبِّ شهمان لسيده وارتباطه به، ولا مدى عمق إخلاصه له وشوقه إليه.

حين اكتشف جلهود موت شهمان بعد عودته بساعات، حزن عليه حزناً كبيراً وعميقاً، لكن وجود سومار ونيمار إلى جانبه خفَّف عليه مصابه، وساهم في إخراجه من أحزانه بسرعة، خاصةً في غمرة فرح الفلاحيد واحتفالاتهم بعودته ورفاقه سالمين. وما أن هدأت الأمور حتى قام جلهود بجمع تجار الفلاحيد مع أبناء عمومتهم من الكراميد، حيث تركهم يستكشفون معاً المصالح المتبادلة، ويخطِّطون سوياً لإقامة مشاريع مشتركة. وهذا جعل طبقة التجار ورجال الأعمال والمستثمرين في البلدين تصبح أكثر الطبقات الاجتماعية رغبةً في توحيد البلاد، والأكثر اهتماماً بفكرة استيطان أرض القمر وإقامة محطة هناك للتجارة والراحة والاستجمام. وقبل أن يعود تجار الكراميد إلى بلادهم ومعهم من البضائع الجديدة الكثير، أخذ جلهود منهم وعداً بالترويج لفكرة وحدة الأهل في البلدين، وتمويل مشروع بناء طريق يربط بحيرة الأهاويل ببحيرة البهاليل، مروراً بأرض القمر، وإقامة مستوطنة مشتركة فيها. أما شباب الشعبين فقد أخذوا على عاتقهم تأسيس حركة فكرية تدعو لإقامة وحدة سياسية بين البلدين والشعبين، وتؤمن بأن وحدة التاريخ والأصل تحتم وحدة المستقبل والمصير، والعمل على بدء نشاطات مشتركة في العمل التطوعي والاستكشافات الجغرافية

وبناء جسورٍ ثقافيةٍ تربط الشعبين بروابط مشتركة.

وبينما كانت فكرة الوحدة تنتشر بين عامة الناس ببطء، كان شباب البلدين يتسابقون على الترويج لها وشرح فوائدها وأبعادها، وكان التجار يخططون لرحلة شهريةٍ لتبادل البضائع بين البلدين. ومع سفر البضائع والناس، أخذت الأفكار في الانتقال من مكان لآخر، وبدأت الثقافات عمليةَ تحاورٍ وتلاقحٍ وإخصابٍ مثمرةٍ، وأخذت المعارف التكنولوجية في الانتشار بسرعة. أما جلهود فقد انصرف كلياً إلى التخطيط لإقامة المستوطنة الأولى في أرض القمر، حيث جمع أشهر المهندسين في البلدين وطلب منهم وضع المخططات اللازمة لبناء طريقٍ تربط بلاد الكراميد ببلاد الفلاحيد مروراً بتلك الواحة الجميلة. وقبل مضي سنة على عودته إلى بلاد الفلاحيد، كان جلهود قد قام بثلاثِ رحلاتٍ بين غمره وعتره، ونجح في جمع لجان الإدارة في المدينتين في خيمةٍ في أرض القمر لاتخاذ قراراتٍ وحدويةٍ هامة، واستكمل كافة المخططات المطلوبة لاستيطان تلك البلاد، وأسس لجنةً مشتركة للاشراف على عملية بناء وتمويل الطريق الذي أطلقوا عليه اسم «طريق الوحدة».

حين اجتمعت لجان الإدارة للمرة الثانية، رأت أن نجاح المشروع المتعلق بطريق الوحدة يتوقف إلى حدٍ كبيرس على استيطان أرض القمر، وتحويلها إلى محطة تجارية وترفيهية ونقطة اتصالٍ وتواصلٍ تربط البلدين معا، وأنه بدون ربط البلدين معاً بطريق تجاريٍ وتواصلٍ جغرافيٍ يسِّهل عملية التواصل الإنساني بين الشعبين سيكون من الصعب نجاح فكرة الوحدة. ولذلك اتخذوا قراراً بالإسراع في بناء الطريق والقيام بتشجيع الشباب من أبناء البلدين على الهجرة إلى

تلك الأرض والاستقرار فيها، ومدِّهم بما يحتاجون إليه من دعم مالي ومعنوي وسياسي. كما قاموا أيضا باتخاذ قرارٍ بمضاعفة عدد الرِّحلاتً المنتظمة بين مدينتي غمره وعتره، لتصبح نصف شهرية، وذلك كي لا يشعر سكان الواحة بالوحدة والحنين والانقطاع عن الأهل والأصدقاء. ولقد فوجئ أعضاء اللجان بمدى تحمُّس الشباب لفكرة الهجرة، وإقبالهم على الانتقال مع أصدقائهم وعائلاتهم إلى أرض القمر التي غدت بسرعة محطةً رئيسيةً لا غنى عنها للمسافرين بين عتره وغمره. وحين وضعواً حجر الأساس للمستوطنة الجديدة، أطلقوا على قريتهم اسم «قمره»، تُّيمناً بوجه القمر، ونسبةً إلى أرض القمر ونهر القمر.

ومن أجل الإسراع في بناء طريق الوحدة، تقرر تشكيل أربعُ فرق عمل: واحدة في بلاد الكراميد تقوم بالبناء انطلاقاً من بحيرة البهاليل في اتجاه الغرب نحو أرض القمر، وتقوم الثانية بالعمل انطلاقاً من بحيرة الاهاويل في اتجاه الشرق نحو أرض القمر أيضاً، بينما تقوم الفرق الأخرى بالعمل في اتجاهين متعاكسين انطلاقا من قمره، في اتجاه بلاد الفلاحيد وبلاد الكراميد على التوالي. وهذا أدى إلى الإسراع في بناء طريق الوحدة، وتنامي اقتصاد وسكان مستوطنة قمره سنة بعد أخرى، وساهم بالتالي في تنشيط العمليات التجارية والمعاملات المالية، وتسبَّب في حدوث عملية حراكٍ اجتماعي وثقافي لم تكن تخطر على بال أحد. وفي الواقع، كان كل يوم عمل في بناء طريق الوحدة يقصِّرُ المسافة الزمنية بين البلدين والشعبين ساعة على الأقل، ويغذِّي حماس الشباب، ويزيد دخل التجار والحرفين والمهنيين، وينمِّي موجة التفاؤل التي كانت قد بدأت تجتاح البلاد وتغمرها بنورها الساطع وسحرها العجيب.

وما كادت أعداد العائلات والشبان الذين انتقلوا للإقامة والعيش في أرض القمر تصل إلى الألف حتى أصبحت الواحة منتجعاً لطالبي الراحة من كبار السن من الرجال والنساء، وملجأً للمفكرين والفنانين والمبدعين، وخلوةً للباحثين عن السكينة والتأمل والإلهام والروحانية، والمكان المفضل لقضاء شهر العسل بالنسبة للعرسان. إلى جانب ذلك، اكتشف تجار البلدين أنه ليس من الضروري الانتقال من بلاد الفلاحيد إلى بلاد الكراميد وبالعكس لإتمام العمليات التجارية وتبادل البضائع، إذ أصبح بإمكانهم إجراء كافة المعاملات التجارية والمالية في مدينة قمره التي أصبحت مركزاً لإلتقاء التجار وهواة التجارة والموزعين والسُّواح. وهذا أدى إلى تحول تلك المدينة بسرعة إلى مركز تجاري ومالي هام، تسبَّب في اختصار رحلة القوافل التجارية إلى أكثر من النِّصف خلال سنة، والمساعدة على تصريف البضائع وتوفيرها للمحتاجين من تجار وموزعين بسرعة كبيرة نسبياً.

وخلال عشرة سنوات، كانت طريق الوحدة قد اكتملت، وباكتمالها تحولت قمره من قرية صغيرة إلى مدينة تتمركز فيها أهم المؤسسات الثقافية والتجارية والمالية في البلاد، وتعيش فيها أفضل المواهب الفنية والأدبية والفكرية، وتعمل فيها أكفأ القدرات العلمية وجلُّ أصحاب المهارات الإدارية والمالية. وباكتمال الطريق، وتطوير العربة التي تجرها الحمير والبغال، أصبح بإمكان القوافل التجارية قطع المسافة بين غمره وعتره خلال أربعة أيام فقط. أما المسافة بين كل من المدينتين وقمره في أرض القمر، فقد أصبحت لا تتجاوز اليومين، مما أدى إلى تنشيط السياحة، وجعل أرض القمر بشلالاتها وينابيعها وغاباتها وبحيرتها تغدو المنتجع السياحي لدولة الوحدة. وهكذا تحققت وحدة الشعبين عن

طريق تبادل المصالح، والسماح لأصحاب الهوايات من الشباب المغامر، ولأصحاب العقول النيّرة وذوي الكفاءات العلمية والقدرات الفكرية الخلاّقة ببدء عملية التوحيد وتحمل أعبائها، وذلك من خلال القيام بنشاطاتهم المعتادة وممارسة هوياتهم المحببة واستغلال قدراتهم بحرّية تامة، خدمةً لمصالحهم وتحقيقاً لذاتهم.

ومن أجل الاحتفال بمناسبة إتمام طريق الوحدة، وذلك تمهيداً لإعلان وحدة البلدين والشعبين من النواحي السياسية والإدارية، قامت لجان الإدارة في البلدين بتوجيه دعوة عامة لجميع المواطنين لقضاء بضعة أيام في أرض القمر، وتنظيم قوافل المسافرين إليها، وإقامة معسكرات كبيرة لإيواء الزوار وتوفير أسباب الراحة لهم، وترتيب رحلات سياحية تتيح لهم التعرف على مناطق جديدة من وطنهم. كما طلبت تلك اللجان من تجار البلاد وأثريائها تمويل حفلة زواج جماعية تقام على شواطئ بحيرة العيون لكل الشباب والشابات الذين يقرّرون الزواج من بنات وأولاد عمومتهم احتفاء بتلك المناسبة. وهكذا تمّ إرساء أساس متين لوحدة قادرة على الصمود في وجه العواصف، ربطت الشعبين بعلاقات نسب، وربطت التجار بمصالح مشتركة، وربطت الشباب بأحلام واعدة، وربطت الأرض بطريق يوحّد الاقتصاد وينمي التنوع الثقافي ويعزز التطلع نحو المستقبل بعيون ملأى بالأمل.

كان جلهود من أوائل الناس الذين انتقلوا مع عائلاتهم إلى العيش في قمره، حيث اتخذها مقراً له ومكاناً يجمع فيه أعضاء لجان الإدارة في البلدين. ومن أجل الحفاظ على مركزه كرئيس لكل لجنة، والتُّمكن من ممارسة مهامه على الوجه الصحيح، قرر أن يزور كلاًّ من بلاد الفلاحيد وبلاد الكراميد مرةً كل ثلاثة أشهر، وأن يجمع لجنتي الإدارة

في قمره مرةً كل ستة أشهر، مما جعل من السهل على اللجان تنسيق الجهود وضمان تكامل المشاريع. وحين استتبت الأمور بعد استكمال طريق الوحدة، كانت مدينة قمره قد غدت العاصمة الفعلية للبلاد، وكانت حكمة جلهود وجهوده المثمرة قد جعلته الشخص الوحيد المرشح لقيادتها. وبمناسبة إعلان الوحدة، اختارت لجان الإدارة بلاد «العرابيد» إسماً لدولة الوحدة الجديدة، وتعيين جلهود رئيساً لكافة لجان العمل فيها. وبسرعة، قام جلهود باستخدام موقعه الجديد لتقديم اقتراح لتلك اللجان يقضي بفرض ضريبة على الناس والمحاصيل والمعاملات التجارية تحقق العدالة في المجتمع، وتوفِّر مصدر دخلٍ دائمٍ للإنفاق على الخدمات العامة، كالتعليم والصحة والنظافة والبيئة والمواصلات وغير ذلك من أمور. وهذا جعل جلهود يغدو الرئيس الفعلي للبلاد، ويغدو أعضاء مجالس الإدارة في المدن الثلاثة بمثابة مجلس شعبٍ، يقوم بسنِّ القوانين وتوجيه السياسة العامة للبلاد بالتعاون مع الرئيس المنتخب.

عاش جلهود في قمره حوالي ربع قرن، وترك خلفه حين مات أربعة أولاد: بنتين أكبرهما نيمار، وولدين أكبرهما جلهود الأصغر، والذي كان قد قارب الثلاثين من العمر حين مات والده. أما سومار فقد كانت قد أصيبت قبل وفات زوجها بسنتين بمرضٍ عويصٍ تسَّبب في موتها، وأدخله في حالة حزنٍ عميقةٍ جعلته يفقد الرغبة في الحياة من بعدها. ولقد ورث جلهود الأصغر عن أبيه الحكمة وحسن الإدارة والأمانة وحب الوطن، وذلك إضافةً إلى شغفه الكبير بالطبيعة، وإقباله على أخذ زمام المبادرة وتشجيع العلم والعلماء والمفكرين والمبدعين. كان جلهود الأصغر في الواقع ذا شعبيةٍ بين الشباب والشيوخ في حياة

أبيه، مما قاد الناس إلى عدم التردد في اختياره قائداً لهم على الرغم من صغر سنه. وبسبب حرصه على تقدم البلاد وازدهارها، انطلق منذ اليوم الأول لتسلُّمه مقاليد السلطة إلى العمل على نشر التعليم، واقامة المؤسسات العلمية والثقافية في كافة أنحاء البلاد، وتشجيع العلماء والمفكرين والفنانين والمبدعين، والاستثمار المكثف في العمران والاقتصاد وطرق المواصلات والخدمات العامة. وفي أول اجتماع لمجالس الحكم، قرر المجتمعون إقامة تمثال لجلهود الأكبر في قمره وتسجيل اسمه في سجلات التاريخ باعتباره الأب المؤسس لدولة العرابيد.

بعد وفاة جلهود الأصغر الذي أدار البلاد بأمانة وكفاءة عالية لمدة تزيد على ثلاثين عاماً، خلفه ابنه جلهود الثاني في القيادة، والذي كانت شعبيته لا تقل عن شعبية والده، خاصة بين الشباب من الرجال والنساء. وتعود شعبية جلهود الثاني إلى تمتعه بحسن الطالع، وحرصه على أناقته وهندامه، وميله للتمتع بالحياة، وقيامه بممارسة هوايات جذبت الشباب من حوله كما تجذب ورود الربيع الفراشات المزركشة. إن حرص الرئيس الجديد على استمرار عملية التقدم في المجالات المختلفة، خاصةً في ضوء اضطراد النمو السكاني، وتقدُّم طرق المواصلات، وتزايد المعاملات الاقتصادية والمالية والتجارية تعقيداً، دفعه إلى تطوير القوانين التي تضمن للناس حقوقهم، وتحقق العدالة في توزيع الدخل بين الناس، ومن بينها قانون الضرائب التصاعدية، وقوانين حماية حقوق العمال والمساواة بين الرجل والمرأة. كما قام أيضاً بسن تشريعات جديدة تُحدِّد حقوق وواجبات المواطنين بوجه عام، وتعمل على صيانتها، وتسعى لإعلاء شأن الحرية الفكرية والاجتماعية وتضمها، وتقوم بمكافأة أصحاب القدرات الخلاّقة من المبدعين والعاملين في خدمة المجتمع، وتطوير العملية التعليمية والتربوية والعناية

بالبيئة والمصادر الطبيعية.

وفي ضوء تلك التطورات، وجد جلهود الثاني نفسه منقاداً، ومن حيث لا يدري، إلى إرساء مبدأ مشاركة الجماهير في اتخاذ القرارات العامة والهامة، واحترام الرأي الآخر، والعمل على سيادة مبدأ التسامح في المجتمع، حيث انتهى به الأمر إلى إقناع لجان الإدارة بتشكيل مجلس حكم في البلاد من خلال إجراء انتخابات عامة شارك فيها جميع البالغين من المواطنين. وحين تم انتخاب مجلس الحكم، كان من بين أعضائه الثلاثين إثنا عشر شخصاً من آل جلهود وأنسابهم. وحيث أن غالبية أولئك الأشخاص كانوا يتمتعون بقدرٍ كبيرٍ من المصداقية، فإن مصداقيتهم أكسبتهم حب واحترام الأغلبية الشعبية، ومكنتهم من التأثير في قرارات مجلس الحكم. إلا أن هيمنة أبناء عائلة واحدة على مجلس الحكم جعل الحكم يتحَّول تدريجياً من عملية جماعية إلى عملية عائلية، تخضع في الغالب لقرارات وأهواء رئيس العائلة. وهذا فتح المجال لقيام آل جلهود بالتأثير في آراء الغير من أعضاء المجلس، والعمل على تجيير العمل العام لخدمة مصالح خاصة وقضايا فئوية تسببت مع الأيام في عكس التوجهات التحررية والمواقف المدافعة عن المساواة والعدالة الاجتماعية. وإذا كانت عملية التراجع عن المكاسب الشعبية قد بدأت بشكلٍ غير مخططٍ في عهد جلهود الثاني، فإن عملية سلب الشعب والوطن من حقوقه تسارعت بطريقة منهجية في عهد خَلفِه جِلهود الثالث الذي لم يتوانى لحظة عن استغلال موقعه على رأس مجلس الحكم لتعزيز صلاحياته وتحويل البلاد في عهود أولاده من دولة يحكمها رئيسٌ منتخبٌ بناءً على مبدأ أن «العدل أساس الحكم» إلى مزرعة تملكها عائلة بناء على مبدأ أن «الظلم أساس الحكم» وأن «الاستبداد أداة التحكم».

سلطة الحرية وحرية السلطة

بعد تشكيل مجلس الحكم الجديد، وبسبب ما كانت تحظى به شخصية جلهود الثاني من قوة وشعبية وجاذبية، قرر مجلس الحكم تعيينه رئيساً دستورياً للبلاد، يستمُّد شرعيته من المجلس، ويقوم بتطبيق القوانين والتشريعات التي يُقرُّها، وتشييد قصر جميل ومشرف على شاطئ بحيرة العيون كي يكون مقراً دائماً للرئاسة ومنزلاً لرئيس البلاد. إلى جانب ذلك، اتخذ المجلس قراراً ينص على اعتبار يوم انتخاب جلهود الثاني رئيساً للبلاد عيداً وطنياً لدولة العرابيد. وهذا أعطى الرئيس وأفراد عائلته، والتي أصبحت في حينه تتكون من حوالي أربعين شخصاً، مكانة صمميزة في المجتمع، ترفَّعت بسببها ومن خلالها عن بقية الناس، خاصة عن العامة والفقراء والبؤساء والضعفاء.

إلا إن المكانة الاجتماعية المتميزة تفرز عادةً، وذلك كما هو عليه الحال بالنسبة لبعض الأشجار، صمغاً يجذب إليها الفراشات الجميلة والأوساخ التي يحملها الهواء على مدار الساعة. وهذا يعني أن الامتيازات الاجتماعية تجعل أصحابها محط أنظار الغير، وتقودهم غالباً إلى استغلال مواقعهم المجتمعية للحصول على المال والسلطة، غالباً بغير حق، بينما تقوم السلطة من جانبها بجذب المتسلقين من المثقفين والانتهازيين من التجار والوصوليين والدجالين إليها. وحيث أن السلطة مغريةٌ لكل من يعرف خباياها ويرى بريقها، فإن الاستحواذ عليها كثيراً ما يقود أصحابها إلى التسلط، والذي يتسبب عادة في السطو على حقوق الناس وانتقاص حرياتهم، والاعتداء على كرامتهم. بالرغم من ذلك، شهدت بلاد العرابيد في عهد جلهود الثاني قمة

الازدهار الاقتصادي والعمراني والثقافي والعلمي، حيث تمتع الناس بقدرٍ كبيرٍ من الحرية، وعمَّت البلاد موجةٌ عارمةٌ من التفاؤل، واستتبَّ الأمن والاستقرار في ظل سيادة القانون، وانصرف الشباب إلى بناء مستقبلهم وممارسة هواياتهم والاستمتاع بحياتهم بشغفٍ كبيرٍ.

إلا أنه مع نمو السكان وتزايد الحياة تعقيداً، تتزايد عادةً متطلبات الحصول على الامتيازات الاجتماعية والنخبوية، وهذه تؤدي بدورها إلى التفريط بضمانات العدل والعدالة والحرية والمساواة والتسامح في المجتمع. إذ أن السلطة، خاصةً السياسية منها، وبحكم مركزها النخبوي المتميز، تضع نفسها ورجالها دوماً في موقعٍ تترفَّع فيه ومن خلاله عن بقية المواطنين، مما يجعلها غير قادرةٍ على فهم نفسيتهم وتَفُّهم قضاياهم ومظالمهم والتعاطف معهم، وغير قادرةٍ بسبب ذلك على تحقيق المساواة وتكافؤ الفرص في المجتمع الواحد. أما الحرص على الامتيازات المكتسبة والعمل على تنميتها وتعزيزها باستمرار، فيقود عادةً إلى قيام السلطة بممارسة التسلط، مما يضاعف من احتمالات ارتكابها الأخطاء وخروجها على القانون. وهذا من شأنه أن يتسبب في قيامها، ودون وعيٍ أحياناً، وبوعيٍ وسابق إصرارٍ أحياناً أخرى، بالاعتداء على حريات الناس وحقوق المواطنين، وخلق فئة من المنتفعين الحريصين على تعزيز مصالحهم من خلال خدمة مصالح النخبة، وذلك على حساب مصلحة الشعب والوطن ومستقبل الأجيال القادمة.

من ناحيةٍ أخرى، نلاحظ أن الثروة المكتسبة بدون حق، وبحكم طبيعتها الاستغلالية التي لا تتبدل ولا تتغير وإن تبدّلت المفاهيم وتغّيرت الأزمنة، تقوم بالتحالف مع السلطة السياسية والعمل سوياً على تكريس

نفوذ النخبة السياسية والاقتصادية وهيمنتها على المجتمع. وإذا كان من الصعب على السلطة السياسية أن تُخلص لمبادئ العدل والحرية، فإن من الأصعب على الثروة أن تُخلص لمبدأ المساواة بين الناس، وأن تقبل مبدأ العدالة في توزيع الدخل. ولذا كثيراً ما تجد السلطة السياسية والثروة المادية نفسها مندفعةً نحو تشجيع الطبقية في المجتمع وتغذية المصلحية على حساب المبادئ الإنسانية. وهذا يعني أن سماح الشعب للسلطة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية بالتسلط، والتغاضي عن قيام المال بممارسة الكسب غير المشروع والتحكم في النشاطات الاقتصادية الرئيسية، يقود بالحتمية إلى تكدس الثروات والسلطات والامتيازات في أيدي قلة من الناس، ويقود إلى تراجع مبادئ العدالة والمساواة والحرية والتسامح، ويعبِّد الطريق لانتشار الفقر والحاجة والبؤس والظلم والاستعباد داخل المجتمع الواحد، وهذا ما اكتشفه العرابيد في عهد جلهود الثالث، ولكن بعد فوات الأوان.

إن الحرية شيءٌ ثمينٌ جداً، ومصدر قوة كبيرٌ يغري كافة الناس على احتوائه والتمتع به، ويدفع البعض أحياناً إلى التضحية بحياتهم في سبيله. وبسبب قيمتها الكبيرة وما تجلبه عادة من متعة وكرامة لأصحابها، فإن الحرية أصبحت مستهدفةً من قبل القوى المتحكمة في المجتمع، وذلك بغرض مصادرتها من أصحابها الشرعيين، أو الاستيلاء على الجزء الأكبر منها واحتكاره، واستخدامه أداةً لتحقيق أغراض سلطوية تسلطية. وكما اكتشف المعابيد فيما بعد، يبدو أن القدر المتوفر من الحرية لكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية محدوداً، مما يعني أن حصول البعض على حصة أكبر مما يستحقون منها، يؤدي بالحتمية إلى حصول آخرين على قدرٍ أقلَّ مما يستحقون ويحتاجون.

وهذا يعني أن من يحصل على الحرية من أفراد وجماعات وفئات مجتمعية ومجتمعات إنسانية، يتحملون واجب حمايتها والمحافظة على ما يستحقون منها، وأن من يُغفل هذه الحقيقة يجد نفسه مستعبداً بلا حرية، وتعيساً بلا كرامة، ومكبوتاً بلا أمل في مستقبل مشرق.

لقد اكتشف العرابيد أنه حين تتجه السلطة إلى ممارسة التسلط، تقوم في الواقع بمصادرة جزء من حريات الناس وزيادة ما لديها من حرية لممارسة المزيد من التسلط والتحكم في مصائر الناس وأرزاقهم. وهذا يقود بدوره إلى حرمان الناس من التمتع بالقدر الكافي من الحرية لممارسة نشاطاتهم الحياتية المعتادة، وتنمية قدراتهم الخلّاقة وصيانة كرامتهم، ويفتح المجال واسعاً أمام السلطة المهيمنة على المجتمع للاستحواذ علي المزيد من الحرية واستخدامها لمصادرة جزء آخر من حريات الناس. لذا، كلما تزايدت قدرة السلطة على التمتع بالحرية بسبب تزايد حِصتها منها، كلما تمادت في التصرف على هواها، واتجهت نحو كبتِ مواطنيها واضطهاد أصحاب الرأي منهم وانتهاك حقوقهم. وكلما تناقصت حريات المواطنين بسبب التهام غول السلطة لجزٍ متزايدٍ منها، كلما تراجعت قدراتهم على مواجهة السلطة المهيمنة على المجتمع والحفاظ على كرامتهم، وحماية حقوقهم من عبثها. وهذا من شأنه التسبب في تقليص دور الشعب الذي يملك شرعة التحكم في السلطة في المشاركة في صنع القرارات المصيرية ذات التأثير المباشر في مجرى حياته ومصيره ومستقبل أولاده وأحفاده.

شهدت السنوات الأخيرة من عهد جلهود الثاني تبلور الطبقية في مجتمع المعابيد، وتسرَّب الفساد إلى بعض المواقع الرسمية والمؤسسات العامة في البلاد، وانتشار المحسوبية على نطاقٍ ضيقٍ، وتقوية

الالتزامات العائلية والعشائرية على حساب المسؤوليات الوطنية، وقيام المستفيدين من تلك التطورات السلبية بتشكيل قوى ضغط على الحكم والحاكم. وهذا أدى بدوره إلى ارتكاب العديد من الأخطاء في إدارة شؤون البلاد، وشجع العديد من كبار المسئولين الحكوميين وغير الحكوميين على استغلال مواقعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية لتكديس الثروات لديهم، والاستحواذ بالتالي على المزيد من السلطات. إذ بينما تمثل السلطة السياسية مدخلاً للحصول على المزيد من الثروة، غالباً بغير حق، تمثل الثروة حصاناً جيداً في مقدوره إيصال صاحبه إلى كراسي السلطة السياسية. وهكذا، حين تغيب شمس الحرية والمساواة والمسائلة عن حياة المجتمع، ويختفي عن سمائه قمر العدالة وتكافؤ الفرص، يجد نفسه وقد انقاد مرغماً إلى السماح بتركُّز الثروة والسلطة في أيدي قلة من النخبويين المتسلطين الذين لا همَّ لهم سوى تنمية ثرواتهم وتعزيز مواقعهم الاجتماعية وزيادة سلطاتهم على حساب غيرهم من أبناء الشعب.

حين تسلم جلهود الثالث الحكم بعد وفاة والده، كانت الأوضاع العامة في البلاد تتجه نحو التوتر وعدم الاستقرار، وذلك في ضوء انتشار التعليم على نطاقٍ واسعٍ وتنامي الوعي بين الناس من ناحية، وتراجع المساواة والعدالة في المجتمع بسبب تبلور الطبقية والاستغلال من ناحية ثانية. وما أن مضت عشرسنوات على وجوده في الحكم حتى بدأت شكاوى المواطنين تتزايد، بينما كانت أصوات المظلومين والبؤساء تتعالى مطالبةً بالمساواة وتطبيق القانون على الجميع. وبناءً على مشورة بعض المقربين منه، قام الرئيس الجديد بإقناع مجلس الحكم المنتخب بتشكيل جيشٍ وطنيٍ وتسليحه، وذلك لحفظ الأمن في البلاد في

حالة وقوع شغب، ومن اجل مساعدة الدولة على تطبيق القانون وتحقيق العدالة بين المواطنين. وحين تمت الموافقة على تشكيل الجيش، وتحت ضغوط أولاد العائلة الأعضاء في مجلس الحكم، اضطر جلهود الثالث إلى تعيين أخيه الأصغر قائداً عاماً للقوات المسلحة وللكتيبة المكلفة بحماية القصر الرئاسي.

كان جلهود الثالث طيب القلب وحسن النية، إلا أنه كان ضعيفاً، وبسبب ضعفه لم يستطع كبح جماح الطامعين والمرتشين، خاصةً من أبناء العائلة الحاكمة. وحين حاول السيطرة على الأمور وتحجيم أفراد عائلته والمتنفذين من رجاله وشيوخ العشائر بالقوة، ثار عليه أخوه، مستخدماً الجيش الذي كان يأتمر بإمرته، حيث قام باعتقال الرئيس الشرعي للدولة، وذلك بحجة عدم قدرته على السيطرة على زمام الأمور، وفرض عليه الإقامة الجبرية في بيت صغير يقع على أطراف بحيرة البهاليل، وتعيين نفسه رئيساً للبلاد خلفاً له، واتخذ لنفسه لقب جلهود الرابع. ولم تمض أسابيع حتى قام الرئيس الجديد بإصدار قرارٍ رئاسيٍ حلَّ بموجبه مجلس الحكم المنتخب، واستبدله بمجلس شورى معين قام باختيار اختيار أعضائه بنفسه، كما قام باعتقال المعترضين من أعضاء مجلس الحكم الشرعي والمعارضين من المثقفين والشباب والناشطين السياسيين. وحين عقد مجلس الشورى الجديد أول اجتماع له، كان قراره الأول هو تتويج جلهود الرابع ملكاً على البلاد والعباد، وتسمية الدولة الجديدة "مملكة جهلواد"، وذلك تخليداً لذكرى الأب المؤسس للدولة جلهود الأكبر.

اتجه جلهود الرابع منذ أن أصبح ملكاً إلى تسليم مهام السلطة لإخوته وأخواته وأبناء وبنات عمومته، والقيام بإغراء بعض المثقفين

وأصحاب النفوذ من شيوخ العشائر والميسورين من التجار بالانضمام إلى حاشيته، وذلك من خلال شراء ولائهم بالمال وإغرائهم بالمناصب الرسمية والألقاب الرفيعة. وبدلاً من إنفاق أموال الضرائب على تحسين الخدمات العامة وتقديم العون للمحتاجين من الناس، اتجه ملك البلاد والعباد إلى زيادة الضرائب على المواطنين، وسرقة الأموال العامة، وزيادة عدد أفراد الجيش، وتحسين مستوى تدريبه وعتاده، وإغداق الأموال على ضباطه، وإنشاء مؤسسة بوليسية جديدة لملاحقة المعارضة والتجسس على المواطنين بانتظام، وذلك بهدف إرهابهم وغرس الخوف في قلوبهم. وفي المقابل، قام الملك جلهود الرابع بإهمال التعليم والثقافة والاقتصاد والبيئة، واستغلال المزارعين وتحويل الكثير منهم إلى عمال زراعيين بعد مصادرة مزارعهم وبساتينهم، يعيشون حياة كفاف وحاجة، يكتنفها الفقر ويخيِّم عليها البؤس.

وفي محاولة لتكريس مفاهيم السلطة والتسلط في أذهان العامة وفي مفردات اللغة المتداولة والثقافة الشعبية السائدة، بدأ الملك جلهود الرابع يتنقل بين الناس وفي يده عصا، ويُشَبِّهُ نفسه براعي الغنم الذي يستخدم عصاه لقيادة أغنامه والسيطرة عليها. ومن ثم، جاء مثقفو السلطة الذين دأبوا عبر مراحل التاريخ على تبرير كافة ما يرتكبه الحكام المستبدون من انحرافات وجرائم، واشتقوا كلمة رعية من كلمة راعي، وأطلقوها على المواطنين. وهكذا أصبحت الرعية بالنسبة لملك البلاد والعباد هي بمثابة قطيع غنم بالنسبة لراعي الأغنام، كما أصبحت العصا هي الوسيلة الوحيدة لسيطرة الراعي على الرعية. وانسجاماً مع هذا المنطق، قام الملك جلهود الرابع بمنح كل رجل من أفراد عائلته لقب أمير، مما خلق انطباعاً عاماً سلدى الناس بأن

الأمير يملك حق إصدار الأوامر، وأن الشعب يتحمل واجب إطاعة تلك الأوامر ومسؤولية تنفيذها. وبسبب بساطة الثقافة الشعبية السائدة وطيبة الناس الأوائل، تنامت عقلية القطيع فيما بينهم، مما جعلهم يتصرفون كقطيع يستثار بطبل أو مزمار، ويقاد بعصا أو شعار.

ومن أجل إذلال الناس وإلهائهم وتحويل أنظارهم عما كان يقوم به من ممارسات ظالمة، وما كان يقوم به أفراد عائلته وعملاؤه من نهب وسرقة لأموال الفقراء وثروات البلاد، فإن الملك جلهود الرابع اتجه نحو إهمال التعليم والتخلي عن برامج مساعدة الفقراء. وفي المقابل، قام الملك بإنشاء مؤسسة خاصة للرياضة والترفيه تحت رعايته، تتخصص في تشجيع مختلف الألعاب الرياضية، وزيادة النشاطات الترفيهية، وترويج كل الرياضيين والمطربين والفنانين الموالين للحكم، وإغداق المال عليهم. وخوفاً من قيام احد أفراد عائلته بإعادة تمثيل دوره على مسرح الحياة السياسية واستخدام الجيش مجدداً وسيلة للاستيلاء على الحكم، فإن ملك البلاد والعباد قام باختيار احد أصدقائه من أيام الدراسة، وتعينه قائداً عاماً للجيش، وذلك بعد تزويجه من إحدى أخواته وإسكانه في قصره الكائن على شاطئ بحيرة الأهاويل.

ولما استتبت الأمور له كما أراد واشتهى، انطلق جلهود الرابع، مستخدماً ذكائه الحاد وسلطاته الواسعة إلى العمل على تخليد عهده وتكريس جبروته. ومما فعله في هذا المجال، القيام بحملة مكثفة لبناء سلسلة من القصور الفاخرة في كافة أنحاء البلاد.. على شاطئ بحيرة البهاليل، وشاطئ بحيرة الاهاويل، وشاطئ نهر القمر بالقرب من مصبه في نهر سراد، وعلى شاطئ بحيرة العيون المطل على قمره، وعلى قمة أعلى الجبال المطلة على البحيرة من الناحية الغربية. كما

قام أيضاً بإنشاء مسَّلة طويلة تناطح السحاب، تحمل اسمه وتاريخ تسلمه الحكم في البلاد. ومن أجل تمويل ذلك النُصب التذكاري الهام واستكمال عملية بناءه في عهده وقبل وفاته، قام ملك البلاد والعباد بفرض ضريبة عمل على كل فرد من أبناء الشعب القادرين، مقدارها عمل يوم واحد كل شهر، وبمعدل عشرة ساعات عمل يومياً، والسماح للميسورين من الناس بالتهرب من أداء ضريبة العمل، وذلك مقابل دفع مبلغ من المال تعادل قيمته قيمة ضريبة العمل المقررة مرتين.

كان للملك جلهود الرابع هوايات عديدةً، من أهمها ممارسة السحر، ومشاركة المشعوذين أعمالهم ورقصاتهم الهستيرية. وهذا دفعه إلى القيام بتشجيع السحرة والدجالين في البلاد، ودعوتهم كل عام لمؤتمر كبير يُعقد في قصره الكائن على قمة جبال الخير، يعلمونه فيه السحر، يغدق عليهم المال والهدايا، ثم يرقصون معاً حتى يغيبون عن الوعي. وبعد انتهاء المؤتمر، كان ملك البلاد والعباد يأمر ضيوفه من السحرة والمشعوذين باستعراض ما لديهم من العاب وحيل جديدة في ساحة قمره، ومن ثم الانتقال منها إلى المدن الرئيسة الأخرى في بلاد العرابيد، وذلك بهدف تخويف الناس وادخال الرعب إلى قلوبهم وتحذيرهم من مغبة عصيان الحاكم. وهذا دفع عامة الناس إلى التقرب من السحرة والمشعوذين، وسماع نصائحهم، وتقديم الهدايا لهم والنذور لأرواح الأقدمين منهم، وذلك لاعتقادهم بأن السحرة والمشعوذين والأرواح تملك قدرات خارقةً في مقدورها إسعادهم ومساعدتهم على التغلب على مشاكل حياتهم، وإلحاق الأذى بهم وبالغير لحسابهم. وفي المقابل، كان هؤلاء يقومون بكتابة الطلاسم للناس وتطبيبهم وتسليتهم أحياناً، وتهديدهم بإنزال أشد العقوبات

بهم إن هم شكّكوا في قدراتهم، أو تخلّفوا عن الوفاء بتعهداتهم، أو تراجعوا عن تقديم ضحية نذروها لأرواح أجدادهم.

بعد حكم طويل تجاوز ٣٥ عاماً، مات جلهود الرابع تاركاً لابنه جلهود الخامس مجموعةً من القصور الفاخرة، وأعداداً لا تُحصى من الخدم والعبيد، وشعباً جاهلاً يؤمن بالسحر والشعوذة والخرافات، ودولةً متخلفة من النواحي الاقتصادية والعلمية والثقافية، وأوضاعاً معيشيةً متردية تتصف بالفقر والحاجة، ونظام حكم ظالم تسيطر عليه عائلةٌ فاسدةٌ ومُفسدةٌ. كان جلهود الرابع قبل وفاته بأيام قد اغتنم صفاء الجو مع بداية فصل الربيع ليخرج مع بعض حاشيته في رحلة صيد في إحدى الغابات البعيدة، كان من المفروض أن تستغرق أربعة أيام، يعودون بعدها إلى ديارهم. إلا أنه قبل أن ينتهي اليوم الثالث، شعر الملك بقشعريرة حادة، وأخذ جسمه يرتجف بعنف وبشكل متواصل، مما تسبب في تعطيل برنامجهم لذلك اليوم. وحين لاح الصباح في اليوم التالي، بدأت الأمطار تتساقط بغزارة كثيفة جعلت من الصعب عليهم بدء رحلة العودة إلى المدينة. استمرت الأمطار، على غير عادتها في مثل ذلك الوقت من السنة، لمدة يومين كاملين دون انقطاع، استهلكوا خلالها كل ما كان قد تبقى لديهم من طعام. وبسبب الأوحال التي خلفَّتها الأمطار، استغرقت رحلة العودة إلى المدينة ضعف المعتاد، مما جعل حالة الملك الصحُية تزداد سوءاً، وجعلت كل رجال القافلة يمرون بمرحلة صعبة، شعروا معها بالخوف والقلق والجوع والإرهاق.

وفي الطريق إلى القصر الملكي العامر على شاطئ بحيرة قمره، فقد الملك جلهود وعيه لبضع ساعات، وحين استعاد وعيه طلب من مرافقيه بعض الطعام، إذ قال لهم إن معدته تتلوى من الجوع، وأنه

يشعر بالضعف الشديد، وأنه يشتهي سمكةً مشويةً وسلطةً حارةً. وبسبب نفاذ ما كان لديهم من طعام، لم يكن باستطاعتهم تلبية رغبة سيِّدهم وتوفير ما طلبه من مأكولات، ولذا قاموا بدلاً من ذلك بإسراع الخطى نحو المدينة، وإرسال أحد المرافقين أمامهم للعمل على تحضير وجبة الطعام التي طلبها واشتهاها ملك البلاد والعباد. وما أن دخلوا ساحة القصر حتى فقد جلهود الرابع وعيه للمرة الثانية، وحين صحا من غيبوبته بعد ساعتين تقريباً، وجد ما اشتهى من طعام يجلس أمامه على طاولة صغيرة أنيقة، بالقرب من سريره الملكي الخاص. إلا أنَّ المرض والإعياء كان قد أنهكه تماماً، وغير لونه، وسلب قواه، وحرمه من كل شيء كان يتمناه في تلك اللحظة. وحين أغلق الملك جلهود الرابع عينيه لآخر مرة، كانت معدته تتلوى ألماً من الجوع، وكانت صورة السمكة المشوية والسلطة الحارة هي آخر صورة يحتفظ بها في مخيلته ويحملها معه إلى عالم ما بعد الحياة. مات ملك البلاد والعباد يعاني المرض والجوع والألم، دون أن تلامس يده الطعام الذي طلبه وتمناه، ودون أن يتذوق لسانه ما اشتهت نفسه، وذلك على الرغم من أن كل ما أشتهى وتمنى في حياته في تلك اللحظة كان أمامه وفي متناول يده، لكن يده الطويلة قصرت بعد عمرٍ طويلٍ قضته في ممارسة السرقة والرشوة والفساد والظلم.

مملكة جهلواد

كان خليفة جلهود الرابع في الحكم، سيئ الخلق والطبع قليل الذكاء، تربَّى في بيت يترفع فيه الراعي عن الرعية، ويستمرئ الحاكم فيه استغلال الفقراء والضعفاء، ويهوى الاعتداء على حقوق الشعب، ويتفاخر بإذلال علية القوم ومن يعتز بكرامته منهم. ولما كانت تجربة ذلك الابن الحياتَة قد تشكلت في ظل نظام حكم جائرٍ لا يرحم، فإنه آمن بضرورة الاستمرار في إذلال المواطنين، وتكريس تخلفهم، وكَبْت حرياتهم، ومصادرة القدر الأكبر منها، والاستيلاء على المزيد من مصادر رزقهم. وما كاد أن يتسلم مهام السلطة في البلاد حتى جاءه أحد المستشارين بوثيقتين رسميتين هامتين كان والده قد أصدرهما لكنه مات قبل تنفيذهما. كانت الأولى تتعلق بقرارٍ اتخذه جلهود الرابع بالاستيلاء على واحة الغزلان وتحويلها ومن عليها إلى إقطاعية تملكها العائلة الحاكمة. أما الوثيقة الثانية فتتعلق بصيغة قرارٍ ينصُّ على تنحيته عن ولاية العهد وتعيين أحد إخوته بدلاً منه وذلك لسوء أخلاقه وضحالة ثقافته. وبينما تركت فكرة حرمانه من الحكم مرارة في فمه قادته إلى التنديد بسيرة والده والتنكر لها، اغتنم قرار الاستيلاء على واحة الغزلان ليقوم بتنفيذه بسرعة، وذلك - كما ادعى - تنفيذاً لرغبة وتوجيهات الملك الراحل.

إن توجه الملك جلهود الرابع إلى حرمان ابنه من الحكم بعد وفاته، دفع الملك الجديد إلى إسقاط ما كان يتعلق بأبيه من ألقاب والبحث عن لقب مختلف عن لقب أبيه، يعزز سلطاته ويميزه عن سابقه. وبعد تفكيرٍ ومداولاتٍ مستفيضةٍ مع المقربين منه وسماع آراء مثقفي قصره

الأشاوس، أشار عليه المخلصون للعرش باستخدام لقب «سلطان» وذلك - حسب ما قالوا - لأن كلمة سلطان تعني مصدر السلطات السياسة وغير السياسية، وذلك بخلاف كلمة ملك التي تعني شخصاً يملك شيئاً ما. أما السلطة هنا، فقد فسروها على أساس أنها تشمل سلطة الحكم وسلطة المال ونعيم التمتع بالاثنين. ولذلك بدأ مثقفو العهر السياسي منذ ذلك العهد ينعتون آل جلهود من ملوك وأمراء بالسلاطين المنعّمين، وأطلقوا على الملك الجديد لقب «السلطان جلهود الأول».

كان قرار مصادرة واحة الغزلان بمثابة كارثة إنسانية شاملة بالنسبة لأهالي الواحة، نتج عنها تحويل كافة سكانها من المزارعين إلى عبيد يعملون في مزارع يملكها سلطانٌ جائرٌ مقابل التكفّل بتوفير متطلبات العيش الأساسية لهم ولعائلاتهم. أما العمال الصناعيون فقد تحولوا إلى خدمٍ يعملون في مؤسساتٍ إنتاجيةٍ وتجاريةٍ وماليةٍ وخدماتيةٍ تملكها العائلة المالكة مقابل أجورٍ بخسةٍ لا تكفي لسد احتياجاتهم الحياتية ودون أية ضمانات اجتماعية. ومع القيام بسلب الأراضي الزراعية من الفلاحين، والاستيلاء على ملكية المشاريع التجارية والإنتاجية والخدماتية الرئيسية في البلاد، توقفت عمليات الاستثمار، وتسارعت عملية تدهور الأوضاع المعيشية والنشاطات الاقتصادية بوجه عام، وانتشرت الأمراض والأوبئة على نطاقٍ واسع، وارتفعت معدلات الوفيات بين الأطفال والشيوخ، وتكررت المجاعات، وأصبح الفقر والبؤس والجهل والظلم القاسم المشترك الأعظم بين المواطنين، وتعمقت ثقافة القطيع بين العامة من الناس. ومع تقادم الزمن وتتابع الحكام واستمراء الذل، اكتسبت كلمتا ملك وسلطان في الثقافة الشعبية السائدة في بلاد المعابيد صفات التملك والتسلط والسيطرة، وأصبحت العامة من الناس تعتقد

بأن من حق الملك والسلطان والأمير أن يمتلك ما شاء من ثروات البلاد، وأن يستعبد من أراد من العباد، وأن يصدر ما أراد من أوامر وقوانين وتعليمات دون الرجوع للشعب الذي تم تغييبه وتحويله إلى قطيع مسالم.

ومن أجل تكريس حكمه وإلهاء الناس بأمورٍ تافهة، وصرفٍ نظرهم عما كان يمارسه من ظلم واستبداد، اتجه السلطان جلهود الأول إلى زيادة ميزانية دائرة الرياضة والترفيه، وحثّ القائمين على إدارتها بتنويع النشاطات الرياضية والترفيهية بوجه عام. ولقد تبع ذلك، قيام هؤلاء بإنشاء نوادٍ اجتماعية ورياضية خاصة على جوانب البحيرات الرئيسة الثلاثة، لا يدخلها غير الأمراء وأبناء الذوات من التجار والميسورين وكبار موظفي الدولة وأصحاب البأس والشأن، وتشكيل عدة فرقٍ رياضية وتوزيعها على المدن الرئيسية في البلاد. وبعد اشتداد المنافسة بين مختلف الفرق الرياضية، أمر السلطان جلهود بتحويل الرياضة من هواية إلى حرفة، يمارسها الرياضيون مقابل أجورٍ مغرية يدفعها أصحاب النوادي الرياضية للاّعبيين، والسماح للرياضيين بالانتقال من نادٍ إلى آخر. ولقد ترتب على ذلك تعزيز مكانة الرياضي الجيد والمحترف في المجتمع، وخلق روابط للمشجعين ترتبط بنوادي معينة ورياضيين معينين دون غيرهم، وجعل المنافسة الرياضية بين النوادي تنتقل إلى الشارع والقرية والمدرسة، وتقود إلى تشكيل جماعات ونوادي خاصة للمشجعين، وتتسبب بالتالي في زيادة حدة المنافسة بين النوادي، وتحويل العلاقة بين جماعات المشجعين إلى عصبية متبادلة عملت على تجزئة المجتمع بدلاً من توحيده، وقادت إلى استبدال الهوية الوطنية الجامعة بهويات رياضية تقوم على التناحر وكراهية الآخر.

كان هدف جلهود الأكبر مؤسس دولة الوحدة، هو خلق هوية وطنية جامعة توحِّد الناس ولا تفرقهم، وذلك من خلال تعريف الناس بأنسابهم وربطهم بجذورهم الأصلية، وتطوير ثقافة وطنية واحدة، ذات قيم وتقاليد وأعراف وعادات إنسانية مشتركة. إلا أن عملية الأنساب التي ابتدعها تطورت في عهد أحفاده من رابطة وطنية إلى رابطة عشائرية، تسببت، بين أشياء أخرى، في إضعاف مفهوم الوطنية، وتقويض روح المواطنة لدى غالبية المواطنين. أما جلهود الثالث ومن بعده ابنه الملك جلهود الرابع فقد إتجها إلى السماح بتجزئة الناس إلى طبقات اجتماعية متفاوتة من حيث الدخل والتعليم والمكانة الاجتماعية، مع الاحتفاظ بالعشائرية، وبالتالي تجزئة المجتمع إلى فئات متنافسة ذات ثقافات غير متجانسة. ولقد ساهمت الفلسفة الرياضية الجديدة التي ابتكرها السلطان جلهود الأول وأعوانه في ترسيخ تلك التجزئة، وتفتيت الروابط الثقافية بين أبناء البلد الواحد، واضمحلال الهوية الوطنية، حيث تم استبدالها بهوِّيات فرعية تقوم على الولاء لفريق رياضي معين يتنافس مع غيره من فرق رياضية أخرى، وليس على أساس الولاء لوطن مشترك لا يوجد وطنٌ سواه، والانتماء لشعب واحد لا يوجد شعبٌ غيره.

ونتيجةً للقرارات الظالمة والانحرافات الشنيعة والمواقف الجاهلة التي ارتكبها السلطان جلهود، أخذت جموع الشعب ومثقفيه تتململ وتبدي امتعاضها من الحكم وممارساته القمعية، وتتجه في صمت نحو التحرك ضده. وحرصاً على أمن البلاد واستقرار الأوضاع السياسية فيها، رأى بعض أعضاء مجلس الشورى ضرورة تقديم النصيحة للسلطان، وحثه على تغيير نهجه في الحكم. وبعد أن اجتمعوا به

وقالوا له ما كان لديهم من آراء وشكاوى، شارحين بإسهابٍ ما آلت إليه الأحوال المعيشية والحريات الفكرية والثقافية من سوء، وما يعانيه الشعب من فقرٍ وجهلٍ ومرضٍ وكبتٍ وظلم، وطلبوا منه العودة إلى ما كانت عليه الأمور في عهد أجداده، خاصة عهود جلهود الأول وجلهود الثاني. ومن الأمور التي طلبوا منه القيام بها، إعادة النظر في القرار المتعلق بواحة الغزلان، وإرجاع الأراضي والممتلكات المصادرة لأصحابها، وتوظيف جزءٍ من أموال الضرائب لتحسين الخدمات العامة وتوفير فرص التعليم والعناية الصحية للأطفال والشباب والشيوخ، وتحرير الناس من الكبت والظلم الذي وقع بهم على أيدي عملائه. وفي الختام قالوا للسلطان جلهود إن ما يفعلونه يأتي من قبيل الوفاء له وحرصاً على عرشه، وبسبب خوفهم على أمن البلاد واستقرارها، وانطلاقاً من رغبتهم في الإسهام في نماء الاقتصاد الوطني وتحقيق الرخاء والتقدم لجميع المواطنين في ظل حكمه العادل وقصره العامر.

بعد أن استمع السلطان في ذلك المساء إلى كل شخصٍ كان لديه رأيٌ يقوله أو نصيحةٌ يبديها من مستشاريه، شكرهم على ما أبدوه من آراء وطلب منهم الانصراف، واعداً إياهم بدراسة مطالبهم والرد عليها بالسرعة الممكنة. وبينما كان المستشارون يغادرون القصر الملكي والشعور بالتفاؤل يغمرهم، كان السلطان يقوم بإعداد قوائم بأسماء المطالبين بالإصلاح منهم، وذلك لعزلهم والتخلص منهم، وإعداد قوائم جديدة بأسماء من سيخلفهم في المجلس من المقربين إليه والمنافقين لعرشه. وبعد أن انتهى من تلك المهمة، قام بجمع مجلس الشورى الجديد في مساء اليوم التالي، حيث خاطبهم قائلاً: لقد اخترتكم لعضوية هذا المجلس لأنني أثق بكم وأعتقد بأنكم مخلصون للعرش وأوفياء للعائلة

المالكة، وأنكم لن تبخلوا على سلطان البلاد بنصائحكم وحكمتكم.. إنكم اليوم أقرب الناس إلى السلطان وأحق المقربين في المشاركة في الرأي وفي حكم البلاد.. إن علينا أن نتزود بالوعي واليقظة حتى نتمكن من الحيلولة دون نجاح المشاغبين في تلويث عقول العامة من أبناء الشعب، ونحرمهم فرصة تدمير حالة الاستقرار والطمأنينة التي ينعم بها الوطن وإثارة الفوضى في ربوعه.. الا يكفي أن يتعلم أبنائي وأبناؤكم؟ هل نحتاج لأكثر من بضعة مئات من المتعلمين للسيطرة على مقاليد الحكم في البلاد؟ وإذا تجاوبنا مع مطالب الجهلاء وقمنا بتوفير التعليم والخدمات الصحية لهم، هل سيكون بإمكاننا بعد ذلك أن نحكمهم ونسيطر عليهم ونوجههم لما فيه خدمة لمصالحهم ومصالحنا جميعاً؟ ألا تريدون أن تحافظوا على مراكزكم وامتيازاتكم وثرواتكم، وتضمنون مستقبلاً طيباً لأبنائكم؟ إن ما سمعناه في الأمس من مطالب قد يأتي عن حسن نية، لكنه يعكس جهلاً بأمور الحكم، وسوء تقدير بمتطلبات المرحلة الي تمر بها البلاد، وعدم وعي بمدى تغُّير ظروف الواقع عن ظروف الماضي التي عاشها الآباء والأجداد. لذا كان علينا أن نتعاون حفاظاً على المكاسب التي تحققت لبلادنا وشعبنا منذ قيام دولة العرابيد، وهذا لن يتحقق دون استتباب الأمن والاستقرار والتزام الناس بالقانون والنظام، مما يستوجت اتخاذ كل الاجراءات الكفيلة بالحفاظ على الأمر الواقع، وعدم الإخلال بالتوازنات الاجتماعية القائمة، وحماية الثقافة الوطنية من دعوات التغيير التي لا تستهدف سوى تشكيك الناس في نظام حياتهم، وجرهم باسم الحرية إلى تبنِّي قيم غريبةًتتنافى مع تراثنا وأخلاقياتنا ومبادئنا.

وقبل أن يتكلم أيٌّ من الأعضاء مهنئاً ومؤيداً لما جاء في خطاب السلطان، سارع عمرود بالتصدي للسلطان قائلاً: في عهد أجدادك كان التعليم في البلاد في متناول الجميع، وكانت نوعية الحياة ومستويات المعيشة مرتفعةً، وكانت الحريات العامة والفردية مصونة، وكانت الأمور السياسية مستقرة، وكان الحكام أكثر الناس أمناً وسعادةً ورضاءً عن النفس.. لقد عاش أجدادنا في حينه حياةً رائعةً وممتعةً، شعروا معها بالتفاؤل وحب الحياة، وكان زعيم البلاد يحظى بحب الجماهير وإخلاصهم له وتفانيهم في خدمته. وفي الواقع، قادهم حبهم لقائدهم في حينه، وحرصهم على إرضائه، وخوفهم من فقدان قيادته الحكيمة إلى انتخابه رئيساً لهم، آملين أن يورث أبناءه وأحفاده الحكمة والبصيرة والعدل من بعده.

وهنا قاطع السلطانُ عمرود ولم يفسح له المجال ليكمل كلامه، حيث نهض من مقعده، وصاح بأعضاء المجلس معلناً انتهاء الاجتماع. وخوفاً من حدوث شغب في البلاد، قام السلطان على الفور بإعلان حالة الطوارئ، نشر قوات الجيش في المدن وعلى الطرقات العامة، ودعوة بعض أعوانه المقربين إلى اجتماع مصغر، حيث أوكل إليهم مهمة إنشاء جهاز جديد موسع للتجسس على الناس، وأمرهم بالتأكد من تجنيد عميل من كل عائلة، وخمسة عملاء على الأقل من كل حارة، وعشرة عملاء من وكل عشيرة، أي ضمان وجود إذن وعين له في كل بيت وفي كل خيمة وفي كل زقاق من أزقة مدن وقرى بلاد العرابيد. ولقد تسببت تلك الخطة في تمزيق بنية المجتمع بشكل شنيع، لدرجة أن الأخ لم يعد يثق بأخيه، ولم يعد الجار يثق بجاره، وفتح المجال للاتهامات والوشايات المتبادلة كوسيلة للانتقام من الغير، وبالتالي تدمير السلِم الاجتماعي

وإمكانيات العمل الجماعي بشكلٍ كامل. وكي يُحكِم سيطرته على البلاد والعباد ويذلَّ الناس، قام السلطان جلهود بخفض ميزانيات الخدمات العامة مجدداً، خاصةً ميزانية التعليم والمعونات الاجتماعية والخدمات الصحية والبيئية، وزيادة رواتب ضباط الجيش وأجهزة الأمن والمخابرات، والاستيلاء على ما كان قد تبقى من أراضٍ زراعية ومراعي خصبة.

كان هدف السلطان جلهود الأول من الإجراءات التعسفية التي اتخذها، تماماً كهدف أبيه، هو العمل على زيادة فجوة الدخل والثروة بين الناس اتساعاً، وتعميم الجهل في المجتمع، وإرغام كل رب عائلة على الانشغال فكراً وعملاً في توفير قوت يومه، وإجباره على تجنب الخوض فيما لا يعنيه من أمور سياسية وثقافية، وتحويل البلاد من دولة يحكمها قانون، إلى دولة بوليسية يحكمها رجال مخابراتٍ وعسكريون مستبدون ومستهترون. وهكذا تحولت بلاد العرابيد في عهد السلطان جلهود وسلفه من بلد تحكمها عائلةٌ نظيفةٌ إلى دولةٍ تديرها وتهيمن على مقدراتها عائلةٌ فاسدةٌ، تعمل باصرارٍ ومثابرةٍ على تحويل البلاد إلى إقطاعيةٍ، سكانها مستعبدون، حكامها ظالمون، حريات شعبها مكبوتة، وثرواته مغتصبة. وبالرغم من تعدد الوجوه الفاسدة لذلك النظام، فإن الإبن الأكبر للسلطان جلهود كان أكثر الواجهات فساداً، وأبرز أدوات الاستغلال الرسمية، إذ فرض على كل مستثمر وصاحب شركة عاملةٍ في البلاد أن يمنحه نسبةً من رأس مال مشروعه، وذلك مقابل القيامٍ بحمايته من القانون والعمال وموظفي الدولة، ومساعدته على استغلال الفرص المتاحة لتعظيم عوائده المالية.

وبعد أيام من المواجهة التي تمت بين السلطان جلهود وعمرود، قام جلهود باستدعاء عمرود إلى قصره، حيث قام بمعاتبته على ما فعل، وعرض عليه منصب المستشار الأول لسلطان البلاد والعباد، مقابل راتب كبير ولقب رفيع. إلا أن عمرود رفض العرض بأدب قائلًا: إن اطمئنان الحاكم على حكمه وعرشه، وحصوله على السعادة، لا يمكن ضمانها بشراء ولاء وضمائر الناس.. إن سعادة القائد لا تأتي إلا إذا شعر الشعب بالسعادة، ورضي عن حكامه، واطمأن إلى عدلهم وحرصهم على مستقبله ومستقبل أبنائه.. إن عليك يا جلهود أن تعود إلى النهج الذي خطه أجدادك الأوائل، مؤسسو دولة الوحدة وحراسها الأمناء، حين كان القائد أكثر الناس سعادةً وأمناً، يستمد سعادته من سعادة شعبه، وينام مطمئناً بعد اطمئنانه على أمن بلده وأهله.. لقد كان ذلك ممكناً بسبب سيادة القانون، وحرص القائد على صيانة حقوق الناس، والتزامه بالعمل على شيوع العدالة والمساواة في المجتمع، وضمان تمتع الناس بالحرية، حرية القول والعمل والفكر.. الا تريد أن تكون محبوباً ومطمئناً يا سيدي، وتنام سعيداً لا تقلق على شيء، ولا تخاف أحداً؟ أخبرني يا جلهود لماذا تستولي على أراضي المزارعين الصغار وتحرم المستضعفين من مصدر رزقهم الوحيد؟ إن أراضي العرابيد الواقعة ما بين بحيرة البهاليل وبحيرة الاهاويل تعادل ألف مرة على الأقل ما يملكه المزارعون في بلادنا من أراضٍ زراعية.. لم لا تتملك بعض الأراضي العامة، وتمنح ما شئت منها لمن أحببت من الناس.. لماذا تقوم باغتصاب أموال الفقراء والضعفاء، واستغلال عرق المساكين والبؤساء؟ إنني لم أعد أفهمك يا جلهود، ولا افهم تصرفاتك التي تفتقر إلى الحكمة وبعد النظر.. إنني أحذرك من مغبة أعمالك، ولكنني لا أهددك، لأنك تعلم

أنني لا أملك من أسباب القوة ما يجعلني قادراً على تهديد أحد.. إنني لا زلت آمل أن تتغير، ولا أريد أن أعترف بأنني فشلت حين أشرفت على تعليمك وتربيتك. إن ما تفعله اليوم يا جلهود لا يهدد أمن المواطنين في قوتهم فقط، بل يهدد أمنك شخصياً وأمن نظام حكمك أيضاً، ويعمل على تقويض حكم آل جلهود من بعدك.. عليك يا جلهود أن تعود إلى رشدك، وإلى حكمة أجدادك قبل فوات الأوان.

تجهم وجه السلطان وسكت طويلاً قبل أن يجيب على تساؤلات عمرود، وحين تكلم قال: إن الظروف تغيرت يا أستاذ عمرود، ولذلك كان لا بد لنا أن نتغير معها.. ألم تُعلمنا أن تغير الظروف يحتم تغيير السياسات وتبديل المواقف وإعادة النظر في الموروث من العادات والتقاليد والقيم؟ هل كان ذلك القول سليماً أم مجرد كلام ونظريات غير قابلة للتطبيق؟ إنك ترى بأم عينيك مدى تغير الرعية وتغير ظروف الواقع الذي نعيشه اليوم ومدى تبدل معطياته.. إن الحرية التي تتكلم عنها يا أستاذي الفاضل لا تصلح للعامة من الناس.. إنها شيءٌ مكلفٌ وثمينٌ يحتاج لمن يقدر قيمته من الناس ويعي معناه ويعرف كيف يستخدمه ويستمتع به.. لقد منحتهم كل الحريات الاجتماعية التي يفهمونها ويحتاجون إليها وبإمكانهم استخدامها والتمتع بها، وعملت جهدي على توفير وسائل الراحة والترفيه لهم.. هل تريدهم أن يمتلكوا نفس القدر من الحرية الذي يمتلكه السلطان؟. وماذا سيفعلون بتلك الحرية؟ يتصرفون بها كما يحلوا لهم، ينتقدون طريقة الحكم وشخصية الحاكم، ويبدون آراء جاهلة في سياسة الدولة وكيفية إدارتها وحكمة قائدها؟ لن يحدث مثل هذا الشيء في عهدي أبدا يا عمرود.. إنني إن سمعت نصيحتك، وفعلت ما تريدني أن افعل، لن يكون بإمكاني

أن اشعر بحرية ولا أن استمتع بحكم.. إن الحرية يا صديقي مفهومٌ نسبيٌ.. لا تكون ذات معنى إلا حين يملك الراعي منها أكثر بكثير مما تملك الرعية، وإلا فقدت الحرية معناها.. إن ما تبديه من آراء ونصائح اليوم، وبالرغم من حسن نوايها، هي أفكار غير عملية، وهذا يعود بالطبع لعدم توفر الخبرة لديك فيما يتعلق بأصول الحكم.. إن من غير الممكن أن يتمكن الحاكم من السيطرة على زمام الحكم إذا كان ما لديه من حرية يساوي ما لدى عامة الشعب منها.

إن العامة من الناس لا تزيد كثيراً عن كونها قطيعاً من الغنم يا عمرود.. إنها جموعٌ جاهلةٌ تتصف بالغوغائية، تصفّق دون أن تعرف لمن تصفّق، ولا متى ولا لماذا تصفق. وهذا يجعل من الصعب على الحاكم أن يسيطر عليها ويتحكم في مزاجها المتقلب إلا من خلال خلق ظروف موضوعية تجعل حياة الفرد تتمحور حول توفير قوت يومه.. ألم ترى ماذا فعلوا حين تغلب فريق الشمس على فريق القمر في مباراة كأس السلطان قبل أيام؟ لقد كادوا أن يقتلوا بعضهم بعضاً ويُعيثوا في الأرض فساداً لولا تدخل الجيش وقيامه باعتقال العشرات وزجهم في السجون.. إنني يا صديقي أريد من رعيتي ألا تفكر كثيراً، لأنني أريد أن أريحها من عناء التفكير.. أريدها أن تمارس الحب واللهو واللعب والمتعة الجنسية كما تشاء.. ترقص وتغني متى تشاء، وتتمتع بحياتها كيف تشاء، دون أن تعتدي على صلاحيات وحقوق السلطان، أو تنتقص من حريته في إدارة شؤون البلاد.. إنني أريد في الواقع أن أخفف عن رعيتي أعباء الحكم، وأن أبعدها عن متاهات الإدارة ومتاعب التفكير في السياسة.

أما فيما يتعلق بالتعليم فقد اكتشف أحد الأساتذة من أمثالك – علك لا زلت تذكر صديقك الأستاذ عكرود – طريقةً جيدةً، بل جهنميةً لتوفير فرص التعليم للمتذمرين والمحتاجين من أبناء الشعب. لقد اقنع عكرود المستثمر جشعود بإقامة معهدٍ دراسي ذي تخصصات عديدة في مدينة قمره، يلتحق به الراغبون في التعليم مقابل دفع رسوم دراسيةٍ معقولة. ولأن الفكرة أعجبتني كثيراً، قررت الموافقة عليها فوراً، وأصدرت توجيهاتٍ عاجلة للدائرة المختصة بالتعليم للعمل على تعميم الفكرة على جميع المدن الرئيسية في البلاد.. إن تحويل المدارس التربوية والمعاهد العلمية إلى مؤسساتٍ ربحية من شأنه أن يضاعف عدد المؤسسات التعليمية بسرعة، ويخلق آلاف الوظائف الجديدة للعاطلين عن العمل، ويمهّد الطريق لقيام منافسةٍ صحيةٍ بين المؤسسات التعليمية، وهذا من شأنه أن يعود على أصحابها من مستثمرين وتجار بالنفع والمال الوفير. وحيث أن لدينا قانوناً بفرض ضرائب على الدخل، فإن أرباح شركات التعليم سوف تساهم في زيادة دخل الدولة من الضرائب، وبالتالي توفير المزيد من المال لقيام الدولة بواجباتها تجاه الفقراء والمحتاجين.

نعم.. إنني أذكر الأستاذ عكرود جيداً، قال عمرود بسخريةٍ وألم، وأعرف أنه أصبح الرئيس الجديد لمجلس الشورى الموقر.. لقد كان في الماضي القريب صديقاً لي، بل الصديق المفضل، لكنه لم يعد صديقاً اليوم بعد أن خان الأمانة. لقد أثبتت الأيام أن عكرود لا يكترث لصديقٍ أو لصداقةٍ على الاطلاق، ولا يحترم وعداً يقطعه على نفسه، ولا يشعر بالولاء لإنسانٍ أو لفكرةٍ معينةٍ أو لمؤسسةٍ بحّد ذاتها، ولا يحب شيئاً أو شخصاً سوى المال ونفسه.. نعم.. انه يخاف جبروت السلطة وبطشها

لأنه جبان، ولذا يتملقها ويحاول التقُّرب منها، لكنه لا يثق بها، ولا يحترم مبادئها. قد يكون هذا كلام جارحٌ يا سيدي السلطان، لكنه مع الأسف حقيقةٌ، لا أعتقد أنك تختلف معي في مضمونها.

أما فيما يتعلق بفكرة تحويل المؤسسات التعليمية إلى مؤسسات تجارية ربحية، أو بالأحرى إلى دكاكين تبيع التعليم والمعلومات لأبناء الشعب كما تبيع الشعير للبهايم، فهي بلا شك فكرةٌ جهنميةٌ.. لكنها لن تخدم قضية التربية ولا التعليم ولا طالبي العلم إطلاقاً.. إنها فكرةٌ لتمكين الدولة من التهرب من إحدى أهم مسؤولياتها الوطنية، والسماح بفتح المجال لقيام الأثرياء والتجار والسماسرة باستغلال الفقراء والضعفاء. لذا لن يكون باستطاعة هذه الفكرة، كما أنه ليس من أهدافها أيضاً، توفير العلم للمحتاجين، أو تربية جيلٍ جديدٍ من الشباب على حب الوطن والاخلاص له، ولديه ما يكفي من الحوافر المعنوية لطلب المزيد من العلم والالتزام بأمانة الكلمة.. إن تحويل المؤسسات التعليمية إلى مؤسساتٍ ربحيةٍ سيجعل التعليم سلعةً تباع وتشترى، لا يحصل عليها سوى القادرون على دفع تكاليفها الباهظة، وسيؤدي إلى تعهير قضية التربية بشكل عام، وهي قضيةٌ لا قيمة ولا معنى للعلم بدونها.. قد يحصل الطالب على بعض المعرفة والعلم، لكنه لن يحصل على التربية السليمة.. إن التربية السليمة هي الوسيلة التي تجعل العلم أداة مجتمعية لتحقيق التقدم، وقيمةً اجتماعيةً ذات أبعاد أخلاقية، وأداةً لتخفيف حدة التفاوت الطبقي في المجتمع، وإطاراً ثقافياً لاحتضان فكرتي الحرية والتسامح وإقامة دولة القانون والمساواة.

من ناحيةٍ أخرى، حين يشعر الطالب بأنه يقوم بدفع رواتب أساتذته بدلاً من قيام الدولة بذلك، يصبح من الصعب عليه احترام الدولة

أو احترام أساتذته وتقدير عملهم وعلمهم. وهذا من شأنه أن يسلب التعليم جزءاً كبيراً من قيمته المجتمعية، ويضعف مساهمته في العملية الإنتاجية، ويقوض حب المعلمين لمهنة التدريس واحترامهم لأنفسهم، مما سيؤدي إلى إضعاف إخلاصهم لعملهم وعلمهم وطلابهم ووطنهم.. إن تحويل التعليم إلى سلعة تباع وتشترى يا سيدي، وتحويل المعلمين إلى مستأجرين يعملون لدى شباب مراهق وتجار ومستثمرين وسماسرة لا يفقهون قيمة العلم ولا يقدرون دوره المجتمعي، سيؤدي - وبكل تأكيد - إلى انخفاض مستوى التعليم بوجه عام، وضياع مفهوم التربية بشكل خاص، كما أن من المؤكد أن يترتب على ذلك حدوث قناعة لدى الطالب أن من حقه، بصفته ممّولُ العملية التعليمية، أن يحصلَ على شهادة دراسية حتى وإن فشل في استكمال متطلباتها العلمية. وهذا من شأنه أن يعود على المجتمع بنتائج سلبية للغاية، إن لم تكن كارثية، خاصةً حين يكتشف الناس أن معظم البضاعة التي حصلوا عليها من دكاكين التعليم ومقاوليه الأفاضل، كانت بضاعة شبه تالفة، مضارها أكثر من منافعها.

إن العلاقة الخاصة التي كانت تربط عمرود بالسلطان جلهود جعلت بإمكانه مصارحة السلطان ونقد توجهاته وسياسته بشجاعة غير عادية، وذلك لأن السلطان جلهود الأول كان أحد تلامذة الأستاذ عمرود أيام الدراسة، وكان عمرود قد استثمر في تربيته الكثير من الوقت والجهد، علَّه يصوب الأمور في البلاد، ويعيدها للسير على النهج الذي خطه جده الأكبر ومؤسس دولة الوحدة جلهود ابن مشهود. لكنه حين ذهب لمقابلة السلطان مع بعض أعضاء مجلس الشورى المعين بهدف إبداء النصيحة، اكتشف أنه كان أستاذاً ساذجاً لم يستوعب معنى

السلطة، ولم يدرك ما لها من إغراءات.. لقد ظن عمرود أن بإمكان مثقف ملتزم أن يصنع من ولد طالح مستهتر رجلاً صالحاً، وأن من الممكن استخدام المنطق لإقناع حاكم مستبد وظالم بالتحول إلى حاكم عادل مستنير، يسمح بمشاركة الناس في إدارة الحكم، ويستشيرهم في توزيع ثروات البلاد، ويعمل على تحقيق العدالة والحرية في المجتمع.

إن عمرود لم يكن قد أدرك بعد أن الحكم المطلق هو فسادٌ وإفسادٌ مطلقٌ، وأن السبيل الوحيد لإصلاح نظام الحكم والحاكم الفاسد يكمن في تغيير ثقافة الشعب المغلوب على أمره أولا. كان عمرود مثقفاً حالماً لم يتذوق في حياته طعم السلطة، ولم يختبر إغراءات الثروة، ولم يتخيل عنفوان الجشع، ولم يعش نشوة القوة وسحرها الفتاك. وحين أدرك عمرود أن لا فائدة تُرجى من مواصلة الحديث مع تلميذه السابق، قال يائساً: أنت رجلٌ طموحٌ يا جلهود، لكن الطموح لا يتعارض أبداً مع العدل.. إن بإمكانك أن تنظر إلى الطموح باعتباره وسيلةً للحصول على السلطة بهدف استخدامها لتحقيق العدل وكسب حب الجماهير واحترامهم. وهنا قاطعه جلهود قائلًا: أنا سلطان يا عمرود.. لم أعد رجلًا عادياً كما عرفتني في الماضي.. إن من الصعب جداً أن يكون السلطان عادلًا، إلا إذا تخلى عن معظم صلاحياته وأملاكه وأحلامه.. إن من أهم صفات الملوك والسلاطين العظام، ذوي البأس والشأن، إذلالِ علية القوم، وهذا يتنافى مع مبدأ العدالة في الحكم.

نعم سيدي، أجابه عمرود.. إنني لا أنكر أنك سلطانٌ، لكن بإمكانك أن تكون سلطانا وعادلا أيضا.. إن الحاكم المستبد رجلٌ خائفٌ، لا يأمن طرف الرعية لأنه يعتدي على حقوقهم. وبالرغم من كونه سلطاناً قوياً يملك جيشاً، لكنه مهزوم في داخله، لا يعرف طعم الحرية الحقيقية،

ولا راحة الضمير.. إنه إنسانٌ تغلَّب الجشع وحب السيطرة فيه على إنسانية الإنسان في طبعه، لا يأتمنه تابع، ليس له صديق، ولا يثق به عميل. أما الرجل الحر فهو سيد نفسه، حتى وإن كان فقيراً. إنه ملكٌ واثقٌ، عادلٌ مع نفسه ومع غيره، يعرف حدوده ولا يتجاوزها، يحترم الآخرين ولا يعتدي على حقوقهم.. إنني أدرك الآن أننا نتفق على مبدأ التغيير، ونختلف على هدف التغيير ووسائل تحقيقه.. إن التغيير الذي كنتُ أعنيه حين كنا في صفوف الدراسة معاً، ليس من اجل زيادة الوجه القبيح قُبحاً، بل من أجل إزالة معالم القبح عنه، وزيادة الوجه الحسن حسنا.. وما دُمَت لا ترى ما أرى، لم يعد أمامنا سوى الفراق.

نهض عمرود من مقعده حينئذٍ وخرج من قصر السلطان جلهود وفي فمه مرارةٌ، وفي قلبه حسرةٌ على وطنه وشعبه، وفي عينه دمعة حزنٍ حارقةٌ. وهناك سمع صوتاً يأتي من داخله يواسيه قائلا: هذه البلاد لم تعد مناراً للعلم كما أرادها جلهود الأكبر وأحفاده الأولين، لقد تغيرت كثيراً يا عمرود.. لقد أصبحت منذ بداية عهد جلهود الثالث وادياً للجهل ومرتعاً للجهالة. تسَّمر عمرود في مكانه لحظات، تراكضت الأفكار في رأسه وتلاطمت، وإذا به يقول دون وعي: نعم، إنك على حق.. لقد تغيرت البلاد كثيراً وأصبحت وادي للجهل، ويبدو أن جلهود الثالث أدرك بحسه الفطري أن الأمانة تقتضي أن تُسمى الأشياء بأسمائها، ولذلك أطلق على البلاد منذ تسلمه السلطة اسم «مملكة جهلواد» لتعكس هويتها الحقيقية.. بلاد تملكها عائلةٌ فاسدةٌ، يعمُّها الجهل، وتعُّششُ الجهالة في خلاياها الثقافية.

بعد تفكيرٍ طويلٍ في الأمر، رأى عمرود أن العمل الفردي لا يجدي، وأنه لا بد له من أخذ زمام المبادرة والقيام بعملٍ جماعي لمواجهة العاصفة، وإيقاف السلطان جلهود عند حده، والحد من غِيه، وإنقاذ البلاد والعباد من الكارثة التي كانت تلقي بظلالها الكثيفة على معظم أرجاء الوطن. ولذا قرر أن يقوم بتأسيس تنظيمٍ سياسيٍ يدعو إلى إصلاح الحكم والحاكم والنظام والثقافة والاقتصاد والتعليم والمجتمع. وقبل أن يخطو خطوته الأولى، ويبوح بسره للمقربين منه، رأى عمرود أنه لا بد من العودة إلى الماضي، وذلك لتحديد متى وكيف ولماذا تراجعت المبادئ السياسية التي أقيمت دولة الوحدة على أساسها، وتحليل أسباب تدهور القيم والمثل الأخلاقية في المجتمع، وتقييم مدى تراجع النشاطات الاقتصادية في البلاد، والاجابة على أهم الأسئلة، لماذا تقادمت الثقافة وغدت غير صالحةٍ للتعامل مع مستجدات المكان والزمان.

ومن أجل التعرف على طبيعة الظروف التي تسببت في حدوث الانحراف السياسي والانحطاط الثقافي والتمزق المجتمعي، كان على عمرود أن يفكر طويلاً، وأن يحلل مكونات هوية المجتمع الثقافية وعناصرها الأساسية، وأن يغوص في ثناياها بحثاً عن المفتاح... مفتاح التخلف وأداة التغيير ومعول الهدم والبناء على طريق الإصلاح. لقد أدرك عمرود بحسه المرهف وعقله اللمَّاح أن مفتاح العلاج لكل إشكالٍ مجتمعي يكمن في تشخيص المرض أولاً، والتعرف على طبيعته وملابسات حدوثه ثانياً، وتحليل عناصر الثقافة الشعبية السائدة،

أي البيئة المجتمعية التي نما الإشكال في ظلالها ثالثاً. وهذا قاده إلى التفكير في مدى مسؤولية الشعب عما أصابه من كوارث، والغوص في إشكاليات الخطايا التي ارتكبها العرابيد بحق أنفسم، والتي أوصلتهم إلى الحال التي يعيشونها من فقرٍ وبؤسٍ وظلمٍ وكبتٍ وتخلف.

وهنا همس عمرود في أذن ضميره متسائلا: هل من المعقول أن يرث جلهود الأكبر، ذلك المثقف الطاهر، هذا الجلهود الطاغي المستبد؟ وهل من المعقول أن يعقب نجاح الأول في الثورة على عقم التقاليد المهترئة ومهزلة الآلهة الصماء، نجاح الثاني في إعادة عقارب الساعة إلى الوراء مئات السنين، واستبدال عقم التقاليد البالية بنظام حكم ظلامي يستبدل تأليه الحجارة بتأليه الحاكم؟ وقبل أن يسمع الجوابَ من ضميره، تحدث ضمير التاريخ قائلاً: نعم يا عمرود.. إن هذا ممكن حين تكون الثقافة الشعبية السائدة متخلفةً، وذلك لأن الثقافة هي الإطار المرجعي الذي يتحكم في تشكيل مواقف الناس وقيمهم، ويقوم بصياغة طرق تفكيرهم وتنظيم العلاقات الفردية والفئوية فيما بينهم، ويعمل باستمرار على إعادة تشكيل المواقف الخاصة والعامة من القضايا المصيرية.. حين تشيخُ الثقافة يا عمرود يكون مصيرها التخلف، وحين تدخل الثقافة مرحلة الترهل والشيخوخة يتخلَّف كل شيءٍ يتنفس حولها.. أما حين يسهر المثقفون على ثقافتهم وتعمل نظم التربية والتعليم على نقدها وتنقيحها وتجديدها باستمرار، فإن المجتمع يغدو وردةً أبديةً، تزهر كل ربيع، وتتفتح كل صباح، وتتعطَّر في كل مناسبة.

وأثناء الغوص في أعماق الذات والماضي والسير في دهاليزه المنيرة والمعتمة، اكتشف عمرود أن مسؤولية التخلف وفقدان الحريات العامة

لا تعود إلى طبيعة الحكم وممارسات الحاكم بقدر ما تعود إلى طريقة حياة الشعوب المختلفة ومكونات ثقافاتها السائدة. وهنا استطاع عمرود أن يحدِّد خمسة عوامل أساسية لحدوث التخلف: ميل الثقافات القديمة إلى الخنوع والتواكل، سيطرة عقلية القطيع على الجماهير، تبلور طبقة تجارية يحركها الجشع، تتحالف مع نظام الحكم الجائر وتتقاسم معه المال والثروة والجاه، اتجاه المثقفين التقليديين إلى التواطؤ مع السلطة السياسية والتركيز على المشاعر العاطفية على حساب العقل والعقلانية، وغياب الرقابة الشعبية والمساءلة القانونية فيما يتعلق بسياسات الحكم وممارسات الحاكم وفساد التجار ومواقف المثقفين المستهترة.

كان الملك جلهود الثالث أول من تنبه لدور الثقافة الشعبية في تكريس المفاهيم الخرافية والتوجهات الإتكالية بين المواطنين، وإن لم يكن آخر من استخدمها أداةً لتدعيم حكمه وإحكام سيطرته على البلاد والعباد. ولذلك تضاعفت في عهده أعداد المشعوذين من السحرة والدجالين، وتنامت في ظل حكمه أعداد المنافقين والمنتفعين من دعاة الثقافة، وقام هؤلاء بتوظيف ما كان لديهم من أمثالٍ شعبيةٍ ونظرياتٍ كلاميةٍ ومواهب خطابيةٍ لتزيين عيوب الحكم، وتبرير أخطاء الحاكم، وتكريس عقلية القطيع بين عامة الناس. وبسبب نجاح تجربة الحاكم في تجنيد جيشٍ من المثقفين التقليديين كعملاء في بلاطٍ فاسدٍ، قام أصحاب المال بتقليد السلطان وشراء ولاء مجموعةٍ أخرى من دعاة العلم والثقافة، حيث قام هؤلاء بدورهم بتوظيف ما كان لديهم من رصيدٍ شعبيٍ ومعارف كلاميةٍ لتبرير فلسفة الاستغلال الاقتصادية، وتمجيد الجشع والطبقية، وايجاد الأعذار لممارسات النهب والرشوة والاستعباد. ومع تتابع الأيام، أصبح أولئك المثقفون ودعاة الثقافة

الشعبية أبواقاً وطبولاً لمستخدميهم، يأتمرون بأمرهم، ويتبعونهم حيث ذهبوا كما تتبع الكلاب الوفية سادتها، ويعيشون على ما يقدمه لهم السادة من فتات طعام. وبينما كان المثقفون التقليديون ينشرون جهالة التغييب، كانت جماهير الشعب تغوص في غيبوبة الجهالة.

وبناءً على تلك الحقائق المرَّة، اقتنع عمرود بأن الإصلاح لا بد وأن يشتمل على تطوير ثقافة شعبية جديدة، ويقوم بإعادة تثقيف دعاة الثقافة التقليدية والمدافعين عن العادات المتوارثة التي تجاوزها الزمن منذ زمن بعيد ، والنضال بقوة من أجل إعادة هيكلة مؤسسة الحكم وثقافتها السياسية. وهذا يستدعي عملاً متواصلاً لعقود قد تطول، مما يعنى أن هناك حاجةً لقيام حركة سياسية – اجتماعية جديدة تحمل لواء التغيير وتقوم بالترويج له بشكل متواصل، وتعمل في الوقت ذاته على رسم برنامج إصلاحي واضح المعالم، مع تحديد عناصره ومتطلباته الأساسية وأهدافه بعيدة المدى ومسئولية الشعب والمثقفين في تحقيقه على أرض الواقع. وهذا يعني أن على الحركة وقيادتها الواعية أن لا تتملق السلطة مهما كانت الأسباب، وأن لا تساير دعاة الحفاظ على الثقافة والموروث من عادات وتقاليد وخرافات مهما كانت النتائج. وبناء على ذلك رأى عمرود أن عليه أن يبدأ بتأطير أفكاره وتحديد مضامينها الرئيسة أولاً، وتجنيد أكبر عدد ممكن من الشباب في صفوف حركة الإصلاح المعنية ثانياً، وذلك باعتبارهم أداة وهدف عملية التغيير، وإقناعهم بأن تحقيق الأهداف يحتاج لجهدٍ كبيرٍ لا يعرف الكلل أو الملل ثالثاً.

كان الأستاذ عكرود الذي عينه السلطان رئيساً لمجلس الشورى مدرساً وزميلاً لعمرود أثناء العمل في مهنة التدريس، وبالتالي كان

أستاذاً سابقاً للسلطان جلهود. وبحكم الزمالة في العمل والجوار، تطورت العلاقة بين عكرود وعمرود، وتوطَّدت مع الأيام عُراها. وفي يوم من الأيام، جاء عكرود إلى بيت زميله وعلى وجهه علامات الاضطراب والقلق. وحين سأله عمرود عن سبب قلقه، وألَّح عليه في السؤال، قال عكرود إنه جاء ليطلب من عمرود يد أخته «لونا». فوجئ عمرود بذلك الطلب، لكنه لم يرَ أن من حقه أن يرفض أو أن يوافق على طلب زميله قبل استشارة أخته، حبيبة روحه وصديقة عمره. وحين استشارها في الموضوع، وافقت بعد تردد، وذلك لخوفها على أخاها عمرود من الوحدة، وشعورها بأن من واجبها البقاء إلى جانبه بعد أن تعودا على العيش معاً، وذلك بعد أن مات الوالدان ولم يعد لهما أمٌ ترعاهم، ولاوالد يوجههم ويحميهم.. لقد كانت أمهم قد ماتت وتركتهم صغاراً، وكان أبوهم قد مات في ظل ظروفٍ غامضةٍ رفضت السلطة في عهد الملك جلهود الرابع الكشف عن ملابساتها.

وبعد مرور حوالي السنة على زواج لونا من عكرود، رزقا ابنةً جميلةً كانت في غاية الذكاء والفطنة، اختار لها عمرود اسم «سوما». عاشت لونا وعكرود حياةً هادئة لسنوات، لم تعترضها الصعاب إلا بعد أن تسلم السلطان جلهود مقاليد الحكم بعد موت أبيه. إذ رأى عكرود في ذلك الحدث فرصةً سانحةً يمكن استغلالها لتحسين أوضاعه الاقتصادية وتعزيز مكانته الاجتماعية. ولذا بدأ يتقرب من تلميذه السابق، يقوم بتبرير تصرفاته الاستبدادية، ويصوغ النظريات الكلامية لدعم سياساته التعسفية المنافية لمبدأ الحرية واحترام حقوق الغير، بينما كانت تصرفات السلطان تزداد ظلماً وغياً. وبسبب اتجاه عمرود وأخته لونا إلى نقد تلك السياسات والنظريات، ظهرت الخلافات بين عكرود

من جهة، ولونا وعمرود من جهة ثانية، وأخذت تتطور بسرعة نحو الأسوأ. وقبل أن تبلغ سوما السابعة من العمر، كانت العلاقة الزوجية بين عكرود ولونا قد انتهت بالفشل، حيث سقطت ضحيةً لسياسة الحكم الاستبدادية وفلسفة الانتهازية والتملق الثقافية. وبعد الانفصال عن عكرود، عادت لونا ومعها ابنتها سوما إلى العيش مع أخيها عمرود الذي عشق سوما منذ يومها الأول. وبينما كان الحب في بيت عمرود يتعمق يوما بعد يوم، كانت لونا قد غدت الأخت والأم والصديق الوفي لأخيها وابنتها على السواء.

بعد أن افترق السلطان جلهود الأول وعمرود، وذهب كل واحد منهما في طريقه، قام السلطان بترويج إشاعة جديدة بين الناس، وتوظيف أتباعه من المثقفين التقليديين وعملائه من وجهاء العائلات والعشائر والمخابرات لنشرها في بلاد العرابيد على نطاق واسع. ولقد أدعت تلك الإشاعة أن جذور آل جلهود تعود إلى مجذوب ابن مهبوب الذي اختفى من مدينة عتره قبل حوالي خمسة قرون ليلتحق بحاشية الآلهة التي كانت تعيش تحت مياه بحيرة البهاليل، ويصبح ممثلاً لها في بلاد الكراميد، يهدي العباد ويقودهم إلى إطاعة أوامر الآلهة. وتضيف الإشاعة القول، إن روح مجذوب جاءت السلطان جلهود في نومه، وسكنت في رأسه وقلبه، وطلبت منه أن يغدو الممثل الوحيد للآلة على الأرض. ومن أجل منح الإشاعة قدراً من المصداقية، اختفى جلهود من قصره الكائن على شاطئ بحيرة العيون بضعة أسابيع، وخرج بعدها على الناس من قصره الكائن على شاطئ بحيرة البهاليل في عتره، وقد غير لباسه وطريقة كلامه، وحمل في يده كتاباً أزرق اللون، أسماه «كتاب الحكمة». ولقد لاحظ الناس بعد ذلك أن السلطان جلهود لم يعد يبتسم إلا نادراً،

وأنه كان ينظر إلى الأرض حين يتكلم مع الناس أو يخطب فيهم، وكأنه يستوحي كلامه من الآلهة التي تسكن تحت سطح الماء والأرض بعيداً عن السماء.

بينما كان السلطان جلهود يمارس هوايته المفضلة في إذلال المثقفين وشيوخ العشائر، ويدعي أنه ظل الآلهة العظيمة على الأرض، كان جيشه يعيث في الأرض فساداً، يعتدي على الناس بغير حق، ويهين المواطنين ويذلهم بلا سبب، وينهب كل ما يعترض طريقه من ممتلكات خاصة وعامة. أما رجال المخابرات فقد كانوا يقتحمون البيوت في الليل دون إذن من أهلها، يعتدون أحياناً على الناس بالشتيمة والضرب، يهددون الميسورين منهم بالاعتقال، ويلاحقونهم حتى يدفعوا لهم الرشاوى، والتي كانت قيمتها تتزايد يوماً بعد يوم. ولقد كان من نتائج تلك التطورات خلق منافسة شديدة بين فرق المخابرات التي كانت تتناوب على مراقبة الناس والتجسس عليهم، مما أدى إلى نشوب خلافات حادة بين رجالاتها أنفسهم تسببت في اثارة الشغب أكثر من مرة وتكرار الفوضى في المدن الرئيسية في البلاد. وفي غياب المسؤولية والمحاسبة، تمادى رجال المخابرات في انحرافاتهم، حتى أصبح كبار رجال الدولة وأعضاء مجلس الشورى هدفاً للابتزاز وضحيةً من ضحاياهم. ولقد ترتب على ذلك شيوع حالة من الشك والرعب وفقدان الثقة بين الناس، واضطرار كل مسئول إلى محاباة واحد أو أكثر من ضباط المخابرات ورشوتهم وطلب حمايتهم. وبالرغم من معرفة السلطان جلهود بما كان يرتكبه أولئك العملاء من تجاوزات وجرائم كانت تصل أحياناً إلى حد تعذيب الأبرياء وقتلهم، إلا أنه لم يأمر بتشكيل لجنة رسمية للتحقيق فيما كان يشاع من تجاوزات، كما أنه لم يقم بتكليف أيٍّ مؤسسة من

مؤسسات الدولة بمراقبة تلك الأجهزة ورصد ما يرتكبه رجالها وجيوش عملاؤها من أخطاءٍ وخطايا، ومحاسبة المذنبين منهم.

كانت عادة الاحتفال باكتمال القمر كل شهر، واستحمام الرجال والنساء شبه عراة في بحيرة الاهاويل التي أصبحت تقليداً منذ بدء مجتمع الفلاحيد، قد انتقلت بعد قيام دولة الوحدة إلى مدينتي عتره وقمره. وبينما شجع كل حكام وملوك آل جلهود تلك العادة بلا استثناء، حرص الملك جلهود الرابع، ومن بعده أبنه السلطان جلهود الأول على دعمها والمشاركة في مراسيمها بشكل شبه منتظم. كان الملك، ومن بعده ابنه السلطان ينزل مع بعض المقربين منه في ليلة القمر إلى الشاطئ، يتنقل بين الناس ويتبادل الأحاديث معهم ويتعّرف عليهم عن قرب، يشاهد مع مرافقيه شباب وشابات المدينة يستمعون لأغاني الطرب وهم يغنون ويرقصون شبه عراة، مما أعطى السلطان وحاشيته فرصة التمتع بجمال النساء شبه العاريات في طريقهن من البحيرة إلى حلبة الرقص وبالعكس.

وفي ليلةٍ من الليالي القمرية الصافية، قامت فتاةٌ جميلةٌ باستعراض حسنها وأنوثتها المتدفقة، وعرض كل ما كان لديها من مواطن الإغراء الجنسي أمام السلطان جلهود، وذلك في محاولة لإغرائه والحصول على شرف الانضمام إلى نسائه وحريمه والعيش في قصره. وقبل أن تنتهي السهرة ويعود الناس إلى بيوتهم، كانت «شالا» قد نجحت في تحقيق هدفها، إذ طلب السلطان من مرافقيه اصطحاب شالا إلى قصره، حيث قام هناك بالزواج منها وضمِّها إلى حريمه التي كانت أعدادها تتزايد شهراً بعد شهر. ومنذ ذلك اليوم، أصبحت عادة قيام حاكم البلاد والعباد كل ليلةٍ من ليالي القمر باختيار شابةٍ جميلةٍ تروق

له قد أصبحت تقليداً رسمياً. وبعد أن تجاوز عدد نسائه العشرة، بدأ السلطان يعامل كل امرأة لا تُرضي مزاجه وتُشبع غريزته في الليل كجارية مع قدوم النهار، واستبدالها بامرأة أخرى أكثر إغراءً وجاذبيةً. أما الجواري فكان السلطان يعاملها كأشياء يملكها ويتصرف بها كما يشاء. وبمجرد دخول «فتاة القمر» كما كانوا يسمونها حينئذٍ إلى القصر، كانت تختفي تماماً عن الأنظار، إذ لم يسمح نظام القصر لأهالي وصديقات حريم السلطان بزيارة القصر، أو رؤية جواريه، أو حتى معرفة أخبارهن.

وبينما كان السلطان جلهود يزداد جشعاً واستبداداً يوماً بعد يوم، وكان رجال جيشه وعملاء مخابراته يزدادون حماقةً وشراسةً واستخفافاً بعقول الناس ساعةً بعد ساعةً، كان عمرود يقوم بنشر دعوته بين المقربين منه دون ضجيج، ويعمل على كسب المزيد من الأنصار لفكرة الإصلاح والتغيير. لكن عمرود أدرك بعد جهدٍ مضني دام سنتين على التوالي أن من الصعب على عامة الناس استيعاب أفكاره الإصلاحية غير المألوفة، وأن غالبية المواطنين كانت راضيةً إلى حدٍ بعيد عن أحوالها المعيشية وأوضاعها الاجتماعية، وبالتالي غير معنية بالتغيير، وذلك بسبب خشيتها من المجهول واطمئنانها إلى التقليد. وبالتدريج، توصَّل عمرود إلى قناعةٍ راسخةٍ مفادها أن عامة الناس استمرأت الذل والهوان، وقبلت الاستعباد، وتعودت على التعايش مع الظلم، ولم تعد تدرك حجم حريتها المسلوبة، أو ترغب في أن يقوم أيُّ شخصٍ بتذكيرها بحرياتها المفقودة وحقوقها المصادرة. كانت غالبية المواطنين في الواقع لا تخاف السلطان أو زبانيته بقدر ما كانت تخشى التغيير.. فقدان العادات القديمة والتقاليد والأعراف المتوارثة،

وضياع الحكمة المألوفة التي تعوّدوا عليها، ولم يعرفوا بديلاً لها.

كان أكبر المفاجآت التي صدمت عمرود وأذهلته أثناء قيامه بنشر دعوته بين الناس هو اكتشاف أن السلطان جلهود كان، كأبيه الملك جلهود الرابع من قبله، ثاقب النظر حين اتبع سياسة التجهيل والتجويع للسيطرة على المواطنين. إذ بدلاً من اتجاه الناس إلى الثورة على الظلم والمطالبة بحقوقهم المسلوبة، انشغلوا في العمل على توفير قوت يومهم، وقاموا دون وعي بالتعود على البؤس وتقبُّل الظلم، وما كان يعنيه ذلك من كبت واستعباد وتعايش مع الفقر والفساد. كان الجهل بايجابيات التغيير المستهدفة يعني الخوف من البديل، ويحتُّم بالتالي الارتماء في حضن الاتكالية الدافئ، بعيداً عن عناء الفكر والتفكير في مشكلات الحاضر، وتجنباً للقلق حيال المستقبل ومما قد يحمله التغيير في ثناياه من أشياء غريبة لا يعرفونها ولا يحسنون التعامل معها. وهكذا أدرك عمرود أن أسوار الجهل والفقر أعلى بكثير من أسوار السجون والمعتقلات، وأقوى من مؤسسات القهر والاستبداد، وأعتى من جيوش الظلم والاستعباد، وأن الحاكم المستبد يجد دوما من يسبح بحمده من الناس ويستجديه طالباً المزيد من الكبت والتسلُّط والاستبداد.. نعم، همس عمرود في داخله، إن الظلم يبدأ بالجهل، وينتهي بالقهر.

وفي يوم من أيام الصيف الحارقة، مر عمرود في طريقه إلى بحيرة العيون للتأمل وقضاء بعض الوقت مع الطبيعة على رجل بائس يجلس بجوار حمار أكثر بؤساً. كان الرجل يجلس على الأرض ورأسه بين يديه على جانب طريق قديمة خطتها حمير المستوطنين الأوائل، تحدُّها الصحراء من ناحية، وحدائق غناء من الناحية الثانية. كان الملك جلهود الرابع قد أقام تلك الحدائق وما بداخلها من قصور وأشجار

وطيورٍ بعد أن صادر عين الماء التي تنبع من تلك المنطقة وحرم السكان من مياهها. ذهل عمرود حين رأى منظر الرجل وحماره وكأنهما من بقايا زمنٍ لم يعد له أثر.. توقف هناك طويلاً.. سرح ذهنه في عالم الخيال حتى نسي نفسه ومكانه وزمانه وكاد أن يدخل في غيبوبة. وحين عاد إلى وعيه وبيته في المساء، رفضت صورة الرجل والحمار والبؤس الذي جسداه في أسوأ صوره أن تفارق خياله، لذا حاول تسجيل مشاعره من خلال كتابة بعض الكلمات تحت عنوان «الحمار الحليم» قال فيها:

جلسَ هناك
وحيداً بلا خيمة
بلا أشجارْ
تحميه من الشمسِ
من الحرِّ
من عاصفة غُبارْ

مُغْمضُ العينينِ
في صحراء قاحلةٍ
حارقةٍ
يحتمي بظلِ حمار

وعلى الجانبِ الآخر
جنانٌ وارفةُ الظلال
قصورٌ شامخةٌ

ثمارٌ يانعةٌ
مياهٌ جاريةٌ
طيورٌ وأزهار

يملكها سلطانٌ عابسٌ
وَرِثَ عن أجداده المُلكَ
وبعض وقارْ
وأسوارا ً من الجهل والفقر
شيَّدوها حولَ الشعبِ
أعلى جدارْ

نظرتُ إلى وجه السماء
فيافي الصحراء
أُناجيها
أسألُها عن العدلِ
عن الظلم
عن الغيبِ
عن الأسرارْ

وأتساءلُ عن الشقاءِ
طريق الثراء
أسباب البؤس
ذنوب التعساء

وتعسُّف الحكام والأحبارْ
انتظرتْ حتى تعبتُ
وطال بي الانتظارْ
لم أسمع جواباً
استفساراً
ولا أعذارْ
أدرت وجهي نحو الحمارِْ
وجدته يقف بهدوءٍ
وكلٍّ وقارْ
يحترقُ
يختنقُ
ليحمي سيِّدهَ من قسوة الشمس
من الحرِ
ومن عاصفةِ غُبارْ

شعرت برغبةٍ جامحةٍ لمصافحتهِ
مُعانقته
وتتويجهَ أميراً للرحمةِ
على أرضٍ سادها الظلمُ
عمها الفسادُ
استباحها الأقوياءُ
وغرق في وحلها الشُطار

رأيتُ في عينيه دمعةَ حزنٍ حارقةٍ
غضباً عارماً
وشعلةَ نار
تبكي أُمّةً جاهلةً
تحسبُ الخنوعَ تواضعاً
والفقرَ عدلاً
والذلَ صبراً
والصراحة وقاحةً
والمطالبة بالحق عارْ

أمةً سادها الجهلُ
والبؤسُ
وخيَّم على أرضها ظلام الليل
مؤسسات القمع
وعقلية النفاق والاستهتارْ
تتباهى في روابيها السجون
وتغيب عن سمائِها الحرية
صوامع العلم
وأصالة الأفكار

وعلى شفتيه سمعت همساً
كلماتُ إباءٍ
واستنكارْ

ترفضُ إمارةً عاقرةً
وقصوراً فاجرةً
يُلطِّخُ جبينَها الذلُّ والعارْ

انحنيتُ إجلالاً لحمارٍ شهمٍ
شقاؤُهُ رحمةٌ
غباؤُهُ حكمةٌ
عنادُهُ قدوةٌ
تُجدد الأمل في العين
وتُشرِّفُ الأحرارْ

إن فشل عمرود في كسب المؤيدين والأنصار لدعوته كما كان يتمنى وبالسرعة التي كان يتوقع، لم يثنيه عن مواصلة الجهد، حيث أقنع نفسه بأن العمل يجب أن يوجه أساساً لخلق مستقبلٍ أفضل لجيل الأبناء والأحفاد، وليس من أجل تغيير حياة الآباء والأجداد. وهذا فرض عليه أن يقوم بتغيير إستراتيجيته، وأن يتوجه نحو الشباب من كلا الجنسين، وأن يتحاشى الاحتكاك بالقوى التقليدية والسلطوية المهيمنة على المجتمع. وبسبب ميل الشباب عموماً لحب الحياة، وإقبالهم على التمتع بها بنشوةٍ وحماس، كانوا أكثر تحرراً وقابليةً لتغيير مواقفهم من أمهاتهم وآبائهم وجدودهم. وحين توجه نحو الشباب، وجد عمرود في إبنة أخته سوما خير عونٍ له، وذلك بسبب شبابها اليافع، وشخصيتها الجذابة، وجمالها الساحر، وقدرتها الفائقة على إقناع أبناء وبنات جيلها بأفكارها الخلاقة ومواقفها الإنسانية البناءة. وحتى يتجنب

المواجهة مع جلهود مرةً أخرى، قرَّر عمرود أن يقتفي أثر السلطان، بأن يذهب إلى مدينة غمره حين يتركها السلطان، وينتقل منها إلى عتره أو قمره بعد أن يكون جلهود قد غادرها. وفي كل رحلاته وتنقلاته، كانت أخته لونا لا تفارقه أبداً، وكانت سوما تحمل في عينيها شمعة الحياة التي تنير دهاليز الحب في قلبه، وتلقي الضوء على كنوز عقله.

قام السلطان جلهود في تلك الأثناء بإصدار أوامر صارمةً وصريحةً لجهاز مخابراته برصد تحركات عمرود، وتتبُّع خطواته عن كثب، ولكن دون الاعتداء عليه أو إلحاق االأذى به.. كان جلهود لا يزال حتى تلك اللحظة يحتفظ لأستاذه بقدرٍ كبيرٍ من الاحترام والتقدير، وذلك بالرغم من اتساع الفجوة الفكرية والسلوكية والمكانة الاجتماعية بينهما كثيراً. وحيث أن سوما هي ابنة الأستاذ عكرود الذي غدا رئيسا لمجلس الشورى، فإن رجال المخابرات قرروا الابتعاد عنها وعدم الاحتكاك بها أيضا. وهذا جعل مهمة عمرود أقل صعوبة، وتنقلاته داخل البلاد أكثر سهولة، ومنحه هامشاً واسعاً من الحرية للتحرك ونشر دعوته بين الشباب دون خوف يذكر. إلا أن تقارير أجهزة المخابرات كانت تزداد حدة يوماً بعد يوم، محذرةً من تزايد مصداقية عمرود بين الناس، وخطورة أفكاره التّي وصفتها بالهدامة على الاستقرار في البلاد، بينما كان رئيس الجهاز الرئيس يهمس في أذن السلطان يومياً بضرورة تصفية عمرود، أو اعتقاله ووضع حد نهائي لنشاطاته قبل فوات الأوان. وبعد أن يأس السلطان من استمالة عمرود وشراء ولائه، أو الحصول على سكوته، أصدر قراراً باعتقاله وملاحقة أتباعه، متذرعاً بضرورة حماية البلاد من المشاغبين، وحاجة المواطنين للأمن والاستقرار بعيدًا عن الأفكار الهَّدامة التي كانت تروج لها فئُة قليلةٌ من الضالين.

عشاق الطيور

بعد صدور قرار السلطان باعتقال عمرود، قام رئيس جهاز الاستخبارات المركزية بإلقاء القبض عليه ونقله - بناءً على تعليمات السلطان - إلى القصر الملكي الكائن على شاطئ بحيرة الاهاويل.. البحيرة التي تربَّى عمرود على شطآنها وعشق طيورها ونباتاتها وأزهارها البرية، ونام أياماً ولياليا فوق أعشابها. وهناك أقاموا لعمرود غرفةً خشبيةً بالقرب من الشاطئ، ولكن داخل سور القصر الملكي، يتيح لرجال حرس الشواطئ مراقبتها بسهولة، والتأكد من إتِّباع عمرود للتعليمات الصادرة إليه. مكث عمرود في الاعتقال حوالي ثلاث سنوات قبل أن يُصدر السلطان قراراً بإطلاق سراحه، وذلك بعد أن تدهورت صحته كثيراً، وخاف جلهود أن يموت عمرود ويتهمه الناس بقتله والتخلص منه. وخلال وجود عمرود رهن الاعتقال في القصر، سمحوا لأخته لونا وابنتها سوما بزيارته مرةً في الأسبوع، حيث كانتا تقومان بإعداد طعامه في البيت، والإشراف على حمَّامه الأسبوعي في المعتقل، وإطلاعه على آخر الأخبار والإشاعات التي كانت تتناقلها ألسنةُ الناس، وتطلقها زبانية السلطان في أرجاء بلاد العرابيد.

وبالرغم من غضب عمرود من قيام السلطان باعتقاله، إلا أن الاعتقال منحه فرصةً غير متوقعة لمعاودة نشاط عزيز على نفسه كان قد حُرم منه حين اختار الملك جلهود الرابع ذلك الموقع بالذات لتشييد قصرٍ جديد فيه.. لقد أعطاه الاعتقال فرصة المشي والتنزه على شاطئ بحيرة الأهاويل، وإطعام البط الذي كان يحبه ويحنو عليه ويتسامر معه كلما خلى به. كان عمرود يسأل البط عن دفء مياه البحيرة، وعن

أحوال البلاد البعيدة التي يسافر إليها كل عام هرباً من البرد وبحثًا عن الدفء، ويطمئنُّ على أحوالها من علامات الصحة على البط العائد منها. وبعد أيام من مواظبته على حمل فُتات الخبز والذهاب إلى الشاطئ، حيث يسبِّح البط ويتباهى برقصاته الجماعية الانسيابية المنسَّقة على وجه الماء، كفرقة غنائية استعراضية ترقص بانسجام تام مستعرضة مشيتها وموسيقاها وألحانها أمام جمهورٍ من المعجبين، لمحَ عمرود شابةً جميلةً تقف في شرفة القصر الملكي الذي لا يبعد عن غرفته الخشبية سوى عشرات الأمتار. كانت تلك الفتاة ذات الوجه الصبوح تقوم هي الأخرى بتفتيت الخبز قطعاً صغيرةً جداً، وكأنها تطحنه بيدين رقيقتين من عجين، وتلقي به لجموع العصافير التي كانت تتجمع حول الشرفة بأعداد كبيرة كل صباح، وتتسابق على التقاط فتات الخبز في الهواء قبل سقوطه على الأرض.

تكررت لقاءات حسناء القصر مع الطيور كما تكررت لقاءات عمرود مع البط حتى أصبحت اللقاءات تقليداً يمارسه عاشقا الطيور كجزءٍ من برنامج حياتهما اليومي، ونشاط ترويحي يسعد قلبيهما. وبعد مرور عدة أيام، تجرأ عمرود وقام بإلقاء التحيةً على سيدة الشرفة الملكية بإيماءة متواضعة من الرأس. ردَّت الشابةُ الجميلة التحيةَ بأحسن منها، حيث جاء الرد بإيماءةٍ من الرأس مع ابتسامةٍ كبيرةٍ كشفت عن وجود غمازتين عميقتين على الخدين، وعينان واسعتان بلون السماء في يومٍ من أيام الربيع الصافية. ومع تتابُعِ الأيام، أصبح عاشقا الطيور يتبادلان التحية بشكل منتظم وبحرارة تزداد يوماً بعد يوم، كما أصبحت الطيور تلتقي في نفس الموعد من كل صباح، وكأن الإنسان والطير كانوا جميعاً على موعدٍ واحدٍ مع حُّب يولد في أعماق قلبين،

تغمرهما الفرحة وتباركهما الطبيعة. ويبدو أن كل واحد من عاشقي الطيور بدأ يميل للآخر، حيث وجد في سلوكه الخاص وهواياته شيئاً إنسانياً مشتركاً.. شيئاً يحمل للروح الهناء، ويسعد صاحبها كلما رأى الطيورتحيِّيه وتلتفُّ من حوله، سعيدةً بوجوده وفَرِحةً بفرحته.

بدأ عمرود يفكر في سيدة الشرفة الملكية، ويتساءل عن اسمها وهويتها وهواياتها الأخرى، وكيف تقضي وقتها في ذلك القصر الكبير الذي لا يبدو أنه يعرف شيئاً عن أجواء المدينة، أو صخب الشارع، أو نبض الحياة في الأزقة المعتمة. هل هي إحدى زوجات السلطان من صبايا قمره؟ هل هي جاريةٌ محظوظةُ من جواريه الكثيرات؟ هل هي أميرةٌ من الأميرات المعززات المُنَّعمات؟ تساءل عمرود. نعم.. يبدو أنها أميرة.. لا بد وأن تكون أميرةً ذات شأن، وإلا لما سُمح لها بالوقوف ساعاتٍ كل يوم على شرفة القصر تداعب الطيور، وتسبح في خيالها مع الطبيعة وسحرها الخلاب. ودون وعي أو تخطيط، وجد عمرود نفسه يخصص جزءاً متزايداً من وقته للتفكير في تلك الشابة الجميلة التي غيرت طعم برنامج حياته اليومي، ولوَّنت صفاء لياليه بلونٍ ساحرٍ ذي نكهةٍ غريبةٍ جّذابةٍ، وفرضت نفسها على وجدانه دون أن تتبادل معه الكلماتٍ أو الهمساتٍ.

وبينما كان عمرود يتساءل عن سبب وقوع زميلته في عشق الطيور ويحاول التوصل إلى معرفه هويتها، كانت سوهار تفعل الشيء نفسه، تتساءل عن هوية ذلك الرجل الغريب الذي يبدو وكأنه من سكان القصر دون أن يكون له أيُّ إمتيازٍ من امتيازات سكانه، إذ كان لباسه قديمَ َورَثٌ، وشعره منفوشٌ ينسابُ فوق كتفيه دون عناية. هل هو خادمٌ من خدم القصر كُلفٍّ بالعناية بالبط، تساءلت سوهار.. لكنها تذكرت

بسرعة أنه لم يكن هناك من سكان القصر من يحُّس بأحاسيس الطيور أو يهتم بها.. كان كل ما يعرفه سكان القصر عن الطيور ويعنيهم هو مواعيد صيدها وكيفية طبخها ولذَّة طعمها. إن وجود ذلك الشخص يشكِّل ظاهرةً غير عادية لم تظهر في القصر إلا منذ أسابيع، ولذا هناك سرٌ خلفها، فما هو ذلك السُّر يا ترى؟ تساءلت سوهار ثانيةً.. إن كل حركة من حركات هذا الرجل تقول إنه إنسان غير عادي، يختلف عن سكان القصر وخدمه وحواريه وجواريه ورجاله.. إنه مخلوق غريبٌ يعشق الطيور والطبيعة والبحيرة.. هل هذا يعني أنه مفكرٌ، أم أنه شاعرٌ، أم أنه فنان موهوبٌ ومسكونٌ بحب الطبيعة؟ ولكن ما الذي أتى به إلى قصرنا غير المضياف؟ وبينما كان فضول سوهار يتنامى يوما بعد يوم، لاحظت أنها كانت، ودون وعي، تُعِّد نفسها للقاء مرتقب مع ذلك الرجل الغريب، إذ بدأت تلبس كل يوم ثوباً جديداً، وتتعطَّر بعطرٍ مختلف وكأنها على موعد لعناقه، وتفكر كَل ليلة فيما ستقوله له حين يلتقيان لأول مرة، وحين تلمس يدها يده وتغفو في أحضانها غفوةً خاطفةً.

خرج عمرود ذات يوم كعادته لإطعام البط وتحية زميلته في عشق الطيور، إلا أنه فوجئ باختفائها.. لم تخرج سيدة الشرفة الملكية في ذلك اليوم ولا في اليوم التالي، مما جعله يضطرب، ويدخل في دوامة من التفكير والقلق. هل منعوها من الخروج؟ هل حُبُّ الطيور وتقديم الطعام لها والتعاطف معها خطيئةٌ يُعاقِب عليها قانون القصر بالنفي والحرمان؟ هل هي مريضةٌ، وما سبب مرضها، وهل سيطول ذلك المرض؟ تساءل عمرود بحزن. وبعد تفكيرٍ في الأمر رأى عمرود أن الجواب قد يكون لدى مسرود، رئيس خفر السواحل المكلف بمراقبته، إذ

أن من المؤكد أن يعرف مسرود هوية تلك السيدة وماذا جرى لها. لكنه عَدلَ عن رأيه في آخر لحظة، لأنه ليس من السهل على مسرود الإجابة على سؤاله، وقد يكون من غير الحكمة كشف سر اهتمامه بتلك الفتاة لأحد من الناس. إلا أن عمرود، ووفاءً منه لزمالة في عشق روحاني لا تُعرف أسبابه، رأى أن من واجبه القيام بدور زميلته وساكنة حُلمه في غيابها.. قرَّر العناية بعصافيرها الصغيرة حتى تعود. أمضى عمرود أياماً عصيبةً من القلق والانتظار والتفكير المضني والتخيلات المزعجة قبل أن تعود عاشقة الطيور إلى أحبتها وفي عينيها شوقٌ كبيرٌ. وحين أطلَّت من الشرفة الملكية بعد أسبوع، رأت أن عصافيرها تتجمع حول زميلها الذي كان يفتت الخبز ويرميه لها، وذلك قبل أن يقوم بإطعام عشاقه من البط. نزلت الحسناء من شرفة قصرها، تحمل فتات الخبز في يدها، سارت مباشرةً نحو الشاطئ حيث كان البط ينتظر عشاقه، تبعها عمرود بهدوء، ووقع اللقاء دون تخطيط.

مدت سوهار يدها نحو عمرود، صافحته بهدوءٍ وخجلٍ قائلةً: سوهار.. آسف لعدم تمكني من العناية بالعصافير على مدى الأسبوع الماضي.. أشكرك على العناية بها في غيابي.. لقد سافرت مع السلطان في رحلة صيد قصيرة، ولم نَعدُ سوى في مساء البارحة. ابتسم عمرود ابتسامةً مرتبكةً، إذ فاجأته سيدة الشرفة الملكية بما لم يكن يتوقع، إلا أنه تمالك نفسه وقال بهدوءٍ واتزان، أنا صديق الطيور وصديق عشاق الطيور يا سيدتي. كان عمرود قد سمع عن سوهار، الأخت الوحيدة الشقيقة للسلطان، وسيدة القصر التي لا يُردُّ لها طلب، لكنه صُعق حين وجد نفسه وجهاً لوجه مع أميرة القصر التي سمع عنها وعن رقتها الكثير. وبينما كانا يتبادلان النظريات المتسائلة دون الإحساس بحاجةٍ

إلى جواب، تركت سوهار يدها تغفو في حضن يد عمرود، وكأنها عيونٌ عاشقةٌ لم تتذوق طعم النوم لأيام طوال. وبعد أن تذكرت سوهار يدها، سحبتها بهدوء وخجل، وكأنها تتمنى لو كان بإمكانها أن تتركها لتنعم بالدفء إلى الأبد، ثم سألت عمرود: هل لي أن اعرف من أنت.. هل لك أن تخبرني عن اسمك، وماذا تفعل في قصرٍ تبدو غريباً عنه ولا تنتمي إليه، ولا تمتُّ لسكانه ولا لما يجري في داخله بِصلة؟

أنا عمرود يا سيدتي الفاتنة.. أستاذ سلطان البلاد وحاكم العباد في أيام الدراسة، حين كان السلطان ولداً مطيعاً يجلس على كرسيٍّ خشبي متواضع كغيره من الطلاب، وحين كنت أقف أمامهم حاملاً عصاي التي لم استعملها قط. أما الآن، فأنا لست سوى فردٍ عادي من أفراد الرعية المغلوبة على أمرها.. مواطنٌ مطاردٌ بسبب أفكاري التحررية، مسجونًا بسبب انتماءاتي ومواقفي الوطنية.. وبسبب ذلك لم يعد بإمكاني أن أعيش حياتي البسيطة المتواضعة في مدينتي المحبوبة كما كنت أعيشها قبل تشييد هذا القصر الشامخ.. كنت في الماضي القريب أُقبِّل وجه البحيرة كل صباح، وأُطعم البط وأطمئن على حاله كل يوم، واستنشق عطر الحقول الآتية من بعيد على جناحي نسيم البحر كل لحظة من لحظات الليل والنهار. ولذا فإن صلتي بهذا المكان قويةٌ جداً، وإن كانت لا تمتُّ للقصر بصلة.. إذ بعد تشييد القصر وإقامة سورٍ من حوله حُرمت من التنزه في هذا المكان كما حرمت من إطعام البط والعناية به، لان الشاطئ والبط أصبحا من ممتلكات القصر، وداخل سوره العالي الذي حال دون رؤية ما بداخله من بشرٍ وحيواناتٍ وأشجارٍ وحياة. لكن قبل أسابيع، أعادتني الصدف وظروفٌ غير عاديةٍ إلى مكاني القديم، وسمحت لي بمعاودة ممارسة عشق الطيور من جديد، ورماني الحظ

في هذا الصباح الرائع لأعانق فيكِ حُبَّ الطيور وعشق الطبيعة وجمال الإنسان. كانت سوهار قد سمعت بقصة عمرود، وعرفت مواقفه التي تعارض ممارسات السلطان وسياساته التعسفية، واطَّلعت على برنامج حركة إصلاح نظام الحكم والحاكم التي كان يقودها عمرود، وأُعجبت بأفكاره التي تستهدف تنمية اقتصاديات البلاد، وإرساء دعائم دولة القانون والعدل، وإحداث تحولاتٍ اجتماعيةٍ وثورةٍ شاملةٍ في الثقافة الشعبية السائدة في بلاد العرابيد.

أنا آسف لأنهم قاموا باعتقالك يا سيد عمرود، قالت سوهار.. لقد اعترضت على قرار إعتقالك بشدةٍ حين علمت به وعرفت أسبابه.. إنني أدرك أن من السهل اعتقال الجسد، لكنه من غير الممكن اعتقال العقل، ولا تكبيل القلب، ولا حرمان الروح من عشق الحياة والطبيعة. ابتسمت الأميرة بعد ذلك ابتسامةً عريضةً متأملة، غاصت أثناءها في أعماق عمرود، تسلَّلت من خلال عينيه الصحراويتين، أخرجت كل ما كان في قلبه من مخزون الحب وصفاء الروح، وضمَّته إلى صدرها بحنان دون همس. وبعد هنيهات صمت لم تطل كثيراً، أضافت سوهار قائلةً: أما الآن، وبعد أن تعرفت عليك وعرفت ما يعنيه لك هذا المكان، أصبح من الصعب علي، وربما من غير الحكمة والعدل أيضاً، أن اطلب منهم إلغاء ذلك القرار الجائر والتسبب في ترحيلك إلى الصحراء، حيث تعيش الروح وحيدة في صحراء قاحلة، ويعيش القلب مسجوناً خلف أسوارٍ عاليةٍ من العزلة والحرمان، ويعيش الجسد تجربة الغربة والاغتراب القاسية في وطنه.

ابتسم عمرود لأميرته وقد فهم ما كانت ترمي إليه، ثم قال: هل لي أن أدعوكِ إلى بيتي المتواضع في هذا القصر كي نواصل حديثنا هناك

بهدوء بعيداً عن عين الشمس الحارقة وعيون وآذان حرس القصر؟ ودون أن تجيب على سؤاله، أمسكت سوهار بيد عمرود، وسارا معاً إلى غرفته الخشبية، والتي كان من المفروض أن تعتقل أفكاره ومشاعره وهواياته وإنسانيته، وتكبتها إلى الأبد. احتكرت الطيور في ذلك اليوم الرائع كل الحديث حتى الغروب، حين قرَّر العاشقان الخروج إلى الشاطئ في نزهة قصيرة، والتمتُّع بنسمات الهواء تداعب الأزهار، وملاحقة أشعة القمر تسبح في البحيرة وتتكسر على وجهها المبتسم، وسماع صوت البط يتباعد، مودعاً النهار في طريقه إلى بيوت تنتظره صغار كثيرة فيها. وفي حَّمى عناق العيون، وخيالات عشق الروح الدفين، وتواُصلِ الأفكار والمشاعر، نسي العاشقان طعام الغداء، وكأنَّ الحب ومناجاة الروح تُغني الجسد عن حاجته للطعام.

وبعد أن قاما بممارسة هوايتهم المفضلة في اليوم التالي، أرسلت سوهار خادمها الخاص ليخبر عمرود بأنها ستأتي لزيارته وتناول طعام العشاء معه في المساء، وأنها أصدرت أوامرها للطباخين كي يُعِدوا وجبة العشاء. ومع غروب الشمس، بدأ الخدم يتوافدون إلى غرفته الخشبية، يحملون على رؤوسهم أطباق الطعام والشراب وفي أيديهم باقات الزهور، حيث تبعتهم سوهار بعد أصبح كل شيءٍ جاهزاً لسهرة طويلة ممتعة. وما أن دخلت الغرفة حتى فاجأها بلفِّ يديه حول عنقها، والقيام بضمها إلى صدره وتقبيلها قبلة عشقٍ حارقة، أذابت كل ما كان قد تراكم في قلبيهما من جليدٍ بحكم كثافة صقيع الوحدة واغتراب الروح ووحدة الجسد. وبعد تناول العشاء واحتساء كأسٍ من النبيذ، تنّحى عقل عمرود عن التفكير، واعتزل عقل سوهار عن السرحان في عالم الحلم والخيال، وتركا المجال للقلوب العاشقة كي تعبِّر عن

مشاعرها بالطريقة التي تعرفها، وتعيش أهوائها على هواها في ليلة طال الانتظار لها.

اكتشف عمرود وسوهار في تلك الليلة غير العادية أن العقل مجرد مصنع لتصنيع منتجات منطق صعب الطبع متقلب المزاج، وأن الهواية هي مفتاح القلب الذي لا يعرف غير الجنة والنار، جنة العشق، ونار الفراق والحرمان. واحتراماً لعشق الروح وآهات الجسد، تراجع العقل عن التعامل مع المنطق خوفاً من الانصياع لأوامره ودخول النار مذنباً بتهمة حرمان القلب من فرصة عمر غالية، وخشيةً من ارتكاب خطايا بتشويش ساعة نقاء روحيّ وتواصل وجداني تسمو فيها الروح ويتسامى فيها الوجدان عن منطق الواقع. لذا توقفت العقول عن التحذير من عذاب النار الذي يُغلق باب الجنة أمام العشق المتشوّق للتحرُّر والتعبير عن ذاته، وتركوا الأجساد تتلوى من آلام متعة معتقة خلف أسوار من الكتمان. سكت عمرود المتشرد والأميرة المحظية لحظات، قاما خلالها بتجميع كل ما كان لديهما من شجاعة للقفز فوق نار الوحدة وأسوار الحرمان التي استمرأها طويلاً، ودخلا باب الجنة الخلفي خِلسةً بعد أن غفا حُراسها المسلحون بسلاح العقل والمنطق.

لامس العاشقان جدار الجنة بدءاً بشفاه مبللة تتهادى في ليل معتم وقد ضلَّت طريقها في غياب القمر، توقفا هناك حتى ارتوى الثغر وسَكِرَ حتى الثُمالة، تسللا خلف ثياب مزركشة يقودهما عطرٌ آسرٌ إلى نهد كان يتعبَّد وحيداً.. وقفا عنده لحظات ليقوم عمرود بتأدية طقوس العشق الأول وتقبيل جدران المعبد وتطهير ذنوبه التي اقترفها بتعذيب نفسه وحرمانها عمراً كاملاً من متعة الروح وشهوة الجسد. تعالت دقات القلوب بشكلٍ مضطربٍ، وتعانقت الأرواح متخوفةً من فوات فرصة

عمرٍ لا تُعوَّض، وتوحَّد الجسدان عراةً يرتعشان وقد داهمهما قطار الشهوة الذي كان يسارع الخطى في طريقه إلى محطته الأخيرة، حيث التقيا معه عند مصب النهر الذي يحمل الخير ويجدِّد الحياة، ويعيد لها البهجة كلما قست الأيام وتقادمت السنين. وهناك لامسا جدار النار الحارقة قبل أن تترجل شهوة الجسد عن جوادها وتتوقف خوفًا من الاحتراق، وعلى مفترق الطريق بين الجنة النار، أفرغ الجسدان والقلبان أشواقهما المعتَّقة بعمر الزمن، وهرباً إلى عالم الخيال والمتعة التي لا تعرف حدود المتعة.

كان ذلك اللقاء أجمل مناسبة في حياة عمرود، وأعمقَ تواُصلٍ روحاني يعيشه مع إنسان، وأخطرَ حوارٍ يدخله مع نفسه في صورة الغير، ويدخل من خلاله وبسببه في خبايا عالمٍ غريبٍ ومثيرٍ لم يخطر له يومًاً على بال. كان العالم الذي دخله عمرود عبارةً عن حلمٍ سرقه من حياته ومخاوفه وظنونه وأفكاره الماضوية، ورسم له شكل الأحلام كما يجب أن تكون عليه الأحلام الجميلة الواعدة، وتركه يعانقها ويعايشها ويستمتع بها دون أن يطلب منه شيئاً مقابل ذلك، يؤديه دمعةٌ من عينٍ حزينة، أو لوعةٍ من قلبٍ معذبٍ، أو إحساسٍ بذنبٍ من روحٍ مؤمنة. ومنذ تلك الليلة لم يعد بإمكان عمرود أو سوهار التفكير في أيِّ شيء دون التفكير في الآخر أولا، ولا التخطيط للقيام بأيِّ عملٍ دون أن يكون الآخر شريكاً. وهذا جعل عمرود يغدو رجلاً آخر، يَصحو على أمل أن تقوم سوهار بزيارته قبل أن يغفو النهار، وينام على حلم مثيرٍ لا يرى فيه سوى جمالها الساحر وعطرها الفتاك وأنوثتها الطاغية حتى صحوة الليل من سباته.

تكررت زيارات سوهار لعمرود في غرفته الخشبية، وتعانقت الأرواح والاجساد بلا توقف. ومع تواصل ليالي العشق، زاد حبُّه لها، وشغفه بها، وبدأ يخاف عليها، ولم يعد بإمكانه أن يخفي عنها شيئاً. وفي ليلة من الليالي الخريفية، وجد عمرود نفسه غارقاً في بحرٍ من التأمل والحيرة.. التأمل في حاله الذي تغيَّر بين ليلة وضحاها، والحيرة بين كراهيته لحكم السلطان جلهود وما يدور في قصره الفاجر، وعشقه لسوهار، ابنة القصر وأجمل وروده اليانعة. وهنا بدأ عمرود يتساءل، وبدأت التساؤلات تكبر في رأسه وتتألم كأنها مخلوقاتٍ تعيش محنته وتتعاطف معه، لكنها لا تتكلم إليه ولا تغيب عنه. هل يتزوج سوهار ويعيش معها حلم أيامه، ويغمض عينيه عن بؤر البؤس والفقر والجهل في وطنه؟ هل يحاول أن يسرقها من عالمها المُنعَّم المريح إلى عالمه الموحش؟ هل من العدل أن تعيش معه عذابات أيامه ومعاناة لياليه، وقد اختار لنفسه تلك الحياة دون مشورتها وقبل أن يلتقي بها؟ وماذا عن أتباعه حين يعلموا أنه أصبح صهر جلهود، ذلك الطاغية الذي يطالبهم بإسقاطه والقضاء على نظام حكمه؟ وقبل أن يرسى عمرود على رأي، فاجأته أشعة الشمس بالتسلل إلى غرفته، ولم تمهله حتى يتوصل إلى إجابة مقنعة أو حل يوحده مع حبيبته، أو يفرِّق بينهما إلى الأبد. كان عمرود يبحث عن مخرج لا يحرمه من سوهار، دون أن يجعله يبدو أمام أتباعه كمتسلقٍ انتهازي يبيع مبادئه مقابل حبٍ يفرض عليه العيش في قصر غريمه. لقد كانَ آل جلهود، ومنذ عهد جلهود الثالث، قد فرضوا على كل من يصاهرهم من أبناء الشعب العيش معهم في قصورهم، وذلك من أجل زيادة عدد أفراد العائلة الحاكمة، وتسهيل مهمة سيطرتهم على البلاد والعباد.

كان السلطان جلهود قد عيَّن مسرود، رئيس خفر السواحل التي تتخذ من سرايا القصر مقراً لها، مسئولاً عن عمرود خلال فترة وجوده رهن الاعتقال. ويبدو أن السلطان نسي أن مسرود كان، كالسلطان نفسه، قد تتلمذ على يدي عمرود، وأنه يكنُّ لأستاذه الكثير من المودة والاحترام والتقدير. ومنذ أن تسلم تلك المهمة، دأب مسرود على زيارة أستاذه كل يوم، والسهر على راحته طوال سنوات الاعتقال. وفي أحد الأيام، حضر مسرود كعادته لزيارة عمرود، وإذا به يفاجأ بوجود لونا هناك، حيث كانت تقضي اليوم مع أخيها في غرفته الخشبية. وما أن وقعت عينا مسرود على لونا حتى تغير لونه وبدا عليه الارتباك والاضطراب.. كانت لونا هي الفتاة الرقيقة التي أحبها مسرود صبيًّسا وافترق عنها شابا. وكما اضطرب قلب مسرود لرؤية لونا، اضطرب قلب لونا لرؤية مسرود، ذلك الفتى الذي أحبته في صباها، وافتقدته في شبابها وليالي وحدتها الطويلة.

ودون مقدمات، تعانق الحبيبان وهما يرتجفان، وتسابقت القلوب تطوي السنين وتعيد الايام إلى ما كانت عليه حين كان الحب ملكاً، وكانت القلوب له عرشاً، وليالي الحلم قصراً، وحين كان التواصل شوقاً، والعشق جسراً بريئاً لم يكتمل بناؤه بعد. فرح عمرود لفرح الحبيبين، وبارك تجديد العلاقة بينهما، لأنه جلب سعادةً كبيرةً لقلب أخته الذي عاش سنوات جفاف وحرمانٍ بعيداً عن عرشه وقصره المنيف. وبعودة تلك العلاقة، تشجع مسرود على التقرب أكثر من أستاذه، والقيام تدريجياً بكشف أسراره لحبيبته وأستاذه دون تحفظٍ أو خوف كبيرٍ، والسماح لحبيبته لونا وابنتها سوما بزيارة عمرود مرتين في الأسبوع. ومن الأسرار التي كشفها مسرود، قيام السلطان بالتردد على بيته

والاعتداء على زوجته بانتظام، وقيام الزوجة بالتجاوب مع نزوات وأهواء جلهود عن رغبة وشغف وطيب خاطر، مما جعل حياته الزوجية تغدو مستنقعاً، يمقت البقاء فيه، ولا يستطيع الخروج منه. إلى جانب ذلك، كشف مسرود عن خطة ملعونة اقترحها عكرود رئيس المجلس الاستشاري على السلطان، تقضي بالإعداد لرحلة استكشافية يشارك فيها أكبر عدد ممكن من شباب العرابيد، ويكون هدفها الحقيقي تهجيرهم من بلادهم ونفيهم من وطنهم، ودفعهم إلى الاستيطان في بلاد غريبة وبعيدة يصعب الهروب منها والعودة مجدداً إلى الوطن، وأن السلطان كلف مسرود رسمياً بالإشراف على ترتيبات الرحلة وقيادتها والقيام بها في أقرب وقت ممكن. وهكذا، قرر السلطان جلهود، كما قال مسرود، اصطياد عصفورين بحجر واحد، التخلص من مسرود والانفراد بزوجته كي يكون عشيقها الوحيد، والتخلص من شباب يحلم كثيراً ويعيش حالة مضطربة تقترب من حافة الانفجار والتحول إلى ثورة تهدِّد النظام وتقضي على دواعي الاستقرار في البلاد.

صحا عمرود في إحدى ليالي الشتاء والبرد القارص مرتعداً على صوت امرأة تصرخ بأعلى صوتها من الألم، وتستجدي الرحمة من جلاديها. وبالرغم من أن الصوت كان بعيداً وخبا بسرعة بعد قليل، إلا أن عمرود لم يستطع بعد ذلك أن يستدرج النعاس إلى عينيه المتعبتين، كما لم يقوَ صوت حبات المطر المتساقطة على سطح غرفته الخشبية أن يسرقه من الخيالات المرعبة التي بدأت تتراءى له. كان نهر سراد وعتمة الليل هما الشاهد الوحيد على خطيئة الشهر، وجريمة ليلة القمر من كل شهر. وحين جاء مسرود في صباح اليوم التالي لزيارة عمرود كعادته، سأله عما جرى في الليلة الماضية، وعما إذا كان كلاب

السلطان قد ارتكبوا جريمة قتل بحق امرأة بريئة. تردَّد مسرود طويلاً قبل أن يجيب على سؤال أستاذه المحرج، وتنهد قبل أن يتكلم ويبوح بسر آخر يتعلق بجريمة نكراء يواظب القصر ورجاله على ارتكابها كل شهر، ويفرض الحراس حولها أسواراً عالية من السرية والكتمان.

قال مسرود إن السلطان، ومنذ نجاح شالا في إغرائه وتشجيعه على اختيارها زوجة له قد واظب على القيام كل ليلة قمر باختيار جارية جديدة، يحتفظ بها أحياناً طويلاً، وأحياناً يهجرها وينساها بعد أيام أو أسابيع معدودة. وحيث أن القصر لم يعد يستوعب المزيد من الحريم والجواري منذ سنوات، فإن السلطان قرر قبل سنتين تقريباً أن يتخلص من جارية قديمة كلما وقع اختياره على امرأة جديدة، وأن التقليد جرى على اختيار الجارية التي سيتم التخلص منها من بين نساء السلطان اللواتي لم يرزقن أطفالاً بعد. وبعد تحديد هوية الجارية سيئة الحظ، جرت العادة على تسليمها لحراس القصر، يعتدون عليها، ويستمتعون بجسدها قبل التخلص منها، إما بقتلها ودفنها، أو برميها في النهر. وكثيراً ما كانت تموت المرأة المسكينة من ثقل الأجساد والأنفاس المقززة التي كانت تعلو وتهبط فوقها لساعات وساعات، دون توقف أو رحمة. وبالرغم من علم السلطان بما يفعله حراس قصره في نسائه، إلا أنه أغمض عينيه تماماً، لأنه - على ما أعتقد - يريدهم أن يكونوا شركاء في الجريمة، حتى لا يجرؤ أيٌّ منهم على البوح بالسر في يوم من الأيام، أو الهروب من الخدمة، أو مخالفة أوامره.

اكتشفت نساء القصر خطة السلطان بعد عام تقريباً من البدء بتنفيذها، وذلك نتيجة لقيام عكرود بالبوح بالسر للأميرة شالا، أول امرأة تفرض نفسها على السلطان في ليلة القمر، وكان عكرود حينئذٍ

قد وقع في حب شالا وأقام معها علاقة غرامٍ سرية. وفي أعقاب ذلك مباشرةً، أخذت شالا على عاتقها مسؤوليةً مساعدة كل امرأة على الحمل والإنجاب بالسرعة الممكنة، حتى يشفع لها جنينها أو طفلها لدى السلطان، ويخلصها من عذاب كبير وموت محقق قبل الأوان. ولهذا أصبح من الصعب جدا على أيةٍ امرأةٍ من نساء القصر أن تُخلص لجلهود، لان الإخلاص في تلك الحالة كان يعني أحياناً دعوة الموت إلى عناقها وخطفها إلى عالمه الموحش قبل الأوان ودون ذنب. ومع الأيام تعوَّدت كلُّ امرأة، الحامل وغير الحامل، على اغتنام فرصة انتقال السلطان إلى مدينةٍ أخرى، أو غيابه في رحلة صيد، لتنام مع من يروق لها من رجال القصر. ومن أجل أن يبقى السر بين نساء القصر حياً ومكتوماً على الدوام، قامت شالا بتشكيل لجنةٍ نسويةٍ صغيرة، أوكلت إليها مهمة تحفيظ الدرس لكل امرأة جديدة، ومساعدتها على إيجاد من ينام معها من الحاشية أو الخدم، أحياناً في صباح اليوم التالي لنومها في سرير السلطان. وهذا جعل شالا تغدو ملكة القصر بلا منازع، تقدم أجمل النساء لرجال جلهود، تكتم أسرارهم، ولا تبوح بها لأحد، وتتحكم في قراراتهم ومصائرهم.

كان الملك جلهود الرابع، ومن بعده ابنه السلطان جلهود الأول، يحتفظ لنفسه بعشرة نساء على الدوام، ويضم باقي النساء لجيش الحريم والجواري المتمركز في قصوره المتناثرة في كافة أنحاء البلاد. أما فيما يتعلق بالأطفال الذين تلدهم أمهاتهم بعد أن يكون السلطان قد هجرهم، فكانوا يتربون في القصر تحت إشراف أمهاتهم، يشكلّ الرجال منهم جيشاً من العبيد المُنعَمين، وتشكل النساء خدماً وهدايا يقدمها السلطان لمن يرى ضرورة مكافأتهم من العملاء، ولمن يود شراء

ولائهم من وجهاء العائلات والعشائر، ولمن يرى أن من المصلحة رشوتهم من المثقفين المرتزقين. كان أولائك الأطفال يولدون في الظلام، يعرفون أمهاتهم جيداً، ولا يعرفون أو يتعَّرفون على آبائهم أبداً، مما جعلهم يتربون في ظل السلطان وعلى كرمه، ويشعرون بأنهم أولاده وعشيرته وخدمه وجيشه في آنٍ واحد. وهذا جعل كل واحد من أولئك العبيد والخدم والضباط أخاً غيرَ شقيقٍ لأمير من الأمراء وحكام البلاد القادمين.

لم يكن باستطاعة عمرود، بعد أن سمع من مسرود ما سمع عن حياة القصر ومصير جواريه، أن يتخلص من صراخ تلك المرأة المسكينة التي اغتصبتها مجموعة من السكارى، بمعرفة السلطان، وربما على مسمعه أيضاً. لقد بقي صوتها المعذب يرن في أذنيه، يُحرِق قلبه، يُحيِّر عقله، يُغضب ضميره، ويخطف النوم من عينيه لشهور. وعندما جاءت لونا وسوما لزيارته بعد يومين طلب عمرود من مسرود أن يَقصَّ القصة مرة ثانية أمامهن. وبعد أن انصرف الضيوف، أرسل عمرود الخادم الذي عينته سوهار للسهر على راحته إلى القصر لإعلام الاميرة بأن عمرود يطلبها، وحين وصلت سوهار إلى غرفته الخشبية وجدته في وضع مضطربٍ أقلقها. إلا أن عمرود تماسك نفْسه بسرعة، وقام بسرد تفاصيل الحكاية عليها كما سمعها من مسرود. فوجئت سوهار وشعرت بالصدمة والخزي، لكن المفاجأة أعطتها تفسيراً مقنعاً لسبب إختفاء العديد من نساء السلطان في الليالي المعتمة، مما جعلها تغضب عضبًا شديداً، وتتحمس لفكرة الأصلاح التي طالما دعا إليها عمرود ونذر نفسه للعمل على تحقيقها.

أما الصبية سوما فقد قررت على ضوء ما سمعته من قصص الرعب والخيانة أن تغير مشيتها ولباسها، وأن تقلل من مشاركتها في احتفالات ليلة القمر، وذلك حتى لا تكون ضحيةً أخرى من ضحايا سلطان البلاد والعباد. وتبعا لذلك، بدأت تلبس لباساً فضفاضاً يخفي جمال قوامها، وتمشي بطريقة جديدة لا تعكس رشاقتها، وتغطي رأسها وكامل جسدها أثناء سيرها في طريق عامّ وحين تنزل إلى حلبة الرقص، ولا تستحم في مياه البحيرة شبه عاريةً كالمعتاد إلا مع أمها بعيداً عن عيون السلطان وزبانيته. ولم تمضِ بضعة أسابيع على تلك الحادثة حتى انتشر الخبر بسرعة كالنار على شكل إشاعة في كافة أنحاء البلاد، وعرف الناس سر اختفاء بناتهم خلف جدران القصر الصامت، مما دفع معظم الصبايا إلى تقليد سوما في لباسها، ومشيتها، وغطاء رأسها، ومشاركتها الشعور بالخوف من السلطان وزبانيته، والحزن على هروب المتعة والفرح من احتفالات ليلة القمر.

في ضوء تلك التطورات، قرر عمرود أن يُحدثَ نقلةً نوعيةً في فكره ونشاطه السياسي، وذلك بالتحوُّل من الدعوة إلى إصلاح النظام القائم دون المطالبة بتغييره، إلى الدعوة لإسقاط النظام الحاكم والتخلص من آل جلهود بالكامل. لقد اقتنع عمرود بعد تفكير عميق وطويل بأن عملية الإصلاح الشاملة التي كان يفكر بها ويعتقد أن البلاد بحاجة ماسة إليها لا يمكن أن تبدأ في ظل حكم آل جلهود، وأن متطلباتها تستوجب التخلص من السلطان ورجاله وجيشه وأجهزة مخابراته، وأن عملية التحول السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي المستهدفة لا يمكن أن تستمرَّ وتثمر دون حريةٍ، وهذه أمور لا تتوفر وليس بالإمكان توفُّرها في ظل نظامٍ حكمٍ فرديٍ جائرٍ ومستبد. لكن الرياح قلّما جرت كما

تشتهي السفن، إذ خان الحظ عمرود قبل أن يتمكن من بلورة خطته بشكلٍ واضح، حيث أصابه مرضٌ غريبٌ جعله طريح الفراش عدة أشهرٍ، مما دفع السلطان إلى إطلاق سراحه خشية الاتهام بقتله.

قام مسرود في أحد الأيام باستئذان السلطان بدعوة عمرود وأخته لونا إلى العشاء واستضافتهم في بيته، وذلك أثناء غياب زوجته في القصر مع عشيقها. لم يمانع جلهود في ذلك، إذ كان يعلم بعلاقة مسرود مع لونا، وتقديره لأستاذه عمرود. إلا أن السلطان فاجأ مسرود وضيوفه بالانضمام إليهم، مع علمه المسبق بأن أخته الأميرة سوهار كانت من بين الضيوف في تلك الليلة.. دخل السلطان بيت مسرود دون إذن، ترافقه عشيقته المفضلة، زوجة مسرود، يتبعهما عشرة من الخدم يحملون ما طاب من مأكولات ومشروبات وخمور. ولم تمض ساعتان على بدء الحفلة حتى وجد عمرود نفسه وحيداً مع سوهار في ردهة البيت، حيث اختلى السلطان بعد أن سكر بعشيقته في إحدى غرف البيت، واختلى مسرود مع لونا في الغرفة الأخرى. وحين نظر عمرود إلى سوهار يتفحَّص وجهها، لاحظ أن صدرها كان قد تعّرى تقريباً، وأن النهد كان يطل برأسه متحدياً عمرود وعتمة الليل كعنقود عنب يتساقط الندى من حوله وقد حان قطافه، وأن العين كانت تحترق في نار شهوةٍ حارقةٍ باغتتها في مكانٍ غريب وفي ظل ظروفٍ لم تكن متوقعه. مال عمرود على سوهار، قبَّلها بشغف، وضعت يديها حول عنقه، ضمته إلى صدرها بقوة، ساعدته على خلع ثيابه بسرعة، وغرقت معه في بحر عشقٍ طاغٍ، كان يعرف كيف تبدأ البدايات، ولكن لا يدري كيف تنتهي النهايات. وحين خرج السلطان من خلوته بعد أن شبع من عشيقته وغادر بيت مسرود بصحبتها، لم يحاول إزعاج العشيقين، ولم يعبأ

عمرود وسوهار بمروره عليهما، وكأنه نسمة ليلٍ مثقلة برذاذ البحر، تظهر وتختفي دون أن تترك وراءها أثراً يذكر. بعد تلك الليلة أيقن عمرود أن باستطاعته أن يقترن بسوهار إذا أراد، لأن السلطان لم يكن يكترث لما قد يحدث لها، شأنها في ذلك شأن غيرها من جواري القصر، لكن قرار الزواج كان أكبر من عمرود بكثير، وأكبر من العشق والهواية التي ربطتهما معاً.

بالرغم من قيام السلطان بإطلاق سراح عمرود، وعودته إلى بيته وعائلته، ووقوعه في غرام سوهار التي ملأت عليه دنياه بالغبطة والسعادة والترقُّبِ الذي يجدد البسمة كل صباح، ويعيد تمثيل الحلم كل مساء، إلا أن المرض لم يفارقه. ومع تتابع الأيام والشهور، بدأت علامات الضعف تظهر عليه، حيث شحب لونه، وذوى جسمه، وتراجعت حيويته ومعظم ما كان يتمتع به من نشاطٍ وحماسٍ وتطلُّعٍ نحو مستقبلٍ أكثر عطاءً وأمناً وحرية. وطوال فترة مرضه كانت سوما لا تفارقه أبداً، وكانت سوهار تتردد على بيته باستمرار، وتقضي أحياناً ليالٍ طويلةٍ إلى جانبه، بينما كان السلطان جلهود يرسل له رسائل الود والتشجيع ويُغدق عليه المال والهدايا. أما لونا فقد كانت قد انتقلت إلى العيش مع عشيقها مسرود، والذي أصبح زوجاً لها بعد أن قررت زوجته الانفصال عنه والانتقال مع أولادها إلى العيش في قصر عشيقها. وهكذا دخل عمرود مرحلةً جديدةً وعصيبةً من حياته سلبته كل ما كان يتمتع به من ثقةٍ بالنفس، وقدرةٍ على التخطيط الواعي، وإيمانٍ بحتمية الوصول إلى الهدف، وانقاذ نفسه وأهله ووطنه من الطغيان.

الهجرة إلى العالم الجديد

كان أتباع عمرود أوَّلَ من تحمّس لفكرة المشاركة في الرحلة الاستكشافية التي كانت تُعدّها الحكومة بالرغم من شكهم في نواياها، وذلك لشعورهم بأنه لم يعد بالإمكان العيش في بلاد العرابيد في ظل حكم آل جلهود. لقد كانت ملاحقات أجهزة المخابرات لهم، وقيامها بالتضييق على حرياتهم وحريات غيرهم من الناس، واعتقال عمرود ومرضه لفترة طويلة، قد أقنعتهم بأن الحياة في ظل النظام القائم تشكل إهانةً لكرامة الإنسان، وضمانةً للعيش حياةَ فقرٍ وبؤسٍ دون أملٍ بمستقبل في المستقبل. وبعد أن تم إطلاق سراح عمرود وتحسنت صحته قليلاً، اجتمعوا به وأخبروه بتوجهاتهم، محاولين إقناعه بالرحيل معهم، والبحث عن مكان يطبِّقون فيه نظرياتهم السياسية والثقافية، ويقيمون فيه مجتمعهم المثالي. إلا أن عمرود لم يكن في حينه في الحالة الصحية ولا النفسية التي تؤهله لقبول فكرة الهجرة، كما أنه لم يكن باستطاعته أن يخبرهم بطبيعة علاقته بسوهار، وما يعيشه بسبب ذلك من حبٍّ وعذابٍ وحيرةٍ وضياع. ولذا تركهم يأخذون قراراتهم بأنفسهم دون تدخلٍ منه، خاصة بعد أن أدرك أن حياته وطموحاته، وقد وقع في حب سوهار وعاوده المرض، لم تعد تتقاطع مع حياتهم وطموحاتهم. وفي ضوء ما كان يعرفه عن جرائم القصر ومخططاته، لم يشعر أن بإمكانه، ولا من حقه، أن يحاول إقناعهم بالعدول عن قرارهم بالهجرة.

لكن عمرود رأى أن من واجبه وقد صمموا على الهجرة، أن يشرح لهم تاريخ السحر والشعوذة والخرافات في بلادهم، ويقصَّ عليهم قصة جلهود الأول، وكيف أنه حاول تخليص أهله وبلاده من الأوهام

والخرافات والدجالين، ويحكي لهم حكاية مجذوب إبن مهبوب، وكيف دفعه جهل العامة من الناس على ما يبدو إلى إدعاء التواصل مع آلهةٍ لا وجود لها إلا في خيالات الجهلاء والاغبياء الخائفين من شيءٍ لا يعرفون لها اسماً أو شكلاً أو مكاناً. وبعد أن استكمل إلقاء دروسه التاريخية هذه على رفاقه، لم يجد صعوبة في إقناعهم بعدم السفر بعيداً عن بلادهم، والقيام باستكشاف الشاطئ المقابل لها على طول نهر سراد الممتد من بحيرة الأهاويل إلى بحيرة البهاليل العملاقة.. لقد كان عمرود مقتنعاً بأن الجبال والسهول الواقعة خلف ذلك شاطئ البحيرة تحتوي على ثرواتٍ حيوانيةٍ ومائيةٍ ومناخيةٍ وطبيعيةٍ غير عادية. ومن حسن حظ المغامرين الهاربين إلى المجهول أنه كان من بين تلامذة عمرود في تلك المرة تلميذٌ قديمٌ، لم يتوقف لحظةً عن حب أستاذه، ولم يشبع يوماً من علم معلِّمه، ولم يشكَّ يوماً في حكمته.

وفي اليوم المحدد لبدء الرحلة الاستكشافية، تجمَّعت جموعٌ غفيرةٌ من المواطنين على طول شواطئ بحيرة البهاليل، حيث كان الناس قد تواردوا على عتره من كافة انحاء البلاد على مدى أسبوعين للاحتفال ببدء الرحلة الاستكشافية التاريخية وتوديع المهاجرين.. كانت جموع الموطنين تدعو للمسافرين المغامرين بالتوفيق، وتهتف بحياة سلطان البلاد والعباد وتدعو له بطول العمر. أما عمرود فقد كان يقف بعيدا، يبكي في صمتٍ وحيداً.. كان يبكي وطنه وشعبه الذي قام، بدافع الجهل والفقر والحاجة، يهتف بحماسٍ شديدٍ للتخلص من أفضل ما كان لديه من عقولٍ ذكية، وقدراتٍ إبداعيةٍ، وثرواتٍ بشرية. أما السلطان جلهود، فقد أعلن يوم إبحار الحملة الاستكشافية عطلةً رسميةً في كافة أنحاء البلاد، يحتفل فيها العرابيد بقيام أبنائهم باستكشاف عالمٍ جديدٍ.

وقبل أن تغادر الحملة شاطئ بحيرة البهاليل، قام مسرود، رئيس البعثة المكلف رسمياً بقيادتها، بعناق زوجته وعشيقة قلبه لونا، والدموع تنهمر من عينيه بغزارة، وكأنها كانت تحاول التسبب في فيضانٍ جديدٍ يغمر البلاد، علَّه يعطل الرحلة ويلغيها إلى الأبد.

وجَّه مسرود القوارب التي تجمعت في بحيرة البهاليل للدوران حول نفسها، مبتعدةً تدريجاً وببطءٍ عن الشاطئ، وذلك في إشارة لوداع الأحبة، ومن اجل انتظار غروب الشمس قبل التوجه إلى الشاطئ المقابل. وحين ظهرت علامات التعب والذبول على وجه الشمس، وبدأ لونها يتغير والنور يخبو في عينيها، وأخذت تتهادى بخجل نحو البحيرة العملاقة لتغفو في حضنها، أصدر مسرود أوامره بالاستعداد للتحرك. وحين توارت الشمس تحت سطح الماء تماما، أمر مسرود ربانَّ القواربِ بتعديل أشرعتها والتوجه دون تلكؤٍ نحو الشاطئ المقابل، في اتجاه أقصى نقطةٍ على الطرف الجنوبي لبحيرة البهاليل. وبعد ليلةٍ طويلةٍ ولكن هادئة، توقفت القوارب على شاطئٍ صخري، وكانت الشمس حينئذٍ قد عادت لتنشر أشعتها الفضية على وجه الماءِ إيذانا بنهاية الليل وبداية النهار. وعندئذٍ أمر قائد القافلة بإرساء المراسي، ونزول الركاب بانتظام إلى الشاطئ. وبينما سارع البعض بالنزول فرحين بالوصول، كان البعض الآخر يرتعد خوفاً من الشياطين والجن والعمالقة الذين تربُّوا على الإيمان بسيطرتهم على ذلك الشاطئ وما بعده من جبال. إلا انه لم يكن بإمكان أيِّ شخصٍ على متن قاربٍ أن يتجرأ على رفض أوامر قائد الحملة.. ممثل السلطان جلهود والرجل المسئول عن قيادة القافلة ونجاح العملية الاستكشافية.

إن قناعة أتباع عمرود بأن قصص الشياطين والجن والعمالقة ليست إلا خرافات وأوهام من صنع خيالات الجهلاء وتخريفات المشعوذين، كانت سبباً في حماسهم للنزول دون تردد، وفرحتهم بالوصول إلى الشاطئ الآخر بسرعة. وهذا ساعدهم، ودون تخطيط مسبق، على قيادة عملية الاستكشاف على الأرض بعد الاستقرار عليها. ومما زاد من حماسهم لاستكشاف معالم العالم الجديد واستيطانه، قناعتهم بأن السلطان جلهود الذي يؤمن بالسحر والشعوذة والخرافات، لن يتجرأ على اللحاق بهم أو ملاحقتهم في تلك البلاد. ولذا بدأوا حياتهم الجديدة بشعور عارم بالتفاؤل، وأمل كبير بمستقبل زاهر، يحمل في خباياه وعوداً جميلة ومفاجآت سعيدة، تمكنهم من بناء حضارة متقدمة، ومجتمع متنور غير تقليدي تسوده العدالة والمساواة وثقافة التسامح، ويحكمه النظام والقانون. وبسرعة كبيرة لم يتوقعها أحد نجح المغامرون باكتشاف الكثير من المعادن النفيسة، والمراعي الخصبة، والأنهار العديدة والبحيرات الكبيرة والصغيرة، والطيور الجميلة، والسهول الغنية بأزهارها وأشجارها المثمرة، والحيوانات القابلة للاستئناس والاستخدام في خدمة الأرض والمواصلات، والمناظر الطبيعية الخلابة التي يزخر بها وطنهم الجديد. وبعد مشاورات مع مسرود ونقاشات دامت أياماً، توصلوا إلى تسمية بلادهم الجديدة «موريكا» نسبة إلى إحدى الأساطير القديمة المشوّقة التي شاعت في بلادهم قديماً عن الشياطين وتآمرهم مع الجن ضد الآلهة التي تسكن تحت سطح الماء ونجاحهم في هزيمتها والتخلص منها.

غاب مسرود حوالي سنتين قبل أن يعود إلى قمره لتقديم تقريره الأول للسلطان عن إنجازاته وسير عملية الهجرة والتهجير في موريكا..

عاد بعد أن فاض شوقُه لزوجته وحضنها الدافئ، وقلقه عليها ورغبته في الاطمئنان على أحوالها وقضاء بعض الوقت معها، وزيارة أحبَّائه وأصدقائه الكثيرين وفي مقدمتهم أستاذه ونسيبه عمرود الذي أثبتت الرحلة بُعدَ نظره وصدق تنبؤاته. وفي طريق عودته إلى الشاطئ الشمالي من بحيرة البهاليل، توقف مسرود يوماً كاملاً على شاطئ جزيرة السلام التي كان يرقد فيها جثمان مجذوب ابن مهبوب، حيث اكتشف معالمها، وقام بتقييم ثرواتها من الأغنام والأشجار المثمرة والمناظر الطبيعية الرائعة، وكشف سر اختفاء مجذوب قبل أكثر من خمسمائة سنة ومكان جثته التي لم تجد من يدفنها. وقبل أن يغادر الجزيرة، قام مسرود ورجاله بدفن ما كان قد تبقى من جثة مجذوب في مراسم احتفالية لم يكن يحلم أن يحصل عليها في حياته.

حين سمع عمرود أخبار العالم الجديد وثراء أرضه وسحر طبيعته، وشَرحَ له مسرود أسباب ومدى حماس أتباعه لتعمير تلك البلاد واستيطانها، شعر بسعادةٍ كبيرةٍ ورغبةٍ عارمةٍ لزيارتهم، وعاد إلى التفكير في الانضمام إليهم، وقيادتهم نحو بناء مجتمعٍ جديدٍ وحضارةٍ متميزةٍ. ولما كانت الهجرة تسمح له بالزواج من سوهارٍ دون الاضطرارٍ للعيشٍ مع أخيها في قصره، فإن حلم الهجرة بدأ يداعب عقله وقلبه المتعب ليل نهار. وحين حان الوقت لعودة مسرود إلى موريكا بعد ثلاثة أشهر، كان على متن الباخرة التي حملته إلى تلك البلاد المثيرة عدد من الأهل والأصدقاء، وفي مقدمتهم زوجته وحبيبة عمره لونا، وابنتها سوما التي كانت قد اُنتخبت أوَّلَ ملكة جمال لبلاد العرابيد، واثنين من أولاده من زواجه الأول، وأستاذه وقدوته عمرود، صاحب نظرية استيطان الشاطئ الآخر، واقتران وهم الشياطين والعمالقة بالجهل والشعوذة.

لكن عمرود، وبالرغم من حماسه لرحلة ما بعد البحار وشوقه لرؤية أصدقائه هناك، كان قلقاً على حبيبته سوهار، التي اعتذرت عن مرافقته إلى العالم الجديد، واعدةً بانتظاره حتى يعود.

مكث عمرود في موريكا حوالي ثلاث سنوات قبل أن يعود إلى مدينة غمره، كان نصفُها الأوَّل مليءٌ بالإثارة والمرح ورحلات الاستكشاف المتتابعة عبر جبالها الشاهقة وغاباتها الكثيفة وسهولها الشاسعة، مروراً بالعديد من أنهارها الكثيرة وبحيراتها الكبيرة. أما النصف الثاني، فقد سيطرت عليه الوحدة وخلوات التأمل والتفكير المضني والقلق، حيث اجتاحه شعورٌ غريبٌ بأنه لا يمتُّ لذلك العالم بِصلة، وذلك بالرغم من أن عملية استكشافها واستيطانها انطلقت من نظرياته العلمية، وأن بناء مجتمعها الجديد جاء على يد أتباعه منسجماً مع المبادئ الإنسانية والقيم الثقافية والأخلاقية التي تخيلها عمرود وأرسى أسسها في كتاباته. ومع القلق والوحدة، زاد حنينه للوطن وشوقه لسوهار، وغمره شعور بالإحباط والضياع بعيداً عن مدينته وحبيبته، مما جعل المرض القديم يعود ليغزو جسده الضعيف مجدداً، ويُنهك قواه التي استنزفها شقاء العمر وكثرة التفكير.

وفي تلك الأثناء، كان مسرود قد وضع جدولاً منتظماً للرحلات بين العالم الجديد والعالم القديم، يفتح المجال أمام الراغبين في السفر لزيارة ذويهم، والإطلاع على الأحوال المعيشية في العالم الآخر. ومع انتظام الرحلات بين موريكا وشواطئ بحيرة البهاليل ومنها إلى بحيرة الأهاويل عبر نهر سراد، انتشرت الحكايات المثيرة عن الحياة في موريكا.. خصوبة الأراضي الزراعية، وفرة المراعي، تعُّددَ أنواع الحيوانات والطيور، كثرة المياه والشلالات، جمال الطبيعة، تعُّددَ مناجم

الذهب والفضة، شيوع الحرية، تنامي الفرص وازدهار الاقتصاد، وسعادةً بلا حدود. ولقد كان من نتائج انتشار تلك الاشاعات وقصص النجاح التي حققها الكثيرون من المهاجرين الأوائل تشجيع أعداد كبيرة من أبناء العرابيد على الهجرة، خاصةً من الشباب الذين كانوا يعانون عذابات الفقر والكبت والاضطهاد. وهكذا جاء اكتشاف موريكا واستيطانها، ليحرم العالم القديم من أفضل ما كان لديه من كفاءات علمية، وقوىً خلاقةً، وأيدي منتجة، وعقول مفكرة مبتكرة، وشباب متدفق حماساً وحيوية وحباً للمغامرة والحياة.

حين قرر عمرود العودة إلى العالم القديم، حاول أتباعه وأخته لونا وحبيبة قلبه سوما ومسرود إقناعه بالبقاء معهم، قائلين إن موريكا هي وطنهم الجديد، يصنعونه على هواهم، ويشكلون ثقافته وهويته كما يريدون، وأن الوطن الجديد بحاجة لعقله وحكمته وقيادته. لكن عمرود كان قد اتخذ قراره بناءً على أسبابه الخاصة، وانطلاقاً من حنينه لوطنه الحقيقي، وحبه لأول وآخر عشيقة في عمره. وحين ألحَّ عليه أتباعه بالبقاء إلى جانبهم، قال لهم: هذا ليس وطني يا أحبائي.. إنه وطن من لا وطن لهم من شبابس يبحث عن الفرصة والمتعة والمغامرة والحرية. أما وطني فهو حيث ولدت ونشأت، وثقافتي هي عادات وتقاليد وأعراف مجتمعي وإن كنتُ أمقتها، وهويتي هي رموز مدينتي وتاريخ أمتي، ورسالتي هي إصلاح الحال في بلادي، لذلك ليس أمامي خيارٌ سوى العودة إلى الوطن. أما أنتم فهذا وطنكم، لأن نظام البطش والاستبداد الذي نشأتم في ظله فرض عليكم كراهية نظام حياتكم والعيش غرباء في بلادكم، وأرغمكم على السفر في المجهول قبل أن تغادروا وطنكم وتهجروه.. إن الإغتراب الذي عشتم في ظلاله في بلاد العرابيد تسبّب

في دفعكم إلى الهجرة في ذاتكم أولاً ودون أن تتركوا بيوتكم، ومنحكم هويةً مزيفةً لا تمتُّ لتاريخ أمتكم ولا لثقافتكم ولا لأحلامكم بِصلة.. إنها هويةٌ تقوم على تبعيةٍ لنوادٍ رياضيةٍ ولاعبين، بعضهم جادّون وكثيرهم مستهترون، والتعلق بمطربين ومطربات، بعضهم ملتزمون وكثيرهم فاسدون. إنني أتمنى لكم التوفيق في بناء مستقبلكم، والنجاح في تشييد صرح وطنكم الجديد، والفوز بهوية متجددةٍ باستمرار، تلبي طموحاتكم، وتتلاءم مع متطلبات حياتكم المتغيرة في عالمكم المثير. وقبل أن يغادر موريكا ويركب الباخرة المسافرة إلى مسقط رأسه في مدينة غمره، قام عمرود بالإشراف على زواج سوما من أقرب المقربين إليه من أتباعه، وزعيم بلاد موريكا المنتخب، وأوصاه بها وبشعبه خيراً.

وعلى متن الباخرة التي حملته عائداً إلى غمره، كتب عمرود في مذكرته: إن الهجرة من العالم القديم إلى العالم الجديد تتم تحت ضغوط عاملين أساسيين: قوة الدفع أو الطرد التي تفرزها ظروف الحياة والعيش والعمل في العالم القديم، حيث يتنامى الفقر والجهل بين الناس، وينتشر الظلم والفساد السياسي والاقتصادي في البلاد، ويستبدُّ الحكم والحاكم، وتقلُّ فرص العمل والتعليم أمام الشباب. وقوة الجذب في العالم الجديد، حيث تشكل البيئة الطبيعية وظروف الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية حديقةً غنيةً بالعسل والعطر، قادرةً على إغراء أجمل الفراشات على التوجه إليها، ورشف رحيقها، والتمتع بخيراتها، واستيطان أرضها. وحين تم اكتشاف العالم الجديد، كانت بلاد العرابيد تعاني من كل عوامل الطرد، بينما كان العالم الجديد يوفر كل عوامل الجذب، مما جعل موريكا تجسد قوة جذبٍ دائمة للمهاجرين، وتقوم باستنزاف أفضل ما كان وما استجدَّ من قوى

بشرية وعقول مبدعة في بلاد العرابيد، وجعل نظام الحكم وظروف المعيشة في بلاد العرابيد تجسد قوة طرد مستمرة، تعمل بلا توقف ودون وعي، على تفريغ البلاد من ثرواتها البشرية، والتسبب بالتالي في تعميق جيوب الفقر فيها، وَتغلغُل الفساد والاستغلال في مؤسساتها، وتقادُم ثقافتها، ودخول العامة من أبنائها غيبوبة الجهل وجهالة التغييب.

وبينما كان عمرود في موريكا يعيش حالات الفرح والمرح والنشوة، تتبعها حالات الوحدة والتعاسة والإحباط ، كانت بلاد العرابيد تدخل مرحلةً جديدةً من تاريخها، غابت عنها شمس آل جلهود، وأفكار عمرود، وأحلام فقراء وبؤساء كل الحقب والعهود. ففي ليلة من ليالي القمر وفرحة الشهر، سَكِر بعض رجال المخابرات، وقاموا بالاعتداء على مجموعة من النساء في مدينة قمره أمام أعين الجماهير، وفي حضور السلطان جلهود، مما فرض عليه استدعاء قوات الجيش بسرعة، حيث قام العساكر باعتقال المشاغبين والمجرمين وقتلهم أمام أعين الناس. وفي نشوة النصر، أمر قائد الجيش جنوده بالاستيلاء على القصر والحكم، وقتل كل من استطاعوا الوصول إليهم من آل جلهود من الرجال، وفي مقدمتهم السلطان جلهود نفسه، وإعلان برنامج إصلاح سياسي واقتصادي بعرضِ السماء وطول الأرض.

وحال وصول خبر مقتل السلطان واستيلاء قائد الجيش في قمره على مقاليد الحكم، أعلن قائدا وحدتي الجيش في غمره وعتره الاستيلاء على الحكم في المناطق الواقعة تحت نفوذهما، والاستقلال عن قمره وحكومتها، وملاحقة من كان في مناطقهم من آل جلهود ورجال مخابرات السلطان وقتلهم، وإعلان برنامج إصلاح سياسي واقتصادي واجتماعي لا تسعه السماوات ولا تتحَّمله الأرض. وبعدَ

محاولات عدة، وافق زعماء البلاد الجدد من العسكر على عقد سلسلة من الاجتماعات واللقاءات «الأخوية» بهدف التوصل إلى صيغة سياسية تعيد توحيد البلاد من جديد. لكن، بينما كان كل حاكم يرفع شعارات الوحدة وينادي بالعمل المشترك ويتحدث عن المصير الواحد، كان يطبق على الأرض سياسات التفرقة القائمة على العشائرية والإقليمية الجغرافية، ويعمل على تعميق أسباب التجزئة السياسية، ويقوم بالاستيلاء على الأملاك التي تركها آل جلهود من بعدهم. ومن أجل تكريس الوضع الانفصالي على الأرض وفي وجدان الجماهير، قام رئيس كل دولة بسنّ سلسلة جديدة من القوانين والتعليمات التي تَحُدّ من حرية الرأي والفكر والنشر والتنظيم والتجمع، وبدء حملة دعائية بهدف خلق رموز ثقافية جديدة، ومنح الجيش حقَّ التدخل في الشؤون الثقافية والتربوية، وتشجيع هجرة المثقفين والمفكرين والمزيد من الشباب إلى العالم الجديد.

وكي يحمي رئيس كل دويلة جديدة ظهره وحكمه من الأصدقاء قبل الأعداء، قام زعيم كل بلد بزيادة مرتبات ضباط جيشه، واستحداث أجهزة مخابرات جديدة متعاونة مع بعضها البعض أحياناً، ومتنافسة في غالبية الأحيان الأخرى، وذلك للتجسس على بعضها البعض وعلى الشعب وقادة الجيش وضباطه، وعلى كبار المسئولين في أجهزة السلطة، وعلى العمال والفلاحين والطلاب والمثقفين، وعلى حكومات وحكام المناطق الأخرى. كما قام كل زعيم أيضاً بإنشاء جهاز للدعاية وربطه بالقصر الرئاسي مباشرة، وتوجيهه للتشكيك في نوايا حكام الدويلات الأخرى المنافسة، والعمل على تقويض مصداقيتهم ومصداقية شعاراتهم الوحدوية، وتشكيل جهاز أمن رئاسي وحرس خاص، أُسْنِدت

إليه مهام حماية الزعيم وتأمين حياته، والتأكد من خلوِّ ما يقدم له من طعام من السموم.

ونتيجةً لما نشرته أبواق السلطة الجديدة في كل ولاية من دعاية وأوهامٍ تتعلق ببرامج الإصلاح الشامل، فرح الشعب كثيراً ورقص طويلاً على أنغام طبول العسكر وجحافل خيولهم، وقامت مجموعةٌ كبيرةٌ من المثقفين الإنتهازين وأنصاف المثقفين والمتسلقين من قيادات عشائرية وتقليدية بتأييد نُظُم القهر العسكرية والعمل على ترويج أكاذيبها. وفي ضوء تعارُض الخَطط المعلنة للإصلاح مع ما كان يطبَّقُ على أرض الواقع من سياسات، فإن المطبلين والمزمرين للنظام قالوا بأن هناك حاجةً للقبول بسياسات الكبت والاضطهاد والتجسس ثمناً لحماية الوطن والمواطن من الأعداء والمشككين، وأن حُكْم «الدكتاتور العادل» هو الوسيلة الوحيدة لضمان حقوق المواطنين والقضاء على رموز الفساد والعهد البائد في البلاد. لكن سرعان ما كشف حُكم العسكر عن وجهه الحقيقي القبيح حين اقتصرت برامجه الإصلاحية على تقديم المزيد من البؤس والفقر والكبت والظلم والاستغلال للمواطنين، وحين فشل في تحقيق الحد الأدنى من الحرية للشعب والوحدة لأبناء الأمة الواحدة.

وحين أيقن الناس أنه لم يكن هناك أملٌ في حدوث أي تغيير، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الغوص في أعماق التاريخ والتراث، يبحثون في دهاليزه عما يعيد الطمأنينة لقلوبهم المعذبة، والرشد لعقولهم المُشَّوشة. وهناك وجدوا آلهة مرعود ابن مفسود القديمة تأخذهم إلى غيبوبة الجهالة وتقنعهم بحتمية حدوث تغيُّرٍ على أيدي قوى غيبية رحيمة، وشيوخاً أفاضل يأخذونهم إلى عشائرية الرعيان وعصبية القبيلة، ومثقفين تقليديين يأخذونهم إلى حضن ثقافة الاتكالية والخنوع

والتذلُّل وغيبوبة الوعي، وخطابات رنانة تخدِّرهم وتَحثُّهم على الصبر والقناعة وتقودهم دون وعي للقبول بأنظمة حكم مستبدة لا تعرف من فنون الحكم غير الكبت والبطش، ولا تحسن من الكلام غير الدجل والكذب، ولا تتقن من الأفعال عير النهب والسرقة، ولا تؤمن بغير ذاتها ومؤسساتها الفاسدة المُفسدة. وهذا تسبَّب في تسارُع عملية التخلف، وتسريع هجرة الشباب من بلاد العرابيد إلى موريكا، وموت المئات منهم غرقاً في مجرى النهر ومياه البحيرات قبل الوصول إلى شواطئ العالم الجديد الآمنة، وذلك بعد أن قرر مستوطنوها وحكامها الجدد إغلاق الحدود مع العالم القديم لأسباب أمنية.. الخوف من وصول تيارات الجهل والتجهيل إلى بلادهم وتغلغلها في ثقافاتهم وتهديدها لنوعية حياتهم، واحتجاجاً على سياسات حكام بلاد المعابيد السلطوية غير الإنسانية. وفي ظل ما آلت إليه الأمور في بلاد المعابيد السعيدة من سوء وتخلف وانحطاط، ظهر أتباع مرعود ابن مفسود من جديد يزورون بيوت الفقراء ويحثُّوهم على الصبر والإسهام في بناء بيوت جديدة للآلهة العظيمة التي ليس لهم سواها نصير، وعاد راعي الغنم القديم إلى الظهور مجددا على شكل فلاح بسيط يلبس ثوباً مهترئاً وقد تنازل عن عصا الرعاة التي أصبحت رمز البطش السلطوي وتسلط السلطة، وفي يده المتعبة شبابةٌ مصنوعةٌ من قصب السكَّر تغنِّي لحن الحنين للماضي، ونايا حزيناً يحكي عمق معاناة البائسين عبر التاريخ.

سافر عمرود مباشرة من شاطئ موريكا إلى مدينة غمره دون التوقف في عتره أو قمره، حيث انتقل من الباخرة القادمة من موريكا إلى قارب خاص كان في انتظاره على شاطئ بحيرة البهاليل. وحين وصل شاطئ بحيرة الأهاويل في غمره كانت الأميرة سوهار في انتظاره

على الرصيف، وفي يدها باقةُ زهورٍ جميلةٍ س يغمر عطرها المكان، وعلبةٌ صغيرةٌ، اكتشف عمرود فيما بعد أنها كانت تحوي خاتمي زواج. لكن عمرود وصل مدينته المحبوبة مرهقاً، وقد أعياه السفر والمرض وعناء التفكير، مما أخاف سوهار ودفعها إلى القلق عليه. وبالرغم من فرحة عمرود بالعودة إلى وطنه وحبيبته بعد غيابٍ طال، لم يستطع أن يخفي غضبه على ما آلت إليه الأوضاع الحياتية في وطنه، مما تسبب في عودة الحزن إلى قلبه المتعب وعينيه المرهقتين. وحين زاد مرضه وحالته الصحية سوءاً، قررت الأميرة سوهار البقاء إلى جانبه وعدم مفارقة غرفته الصغيرة، والعناية به، وإحضار أفضل المطببِّين للأشراف عليه والسهر على راحته. لكن أوضاعه الصحية استمرت في التدهور بشكلٍ مضطردٍ، ونفسيته ساءت كثيراً بعد أن أدرك عمق المأساة التي حملها العسكر معهم لبلاده وشعبه ووطنه.

وخلال لحظة صمتٍ وتأمُّل، وكان قد مضى على عودته بضعة أشهر، اغتنمت سوهار فرصة يقظة عمرود وظهور ابتسامةٍ عريضةٍ على وجهه لتعرض عليه فكرة السفر والهجرة معه إلى العالم الجديد، ظناً منها أن غيابه عن أهله وأصدقائه في موريكا هو السبب الرئيس لما كان يعانيه من مرض ويشعر به من ألم وتعاسة. قالت سوهار لعمرود: بعد تفكيرٍ طويلٍ أدركت أنه كان من الخطأ أن أعتذر عن الهجرة معك إلى موريكا.. لقد سمعت عنها الكثير، واعتقد أنها المكان الملائم لنا، بل المكان الأمثل.. إنني أملك من المال ما يكفي لبناء أجمل قصرٍ في موريكا، نُقيمهُ معاً على شاطئ بحيرة البهاليل في ظل أعلى جبلٍ على الشاطئ، ننعم بمياه البحيرة الساحرة، ونعيش فيه سوياً سعداء إلى الأبد، في وطنٍ حرٍ لا يحكمه جيش، ولا يعكِّر صفوه شيخٌ، ولا تعشِّش في

جباله خرافةٌ، ولا يستبيحه سلطان.

ابتسم عمرود بهدوء، وقد فقد الرغبة في الحياة بعد أن فقد الأمل في اصلاح حال البلاد والعباد، نظر إلى حبيبته نظرةً أخيرةً، حملت في ثناياها الكثير من الحزن والإشفاق عليها وعلى نفسه، وعكست في ذات الوقت سخرية الزمن من حياةٍ تبدأ بدموع فرحٍ وأملٍ سيتجدد إلى حين، وتنتهي بدموع حزنٍ ووداعٍ أخيرٍ لن يتكرر وإن شاخ الزمان وانتهت حياة كل السنين.. غفا عمرودٌ في حضن حبيبته حوالي ساعةٍ من الزمن، وحين صحا من نومه، كانت دموعها تنهمر دافئةً كشلالات جبال الخير، تغمر وجهها الصغير وتتساقط على وجهه كرذاذ خريفٍ جاء قبل الأوان. رفع يديه الضعيفتين بصعوبة، لفَّهما حول عنقها البلوري، ضَّمها برفقٍ إلى صدره الهش، وقبل أن يغُمض عينيه للمرة الأخيرة، حاملاً معه صورتها الفاتنة وخيالات العشق القديم في أحضانها إلى عالمِه الآخر، قال بصوتٍ لا يكاد أن يسمع:

ليس لمسافرٍ بيتٌ يَأوِيه

ليس لمُشردٍ سجنٌ يَحميه

ليس لمغتربٍ وطنٌ يُواسيه

وليس لعاشقٍ شيئاً يَبْكيه.